عيد الجلاء

الدكتورة مها قنوت
وزيرة الثقافة

هل دخلتَ يوماً عالم عشقٍ له باب واحد للدخول... وليس له مخرج أبداً؟ هل تعلقتَ بما حولك إلى الدرجة التي يصبح فيها كل ما حولك أغلى عليك من نفسك؟! هل دخلتَ زمنَ الحب فاستمر ثلاثين أو أربعين عاماً فلم يصغر ولم يتبدد؟ هل تعرَّفت إلى انتماءٍ لم تجد مع مرِّ السنين انتماءً أقوى منه وأكثر اجتذاباً لكل حواسك ومشاعرك؟ هل وصلتَ إلى عمرٍ ترتجف فيه كل أوصالك... لا خوفاً ولا برداً ولكنه الكبر والشيخوخة ومع ذلك فما زالت لديك القدرة على أن تصرخ عالياً... أنك سيد العاشقين وأنك قادر.. أن تبقى وفياً لهذا الحب حتى يستهلكك عن آخرك فلا يُبقي فيك إلا أخاديد الزمن فوق وجهك وانحناءة الظهر رغم رأسك المرفوع؟!

إنها قصة العشق التي تراها في عينيه... صارخةً، ذكريات تتأرجح كأنها تحدث للتو واللحظة. شيخٌ هرم لا يقوى على الوقوف ولكنه مازال قادراً أن يريك الوطن في عينيه، وأن يصرخ أنه عاشق لم يخبُ عشقه ولم يهدأ... هزيل لكنه مازال قادراً أن يعيد الثورة ويستحضر الثوار... تاريخاً عابقاً ببطولات إخوانه وانتصاراتهم وبانفعالاته وحماسة ذكرياته... صوته ضعيف... لكنه رغم ضعفه يعيد إليك أصوات المدافع والبارود ونداء التحرير يعمُّ الوطن... وجهه هرم تَعِبٌ تتبين ملامحه المتعبة، ولكنه قادر أن يبعث فيه الأطرش وهنانو والخراط وكثيرين من أبطال ثورته ورجالها..

كل ما فيه يقول لك شيئاً واحداً: إنه من أبطال الثورة... ممن صنعوا «حماة الديار عليكم سلام» لسانه وصوته ينطقها بصوتٍ عالٍ: كنت في جبل الزاوية ثم كنتُ في حماة... حملت حينها الأخبار ورسالة الثوار إلى الشيخ صالح العلي.

تعرضت للموت أكثر من مرة... لم أكترث، لم يكن يعني لي الموت إلا شيئاً واحداً... أن الوطن سيتحرر من المستعمر الغاشم... شيءٌ واحد كان يشغل تفكيري... بندقيتي، فقد كانت غالية إلى قلبي، بعت كثيراً من أثاث بيتي حتى جمعت ثمنها... وعندما اشتريتها كانت فرحتي بها لا تقدّر حتى أنني قبَّلْتُها عند استلامها كأنها عروسي المنشودة... كنت أفك تراكيبها كل ليلة وأتفقد نظافة إعدادها... أعمرها بالرصاص حتى تكون بأحسن حال وجاهزية. كان كثيرٌ من إخواننا لا يملكون السلاح... كان كل مجاهدٍ منا يوصي ببندقيته إن هو استشهد لأحد رفاقه وأذكر أنني قد أوصيت ببندقيتي الغالية قبل دخولي إحدى المعارك

لجاري عبد الرحيم فقد كان مجاهداً معي ولكنه لم يستطع شراء بندقية... وابتسم حزيناً، تصوري أنه قد استشهد في إحدى المعارك وهو لايحمل إلا سلاحاً حديدياً بسيطاً.. وأنا مازال على قيد الحياة.. لقد حزنت عليه كثيراً... تمنيتُ لو أنه استطاع تحقيق حلمه بشراء بندقية يقاتل بها.

- أما زلت تحتفظ ببندقيتك؟ نظر إليَّ والدهشة تعلو وجهه وصرخ:

- كيف لا؟؟ وهل أستطيع أن أتصور يوماً واحداً لا أنزلها فيه من منصتها في صدر البيت فأعانقها وأتلمسها وأستعيد بها كل ذكرياتي وانتصارات رفاقي، ثم أعيدها إلى مكانها؟.. إنها رفيقتي التي شاركتني أصعب الأيام... كانت وفيّة قادرة... دافعت عني وعمن أحب... وحمت هذا الوطن من أنياب الطامعين... هل أستطيع التخلي عنها وهي التي قاسمتني أشدَّ الليالي برودةً وقساوة... تنتظر معي دورية فرنسية مارة... أو معركة حامية الوطيس حتى تدلو بدلوها وتزغرد فوهتها بصوت النصر الذي لايجيد أحدٌ التعبير عنه كما تبين عنه رصاصاتها، مهما بدت صامتة مع الزمن... إنها القديمة الجديدة... ورغم السنين فما زالت قادرة على التحدث بأفصح لسان... مازالت قادرة على أن تمدنا ببلاغة نادرة وبيان تعجز كل مجالس الأمن وهيئات الأمم أن تعطيك روعة ودقة تعبيره، مازالت قادرة يوم نحتاجها أن تعلي صوت الحق دائماً في فلسطين والجولان وفي جنوب لبنان... واعلموا أنني مؤمن بها... وبها فقط... مهما أحنت ظهري السنون، هي الوحيدة القادرة.. أن تُبقي على جبيني وضاءً شامخاً يتطلع نحو السماء... هي الوحيدة القادرة أن تتحدث

بصوتٍ عالٍ... فتحقَّ الحق وتزهق الباطل... لن أدعها إلا عندما أموت.. ولتعلمي أن لي أولاداً كثيرين سيتسابقون عليها جميعاً يوم يحتاجون إلى بيانها وبلاغتها، ليصبحوا بدورهم رسّامين ونحّاتين مهرة يفتنّون في نحت عشقهم لهذا التراب، وفي رسم فدائهم لهذا الوطن... لأنهم يحبونه كما أحبه... لأنهم يعشقونه كما أعشقه... لأنهم ينتمون إلى كل ذرّة من ترابه كما انتميت أنا... حباً وعشقاً وانتماءً... لاينتهي بالموت لأنه أكبر من الموت نفسه.

- وابتسمت سعيدة مرحبةً به وبحديثه... إنه عالم عشقِ خالد... له باب واحد للدخول... وليس له مخرج أبداً!!.

* * *

التحليل الفلسفي

تأليف: موريس ويتز
ترجمة: خليل الحاج صالح*

تقف في تاريخ الفلسفة، المثالية في تعارض مع المادية والعقلية مع التجريبية والواحدية مع التعددية، ولكن مع أي يتعارض التحليل؟ إذ بالرغم من حضور تحليلات للمفاهيم أو للكليات في الفلسفة منذ ما قبل سقراط، إلا أنّ السنوات السابقة شهدت ظهور التعارض حاداً بين منهج التحليل وغيره من المناهج الفلسفية، كما بيّنت بوضوح كلّ من الطبيعة الدقيقة ودور التحليل الفلسفي.

(*) خليل الحاج صالح: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية وفلسفة العلوم.

وكان أول من استخدم ووضح التحليل كمنهج متميز للفلسفة، هو برتراند راسل، وكان كل من: مور، فيتغنشتاين، ستيبنج، كارناب، آير وغيرهم قد ساهموا في ممارسة وتوضيح أو تعريف التحليل كمنهج فلسفي متميز.

برتراند راسل Bertrand Russell :

لم يكن راسل أول من بين منهج التحليل في الفلسفة المعاصرة فقط بل وفي المقام الأول الممارس الأول لهذا المنهج. أضف إلى ذلك أنه ليس من المبالغة القول أن مجمل النظريات الرئيسية في منهج التحليل المعاصر حاضرة في كتاباته أو أن الآخرين اشتقوها منها.

دفاع عن العلاقات الخارجية :

بعد رحلة شجاعة في المثالية المطلقة امتدت حتى عام ١٨٩٨، صاغ راسل نظرية ثنائية في الواقع: ثنائية العقل والمادة والكليات والجزئيات، وبالرغم من التعديلات وخصوصاً باتجاه الواحدية المحايدة - إلا أن راسل قد حافظ عليها طوال عمله، فبالنظر إلى الواقع ككل واحد عظيم قابل للتحليل، يتساءل راسل باستمرار: ما هي المكونات النهائية لهذا الواقع؟ والتحليل يكشف أن هذه المكونات هي المكونات العقلية والمكونات الفيزيائية، الكليات والجزئيات. أما الحجج المضادة لهذه النظرية فتستند، في جزء منها على الأقل، إلى النظرية التي تقول بها المثالية المطلقة من أن التعددية (والتي تشكل الثنائية جزءاً منها بالطبع) ومنهجها التحليل المرافق تستلزم نظرة يرى المثالي أنها متناقضة ذاتياً، تحديداً... أن العالم يتألف من عناصر وكيفيات وعلاقات موجودة وجوداً مستقلاً. وهكذا يهاجم برادلي في المظهر والواقع Appearance and Reality 1893 «التفكير التحليلي»: على أنه تزييف للواقع لأنه يرد بشكل محتوم الوحدة المحسوسة المباشرة للعالم إلى سلسلة غير مفهومة من تجمعات مجردة لحدود غير مترابطة.

وكانت المسألة الأكثر أهمية في هذا النزاع بين التعددية والواحدية، هي مسألة واقعية العلاقات الخارجية، وبالفعل فقد كان رد راسل على برادلي في هذا النزاع وبحججه (وحجج مور) في سبيل العلاقات الخارجية ابتدأ (تحليل كامبريدج) في القرن العشرين.

ومن دون نظرية في العلاقات الخارجية تصمد في وجه النقد، فإن استقلالية المادة والرياضيات عن الذهن mind تصبح مسألة لا يمكن تحقيقها، . كما لا يكون للمنهج التحليلي في الفكر وفي الخطاب عن العالم مبرراً. لقد جعل اهتمام راسل المبكر بالعلم والرياضيات من الملح دحض نفي خارجية العلاقات، إذ تؤكد المثالية المطلقة أو الواحدية أن العلاقات ليس نهائية ultimate ذلك أن العلاقة هي مما يقبل دائما الاختزال إلى واقعة حول طبيعة كل واحد من الحدود المترابطة، حيث أن كل واحد من هذه الحدود المترابطة هو شيء داخلي بالنسبة لطبيعة الحدود الأخرى.

يرفض راسل هذه النتيجة على أساس أنها تصور علاقات غامضة لا متماثلة من مثل (أكبر من) على أنها متناقضة ذاتياً، إذ تميز بين طبيعة الحد وخصائصه ثم تجعلهما في علاقة هوية فيما بينهما، وهي تختزل الهوية بالاختلاف إلى هوية مطلقة، كما تصبح الأطروحة الأساسية في المثالية المطلقة والواحدية أن هنالك موضوع واحد ومحمولاته، أطروحة خالية من المعنى.

يحاجج راسل بأن العلاقات واقعية بالمعنى الدقيق، بمعنى أنها غير قابلة لأن ترد إلى خصائص للموضوعات أو للكل، وهي خارجية لا بسبب وجودها كحدود مستقلة إلى جانب الموضوعات وخصائصها فحسب بل فوق ذلك لأنها لا تقبل الرد إلى ما سواها؛ فالتعددية في هذه الحالة هي النظرية القائلة بأن هناك وحدات قابلة للتحليل أو وقائع تتألف من الأفراد ومن خصائص هذه الأفراد والعلاقات التي تجمعها، وليس كما افترض برادلي، من أفراد وخصائص وعلاقات أي من ثلاثة مجموعات من الحدود

لا يمكن أن تكون مترابطة . كما يحدد راسل الشرط الميتافيزيقي الضروري للتحليل المتمثل في «اكتشاف مكونات المركب»، وهذا الشرط يعني وجود وحدات موجودة باستقلال، تكون مكوناتها حدوداً وخصائص في علاقاتها الخارجية؛ يستطيع التحليل (كتفكير عقلي) أن يصور الخبرة معقولة، سواء بسواء، مقولات الحس المشترك والمقولات العلمية للموضوع الفيزيائي، المكان، الزمان، السببية، الحركة؛ وهكذا تفشل حجة برادلي الجدلية والمهمة لتدمير فعالية التحليل: فالشعور المحض بالمباشرة ليس بديلاً مرضياً لمنهج التحليل في فهم العالم.

وللتخلص من حجج المثالية المطلقة الموجهة ضد الثنائية، يستخدم راسل التحليل لدحض مثالية بيركلي الموضوعية، ويسبق بذلك «دحض مور للمثالي»، إذ يشير راسل إلى أن تحليل وعينا لمعطيات الحس يكشف عن تمييز غير قابل للرد بين الوعي وموضوعه والخصائص، مثل لون أو صوت معين، إذ لا يحتاج ولا يعتمد في أغلب الحالات في وجوده على أي وعي. كما يستخدم راسل التحليل وخصوصاً نظرية العلاقات الخارجية، ليدحض الاسمية Nominalism وذلك بإظهار أن رد الكليات إلى أسماء يستند إلى إثبات أن الواحد كلي التمثيل والذي هو بدوره علاقة غير قابلة للرد من بين خصائص معينة. وبحلول عام ١٩١٢ كانت ثنائية راسل قد صيغت في شكلها النهائي، ثنائية العقل والمادة، الكليات والجزئيات؛ ورغم أنه قيد إلى أن يحل العقل والمادة إلى كائنات أبسط، من مثل، الحس sensensibilia أو الأحداث events، إلا أنه لم يجحد التعددية الأساسية في فلسفته أو في محاولته المستمرة لاكتشاف وإقرار المكونات النهائية للواقع أو بعض من مركباته القابلة للتحليل.

التحليل الصوري والذرية المنطقية Formal Analysis and logical Atomism :

التحليل الصوري كما يفهمه راسل هو فحص العالم من وجهة منطقية صرف. وما يكون محط الاهتمام بالدرجة الأولى هو أشكال التنظيم

المختلفة والتي تتكشسف عن طريق اللغة والواقع؛ فالتحليل الصوري هو علم كون Cosmology مجرد، يتعامل مع البُنى النهائية للغة والعالم. وقد سور راسل الذرية المنطقية في بدايات احتراقه للفلسفة فوصلت إلى أوجهها بعد نشر (أصول الرياضيات Principa Mathematica 1910-1913) بالإضافة إلى سلسلة من المقالات بعنوان (فلسفة الذرية المنطقية Philosophy of Logical Atomism).

يمكن أن يُعرّف الشكل، إما لغوياً linguistically أو بشكل غير لغوي nonlinguistically، يقوم راسل بتعريف الشكل لغوياً ثم يترجم نتائج بحثه كمفتاح في تحليل الشكل غير اللغوي؛ أما الشكل القضائي (صورة القضية) أي «الطريقة التي تُجمع بها مكونات القضية إلى بعضها البعض» فهي ما يمكن الحصول عليه عندما نُحل محل المتغيرات مكونات القضية.

أما اسم العَلَم proper name فهو رمز بسيط يُسمي جزئياً ما يكون بدوره (الجزئي) معنى للاسم، فالاسم يرمز إلى الجزئي الذي يكون المتكلم على اتصال به، ذلك أننا لا نستطيع أن نسمي أي شيء لا نكون على اتصال به. أما (هذا this) و(ذاك that) فليست أسماء علم عادية مثل سقراط إنما أمثلة عن أسماء الأعلام الحقيقية؛ والجزئيات وحدات قائمة بذاتها self-subsistent وأكثر شبهاً بالجواهر التقليدية؛ فيما عدا ذلك وعلى الأقل إلى الحد الذي تكون خبرتنا معنية بها فإن هذه الجزئيات تستمر فقط «خلال فترة زمنية قصيرة جداً».

أما القضية فهي جملة ذات معنى تقرر أو تنفي شيئاً ما، فهي تختلف عن الاسم في أن لها علاقتين محتملتين مع الواقعة، إذ إما أن تكون صادقة أو كاذبة، بينما ليست للاسم إلاّ علاقة واحدة بجزيء ما، هو الذي يسميه هذا الاسم. والواقعة تتركب من جزئي واحد أو من جزئيات عدة ومن صفات وعلاقات، والواقعة هي التي تجعل القضية صادقة أو كاذبة، كما أنها توجد بمعزل عن تفكيرنا حولها.

والقضية الذرية Atomic Proposition هي تلك القضية التي تُثبت أن شيئاً ما يحوز صفة محددة، أو أن أشياء معينة لها علاقات محددة، والأمثلة على ذلك «هذا أبيض»، «هذا أسفل ذاك» وتقابل القضايا الذرية الوقائع الذرية، والوقائع الذرية هي أبسط أنواع الوقائع إذ تتألف من صفة أو علاقة خاصة بجزيء ما أو بجزيئات، ويوجد تماثل تام من حيث الشكل بين القضايا الذرية والوقائع الذرية، فالموضوعات (أسماء الأعلام) تقابل الحدود (الجزئيات) والصفات تقابل الكيفيات والأفعال تقابل العلاقات.

أما القضية الجزئية فهي تلك التي تتضمن قضايا أخرى كمكونات لها، وتظهر فيها كلمات دالة صدق القضية من مثل «أو or»، «إذا if»، «و and» وكمثال «إذا أتيت سيأتي صديقك أيضاً»، وكان راسل قد نفى في البداية وجود الوقائع الجزئية Molecular Facts لكنه عندما ناقش الوقائع العامة General Facts التي تشكل الوقائع الجزئية أنواعاً منها قبل بوجود الوقائع الجزئية.

أما القضية الوجودية Existence فتثبت صدق قيمة واحدة على الأقل لدالة القضية، ومثالها «بعض الرجال مسلمون» ومعنى ذلك أنه توجد وقائع وجودية تتميز عن الوقائع الذرية، ويعتبر راسل أن ذلك واضح بذاته.

أما القضية العامة فتثبت (أو تنفي) صدق جميع قيم دالة القضية، والواقعة العامة هي تلك التي تقابل قضية عامة، ونحن لا نستطيع أن ننفي وجود الوقائع العامة أو أن نختزلها إلى وقائع أخرى، أما القضية العامة بشكل تام فهي التي تظهر في المنطق إما كبديهية أو كفرضية وهي تحتوي على متحولات veriables ودالة صدق truth function فقط، إذ أنها تحليلية analytic وقبلية apriori.

وإلى جانب القضايا الإيجابية والسلبية هي بدورها أساسية، بكلمة أخرى سنجد أنه من الصعب أن نقول ما الذي يقابل قضية عندما - على سبيل المثال - يكون لدينا قضية موجبة كاذبة؛ مثلاً، «سقراط حي» إنها قضية

كاذبة بسبب واقعة في العالم الواقعي، ولا يمكن أن يكون شيئاً ما كاذباً إلا بسبب واقعة ما؛ «لذا سنجد من العنت الشديد أن نقول ما الذي يحدث بالضبط . . . إلا إذا اعترفنا بالوقائع السالبة».

نظرية الأوصاف Theory of Discriptions :

يستبقي راسل في كتابه «مبادئ الرياضيات ١٩٠٣» نظرة الواقعيين الأساسية المتمثلة في أن أي موضوع من مواضيع الفكر أو المقال «موجود أي أنه يكون في حاسة ما has being, i.e., is in some sense»؛ لكنه يلاحظ بعد نشر «أصول الرياضيات Principa» أن هذه النظرية تقود إلى تناقض، فلنأخذ على سبيل المثال، القضية «لا يوجد مثلث دائري»، إنها قضية صادقة ذات معنى؛ فصاغ المسألة لاحقاً بقوله: «إذا كان هنالك شيء كهذا، فإنه سيكون موجوداً» if there were such an object, it would exist إذ لا نستطيع أن نفترض في المقام الأول أنه يوجد شيء ما محدد، ومن ثم نقوم بنفي أنه يوجد». وبمعزل عن هذه النظرية يتناول راسل المشكلة المتمثلة في تحليل القضايا المحتوية المشكلة المتمثلة في تحليل القضايا المحتوية على رموز لموضوعات غير واقعية أو متناقضة ذاتياً، يهدف هذا التحليل إلى المحافظة على إحساسنا القوي بالواقع كما يسمح لنا بالتحدث حول هذه الموضوعات - الزائفة بشكل مفهوم.

يقوم حل راسل لهذه المشكلة على نظريته في الأوصاف، والقاعدة الأساسية لهذه النظرية هي التمييز الجوهري بين نوعين من الرموز هي أسماء الأعلام «proper names» والأوصاف «discriptions»؛ ويؤخذ اسم العلم هنا بالمعنى الواسع، أي رمز بسيط، مثل (سكوت Scott) إذ يشير بشكل مباشر إلى فردي، وهذا الفردي هو معناه وللاسم هذا المعنى بمعزل، أي استقلالا عن جميع الكلمات الأخرى.

أما وصف ما فهو رمز مركب، مثل «مؤلف ويفرلي» فالوصف لا يشير إلى الفردي مباشرة، ذلك لأنه «رمز ناقص incomplet symbol» أي

رمز ليس له معنى بمعزل، بل يأخذ معناه ضمن سياق مع الرموز الأخرى، «فمؤلف ويفرلي» ليست رمزاً كاملاً من حيث أنه ليس اسم علم وذلك لثلاث أسباب:

آ- لأنه ليس رمزاً بسيطاً يشير إلى جزئي أو فردي يعامل معاملة الجزئي، بل هو رمز مركب.

ب- ثم لأن معناه يحدد عندما نعرف معاني الكلمات المنفصلة (كل على حدة).

بينما لا يحدد معنى اسم العلم بكلمات، بل بمعرفتنا بمن [أو بما] ينطبق عليه الاسم:

«سكوت هو مؤلف ويفرلي Scott is the author of Waverly».

ج- ثم إذا كان [مؤلف ويفرلي] اسم علم، فستكون [عبارة] «سكوت هو مؤلف ويفرلي»، إما تحصيل حاصل عديم الفائدة أو حقيقة مستقلة عن أي وعن كل الوقائع المتعلقة بالعالم (إذ ستكون مساوية لـ «سكوت هو سكوت»)، أو تكون كاذبة (إذا كانت «مؤلف ويفرلي» ترمز إلى شخص آخر غير سكوت») إلا أن هذه القضية قضية إعلامية (أي أنها ليست تحصيل حاصل)، ثم إنها قضية صادقة تكشف عن واقعة من التاريخ الأدبي، ولذا لا يمكن أن تعامل كاسم عامل.

والوصف هو رموز ناقصة للسبب الثاني (ب)؛ فما يفترض بها أن تشير إليه ليس واقعياً «مكونات القضية»؛ وهذا ما قصده راسل بأنه لا توجد كائنات فعلية يمكن أن نسمي معناها، عندما يظهر وصف ما في قضية ما، فلن يوجد مكونات لتلك القضية تقابل ذلك الوصف ككل. وهذه نتيجة تتلو عن الواقعة التي يمكن أن نعبر بها عن قضايا ذات معنى وصادقة تنفي وجود شيء ما، مثلاً (لا وجود لجبل فرجينيا الذهبي).

- والتساؤل الآن هو كيف يمكن أن تحلل الأوصاف؟

والجواب هو بوضعها في سياق قضائي وتحليل النص (المؤلف من هذه الأوصاف) لكل بنفس الأسلوب الذي يختفي فيه الفاعل في النحو وتحل محله رموز أخرى. فنحن على سبيل المثال، نحلل «سكوت هو مؤلف ويفرلي» كاذبة إذا:

١- إذا كانت (ويفرلي) لم تكتب مطلقاً.

٢- إذا كان أكثر من شخص قد كتبوا (ويفرلي).

٣- إذا كان شخص آخر غير (سكوت) هو الذي كتب (ويفرلي).

وبالنتيجة ما نحتاجه هو نفي هذه الشروط المكذبة الثلاث فقط، وعندها :

(١) تصبح «س كتب ويفرلي» قضية ليس كاذبة دائماً، أي أن شخصاً واحداً على الأقل قد كتب (ويفرلي).

(٢) تصبح «إذا كان كل من (س) و(ع) قد كتبا (ويفرلي) عندها يكون (س) و(ع) متطابقان، أي أن هناك شخص واحد على الأكثر قد كتب (ويفرلي)» ؛ أما

(٣) فتصبح إذا «كان (س) قد كتب (ويفرلي)»، عندها (س هو سكوت صادقة دائماً)؛ وهذه القضايا الثلاثة مجتمعة تحقق «س كتب (ويفرلي)» مساوية دائماً لـ «س هو سكوت».

هذا التحليل لقضايا تحتوي على أوصاف يمكننا من التحدث بشكل مفهوم عن موضوعات غير واقعية ومتناقضة ذاتياً، مثل «الملك الحالي لفرنسا»، «المربع الدائري»، لأن القضايا التي تدور حول هذه الموضوعات يمكن الآن أن تفسر كقضايا تتضمن حالات قضائية ومتحولات، وليست موضوعات هي بطريقة ما ليست واقعية.

فيما بعد أصبحت نظرية الأوصاف على درجة من الأهمية بعد

تطويرها في «On Denoting 1905» وفي «Principia Mathematica 1910» فقد خدمت هذه النظرية راسل، كنموذج في معالجته للرموز الإشكالية الأخرى والكائنات المفترض وجودها، والفئات والأعداد، العلاقات (بمدلول اللفظ)، النقاط، السرعات، جزئيات المادة، وحتى الموضوعات العادية، مثل الطاولات أو الأشخاص؛ هذه جميعاً قد عولجت بنفس الطريقة كأوصاف؛ وفي كل حالة كان الرمز لأي من هذه الموضوعات يعالج كرمز ناقص، قابل للتحليل بحدود حالات قضائية ومتحولات أو قيم المتحولات؛ وفيما بعد وفي عدد من البحوث المؤثرة والكتب ابتداء من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٢٧؛ وخصوصاً معرفتنا بالعالم الخارجي «Our Knowledge of External World, 1914» «علاقة معطيات الحس بالفيزياء «Relation of Sense Data to Physics» «فلسفة الذرية المنطقية «The Philosophy of Logical Atomism, 1918-1919»، «تحليل العقل The Analysis of Mind, 1921» و«تحليل المادة The Analysis of Matter, 1927» فيها جميعاً يطبق راسل التحليل كحل للرموز الناقصة إلى رموز أو مفاهيم في العلوم الطبيعية.

إن وضع الكائنات التي تعينها ظاهرياً رموز العلوم الطبيعية هو الذي قاد راسل إلى معالجة هذه الرموز كرموز ناقصة، فعلى سبيل المثال، تتحدث الفيزياء عن النقاط في المكان، وعن السرعة في الزمان، وجزئيات المادة؛ كما تطالب أن تكون علماً تجريبياً؛ من حيث أن نقاطها، سرعاتها، والكتروناتها يجب أن تكون قابلة للملاحظة، والحال أنها ليست كذلك، في حين أن معطيات الحس المباشرة مع علاقات زمكانية spatiotemporal معينة هي القابلة للملاحظة؛ وبالنتيجة فإن على الفيزياء أن تحقق نفسها كعلم تجريبي أن تعرف حدودها من خلال معطيات الحس هذه.

وهكذا لم تعد بعد كائنات الفيزياء دلالات للأسماء أو للأوصاف، إذ أنها أصبحت كائنات استدلالية غير ضرورية، ذلك أن أي شيء في الفيزياء

يكن بعد الآن أن يُحقق بمعطيات الحس؛ «فالنقاط»، «السرعات»، «الجزئيات»، . . . الخ يترجمها راسل كرموز ناقصة ليس لها معنى بمعزل - أي أنها تسمى لا شيء - كما يفسر القضايا التي من المفترض بها أن تشير إلى هذه الكائنات بالأسلوب الذي تكون فيه الرموز لهذه الكائنات غير الضرورية منحلّة في الأخرى، ذات الدلالات التجريبية؛ فبدلاً من الاستدلال على وجود الكائنات العلمية، نبنيها بعيداً عن المواد التجريبية، ويتضمن هذه الإجراء :

(١) تحديد الكائنات التجريبية النهائية، ثم . . .

(٢) تعريف رموز العلوم بحدود هذه الكائنات التجريبية، وتعريف هذه الرموز ضمن سياقاتها القضائية المناسبة إلى جانب البناء لموضوعات غير واقعية، متناقضة ذاتياً ووصفية تفي سياقاتها القضائية المناسبة، ومن ثم، ينشأ التحليل كحل للرموز غير الكاملة في فلسفة راسل.

ما قصده راسل بالتحليل:

بالرغم من أن راسل لم يحدد ما يعنيه بالتحليل «وذلك على خلاف مور» إلا أنه من الواضح تماماً من استخداماته للمصطلح أنه يفهمه كنوع من التعريف وهذا التعريف إما أن يكون واقعياً أو قرينياً، لغوياً أو غير لغوي. فإذا كان التعريف الواقعي منفصلاً عن خلفيته الأرسطية وإذا ما قيس على أنه محاولة لتعدد المكونات المتنوعة للواقع، كمركبات موجودة بشكل مستقل فإن راسل قد مارس تعريفاً واقعياً بكل تأكيد؛ «ما هي المكونات النهائية للواقع، أو لوجه من أوجه هذا الواقع؟» هذه هي المشكلة الفلسفية الدائمة عند راسل.

وعلى كل حال فإن التعريفات القرينية (أي تعريف الرموز باستخدام مجموعة واحدة من الرموز كبديل لمجموعة أخرى من الرموز) تظهر أحياناً في فلسفة راسل. هناك محاولة مستمرة في (تحليل العقل) على سبيل المثال،

للوصول إلى تعريفات قرينية للمصطلحات التعسفية. ولكن أكثر من تعريف واقعي ذاك المتضمن في عملية صياغة تعريفات قرينية، فتحليل راسل للذاكرة مثلاً، لا يتضمن عبارات من مثل «تحليل صحيح»، «تحليل كامل» و«تحليل مغلوط» والتي يكون لها معنى من خلال نظرة إلى التحليل كتعريف واقعي فقط بل أيضاً وفي المقام الأول كإحصاء للمكونات التجريبية لمركب معطى يسميه علم النفس أو الحس المشترك «ذاكرة»؛ فهكذا تحليل يفترض أن الحد «ذاكرة» أو مكافئاتها، ليس مكون حقيقي في القضية التي تظهر فيها تعابيرها اللفظية، إذ يجب أن يحل محلها رموز أخرى في سياقات قضائية معينة، تشير إلى الإحساسات والصور معاً في خصائصهما وعلاقاتهما.

ويتابع راسل ذات التحليلات في فلسفة الفيزياء، والمثال النموذجي هو تحليله «للزمان» و«اللحظة»؛ إذ يبدأ التحليل بالتسليم بأن هذين الحدين لا يشيران إلى كائنات بسيطة، على الأقل إلى الحد الذي تكون فيه خبرتنا موضع الاهتمام، وينشأ التحليل هنا بإحصاء للمكونات التي هي أحداث محددة، وسماتها المميزة، بالإضافة إلى علاقاتها. وأخيراً تقدم تعريفات قرينية على أساس هذا الإحصاء، أو على أساس التعريف الواقعي وتعرف القضية «يتألف الزمان من لحظات» قرينياً كما يلي: «ليكن أي حدث (س)، فإن أي حدث لاحق كلياً لحدث ما مزامن لـ(س) هو لاحق كلياً لحدث ابتدائي معاصر لـ(س)».

جورج إدوارد مور G. E. moore :

في «رد على النقاد» (فلسفة ج. إ. مور ١٩٤٢) يبين مور، وبعد خمسين عاماً من ممارسة التحليل الفلسفي، ما عناه باستمرار أو معنى قصده «بالتحليل»؛ فيؤكد أن التحليل هو شكل من أشكال التعريف، لكنه ليس تعريفاً بالكلمات، بل بالمفاهيم أو بالقضايا. هنا على المرء أن يبدأ بمفهوم أو قضية مفردة - المحلَّل (موضوع التحليل) analysandum، ثم يحاول أن

يوفر مجموعة أخرى من المفاهيم أو القضايا - المحلّل analysans والذي يكون مكافئاً منطقياً للمفهوم أو للقضية الأصلية؛ وبالرغم من اعترافه عدم القدرة على صياغة الشروط الضرورية والكافية للتحليل الصحيح، وبالتبعية، فإنه لم يستطع أن يضع تحليلاً أو تعريفاً لمفهوم التحليل؛ إلا أن مور قد أكد على شروط ثلاثة ضرورية - على الأقل - للتحليل الصحيح:

فإن كان علينا أن نقوم بتحليل لمفهوم معطى وهو في هذه الحالة المحلّل the analysandum علينا أن نذكر كمحلّل مفهوم من مثل :

آ- لا أحد يستطيع أن يعرف أن المحلل andlysadum ينطبق على موضوع ما دون معرفة أن المحلل analysans ينطبق بدوه على هذا الموضوع.

ب- لا أحد يستطيع أن يؤكد أن المحلل analysandum يطابق دون أن يعرف أن المحلل analysans يطابق أيضاً.

ج- إن أي تعبير يعبر عن المحلل analysandum يجب أن يترادف synonymous مع أي تعبير يعبر عن المحلل analysans.

والآن تبعاً «ج»، فإن التحليل بالرغم من أنه ليس لغوياً، إلا أنه يتضمن استخداماً للغة؛ وهنا يتساءل مور ما هي الطريقة المناسبة للتعبير عن التحليل؟

يستخدم مور هنا مثاله المفضل، «الأخ» ويقترح طرق التعبير الأربع التالية :

- «مفهوم» أن تكون أخاً يتطابق مع المفهوم «أن تكون أخاً ذكراً sibling male».

- «دالة القضية» «س هو أخ» تتطابق مع دالة القضية «س هو أخ ذكر».

- «أن تقول أن شخصاً ما هو أخ نفس الشيء أن تقول أن ذلك الشخص هو أخ ذكر».

- «أن تكون أخاً هو نفس الشيء أن تكون أخاً ذكراً».

إن كل واحدة من هذه الطرق في التعبير عن تحليل الأخ يلبي المتطلبات الثلاثة لكنه يولد أيضاً «مفارقة التحليل»؛ لنأخذ على سبيل المثال، «أن تكون أخاً هو نفس الشيء أن تكون أخاً ذكراً»، فإذا ما كانت هذه العبارة صحيحة، فإنها تبدو متطابقة مع العبارة القائلة «أن تكون أخاً هو أن تكون أخاً». وعلاوة على ذلك فإنه من الواضح أن هاتين العبارتين ليستا نفس الشيء وأن اللاحق يختلف عن السابق، إذ أنه ليس تحليلاً لمفهوم «الأخ» ومور معترفاً بعدم قدرته على حل هذه المفارقة؛ يشدد على أن أي حل مزعوم يجب أن يكون وثيق الصلة بالوقائع؛ فالمحلَّل analysandum والمحلِّل analysans في تحليل صحيح هما نفس المفاهيم وأن التعبير المستخدم للمحلَّل analysandum يجب أن يكون مختلفاً عن التعبير المستخدم للمحلِّل analysans حيث يجب أن يذكر التعبير اللاحق بوضوح مفاهيم لم تذكر صراحة في التعبير السابق، إلى جانب الطريقة التي تكون فيها المفاهيم منظمة إلى بعضها البعض.

يتفرض أن التحليل إذاً تمييزاً بين الكلمات والمفاهيم، أو بين الجمل والقضايا؛ فالتحليل يقتصر على التوضيح والتعريف للمفاهيم والقضايا؛ كما يجب أن يتبع التعبير اللفظي في التحليل نموذجاً مثالياً في إعادة الصياغة بحيث يكون ما يُحلل مكافئ للتعبير الأوسع، الأوضح والمرادف. وهكذا تكون النقطة المركزية في عمل التحليل هي التوضيح للمفاهيم، وليس اكتشاف وقائع جديدة عن العالم.

هل يتطابق التحليل مع الفلسفة ؟

يرفض مور أن يكون الأمر كذلك؛ فما التحليل إلا مهمة من بين عدة مهام للفلسفة. وهو يرى أن الفلسفة، لها هدف شرعي يتمثل في «إعطاء وصف عــــام لكل الكون» (Some Main problems of Philosophy بعض المشكلات الرئيسية للفلسفة).

يضــع مور تمييزاً حاداً في «دفاع عن الحس المشترك» Adefence of Common Senese بين القول الفلسفي بالحقيقة البديهية للحس المشترك –

والذي نفهمه جميعاً ونعرف أنه صحيح - وبين التحليل الفلسفي لهذه الحقائق البديهية؛ ويقيم ذات التمييز في «البرهان على وجود العالم الخارجي Proof of an External World 1939» بين إعطاء البرهان على قضية فلسفية وبين القيام بتحليل للمقدمات والنتيجة لهذا البرهان؛ وبعد التوضيح المتأني لفكرة العالم الخارجي، والتي يحصرها «بالأشياء خارجاً عنا»، مثل، الكلاب، الأشجار، الكواكب، والأيدي، ويقدم برهاناً يتمثل بأن هناك أشياء توجد خارجاً عنا». ويؤكد مور أن المقدمات صحيحة، وتنتج النتيجة عن المقدمات؛ إذاً، فهو برهان استنتاجي. إن تحليلات المقدمات والنتيجة تُبقي على شيء من الشك على أي حال.

والتساؤل الآن، هل ينسجم التحليل كما يفهمه مور مع ممارسته إياه؟

إن من الصحيح تماماً أن عدداً من التحليلات المحددة لمفهومات أخلاقية ومفهومات من مجال الإدراك الحسي وتحليلات القضايا هي محاولات - سواء أكانت مكتملة أم لا - وفق تعريفات مفهومية ملبية لمقياسه في التحليل الصحيح. إلا أن ممارسة مور للتحليل تكشف عن استعمال آخر للتحليل، ليس كتعريف للمفاهيم ولا ينتج في إعادة صياغة لغوية وغير مفهومية محددة للمركبات. والمثال على استخدام التحليل كتعريف واقعي متضمن في «دحض المثالية Refutation of Idealism 1903». ففي ذلك البحث وبعد توضيح مسهب للمبدأ القائل بأن وجود الشيء إدراك «esse is percipi» والذي ينظر إليه مور كحجة مركزية في الجدال في سبيل المثالية، ولا يسعى مور هنا إلى محاولة دحض هذه النظرية بعرض طبيعتها المتناقضة ذاتياً؛ بل يقدم نظريته الخاصة في الإحساس.

ففي تحليله للإحساس باللون الأزرق، مثلاً، هذا التحليل الذي ليس بلغوي ولا مفهومي، يكتشف مور، الأزرق، الوعي، والعلاقة الفريدة للوعي الأزرق. وبالإضافة لتصور التحليل الذي استخدمه كان هنالك تحليل مطابق لتعبير الفعلي عن التحليل كتعريف واقعي في الفصل الافتتاحي

من كتابه Principa Ethica . إن القسم الأغلب من فلسفة مور وخصوصاً تحليلاته للخير Good ومعطيات الحس sense data ، وربما أيضاً تحليله للخصائص العلاقية relational properties كما قدمها في «العلاقات الخارجية والعلاقات الداخلية» «External and Internal Relations, 1919 ١٩١٩» سيكون واضحاً فقط بالاستناد إلى هذا التصور للتحليل كتعريف واقعي.

وإذ يحتل التحليل - سواء أكا مفهومياً أم واقعياً - مكانة هامة في فلسفة مور، إلا أنه على أي حال ليس مركزياً كما كان في فلسفة راسل؛ حتى أنه من المشكوك فيه أن مساهمات مور في التحليل هي أهم ما يساهم به في الفلسفة؛ ذلك أن عدداً من المعجبين بمور في الوقت الحاضر قد لاحظوا أن اهتمامه الدائم بالوضوح المطلق للتعبير، والملائمة اللغوية، والحس المشترك، وربما أيضاً وفوق كل ذلك إقراره المبدئي بأن تحليل المفاهيم يجب وبشكل جوهري أن يفسح المجال لتوضيحها، هو ما يشكل إنجاز مور العظيم ويفسر تأثيره الحالي.

بعض من أتباع راسل ومور:

يكون التحليل عند راسل إما تعريفاً واقعياً أو قرينياً، إما وجودياً أو لغوياً؛ أما عند مور فيكون التحليل تعريفاً مفهومياً أو واقعياً وهو في كلا الحالين تعريف وجودي، وليس محض تعريف لغوي. وقد شهدت فترة العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ظهور جهود عدد من الفلاسفة التحليليين ممن أكدوا وعملوا على تحسين واحد أو أكثر من التصورات التحليلية لراسل ومور ومن هؤلاء؛ شارلي دنبار برود C.D. Broad، لودفيغ فتيغنشتاين Ludwing Wihgenshein في (رسالة منطقية فلسفية)، وسوزان ستيبنغ Susan stebbing، وجون ويزدم John Wisdom، وجلبرت ريل Gilbert Ryle.

فيتغنشتاين:

بالرغم من الاعتراف العالمي بعمل فيتغنشتاين الفلسفي «رسالة فلسفية

منطقية Tractatus logico Philosophcus» كعمل كلاسيكي في الفلسفة التحليلية في القرن العشرين، إلا أنه توجد معارضة واسعة تتجه إلى طبيعة نظرياته الأساسية بما فيها، اللغة، المنطق، الرياضيات والقوانين العلمية، وسواء بسواء، تتوجه المعارضة أيضاً إلى طبيعة العلاقة بين اللغة والعالم كما إلى الدور الخاص المنسوب إلى الفلسفة.

ولا يتضمن عمل فيتغنشتاين المذكور إلا القليل عن التحليل؛ بالرغم من ذلك فإن ما يظهر واضحاً في «الرسالة» هو [دور فيتغنشتاين role wih-gentsein] المعزو إلى التحليل؛ إن وظيفة التحليل هي تحليل كل القضايا الوصفية descriptive المركبة إلى واحداتها ones الأولية ثم تحليل هذه الأخيرة إلى واحداتها unitis النهائية الأساسية بأسماء غير قابلة للتحليل -unanalyzalbe names وتركيباتها التي تقدم وتعني [تسمى] البسائط النهائية للعالم.

إذاً فمهمة التحليل هي جعل كل عبارة صورة كافية عن الواقع الذي تصفه؛ وهكذا تحليل يبدو متجذراً في إطروحة التوسع -thesis of extensionality المتمثلة بالادعاء القائل بأن كل عبارة هي إما عبارة بسيطة منطقياً (قضية أولية) أو دالة صدق لتلك العبارات.

فالتحليل إذن، هو نوع من التحليل اللغوي - اختزال القضايا المركبة - بغض النظر عن شكلها النحوي - إلى مكوناتها الذرية وارتباطاتها، والتي بدورها تظهر الشكل المنطقي الصحيح لتلك القضايا. إنه ليس بالتعريف الوجودي ontolgical ولا بالتعريف المفهومي - وكما هي الحال في نظرية الأوصاف عند راسل؛ فإن التحليل عن فيتغنشتاين هو تحليل للقضايا المضللة من ناحية التركيب النحوي إلى تعابيرها المنطقية الصحيحة؛ وحيث أن العالم (هذه العلاقة التي يمكن إظهارها فقط)، فالتحليل يكون هنا افتراضياً إجراء صحيح إلا أنه لا يتطابق مع الفلسفة، والتي تحوز مهمتها الخاصة في جعل ما يستطاع وما لا يستطاع قوله واضحاً؛ وحالما يكتمل العمل، فإن التحليل يستطيع المساعدة في التوضيح الفعلي؛ لكن الفلسفة ذاتها لغو nonsensical

وبشكل أساسي (في محاولتها قول ما تستطيع اللغة فقط إظهاره)، وبما أن التحليل يرتكز على الفلسفة فإنه ليس من الظاهر مباشرة أن التحليل هو بدوره ليس بشكل أساسي لغو nonsensical.

ويزدم John Wisdom :

وصف رامزي F. P. Ramsy، في عام ١٩٢٩ نظرية راسل في الأوصاف بأنها «بارادايم الفلسفة Paradigm of philsophy» فلقد كانت فكرة راسل المتعلقة بمهمة الفلسفة كترجمة للتعابير المضللة نحوياً أو التعابير غير الكاملة إلى شكلها الصحيح منطقياً واحدة من النظريات المسيطرة على التحليل الفلسفي فترة الثلاثينات؛ أضف إلى ذلك انهماك عدد من فلاسفة التحليل قد بدأ ينحو نحو تحليل التحليل.

يميز جون ويزدم في مقالة له بعنوان «هل التحليل منهج مفيد في الفلسفة؟ ١٩٣٤» «بين ثلاثة أنواع من التحليل؛ مادي، صوري، وفلسفي؛ ففي حين تمثل التعاريف العادية في العلوم الطبيعية أمثلة للنوع المادي من التحليل؛ في حين تمثل نظرية راسل في الأوصاف مثالاً على التحليل الصوري؛ وكلاهما تحليل من «نفس المستوى». أما التحليل الفلسفي فهو «مستوى جديد» ويمتاز بواقعة أن حدوداً أكثر أولية ultimate تحل محل حدود أقل أولية. فعلى سبيل المثال: الأفراد أكثر أولية من الأفكار، ومعطيات الحس والحالات العقلية أكثر أولية من الأفراد؛ يتألف التحليل إذاً من اختزال أقوال حول العقول، إلى تعابير حول الحالات العقلية، والتعابير حول الموضوعات المادية إلى تعابير حول معطيات الحس.

ريل Gillbert Ryle :

يرى ريل في مقالته بعنوان «التعابير المضللة تصنيفياً Systematically Misleading Expressions, 1931-1932»، أن العمل الأساسي (وربما كل عمل الفلسفة هو تحليل تعابير محددة تقوم عادة بتضليل نوعاً آخر من الوقائع. ويمكن أن يظهر الشكل المنطقي لهذه التعابير كمقابل لشكله

النحوي، فقط، بإعادة صياغة منطقية صحيحة للتعابير الأصلية، وتتمثل النتيجة الرئيسية لهكذا تحليل في الكشف عن الخلط المستمر بين الشكل النحوي والشكل المنطقي، هذا الخلط الذي يشكل مصدر النظريات والمناقشات في الفلسفة التقليدية. يصنف ريل ويحلل عدداً من التعابير المضللة مستنداً في ذلك، إلى نظرية راسل في الأوصاف كنموذج لإعادة صياغة منطقية لتعابير محددة؛ ومن بين التعابير المضللة تصنيفاً ما يلي :

(١) العبارات الوجودية - ظاهرياً، من مثل، «الله موجود»، «السيد بيكويل قصة»، «لا توجد أبقار لاحمة».

(٢) التعابير شبه - الأفلاطونية، من مثل «الفضيلة هي جائزة نفسها»، «عدم مراعاة الشكليات مستحق للتوبيخ».

(٣) عبارات وصفية معينة، من مثل، «على أي حال من المجهد أن تكون نائب رئيس جامعة اكسفورد، [لا يوجد منصب كهذا على ما يبدو]»، و«الملك الحالي لفرنسا حكيم».

(٤) العبارات شبه - الوصفية، من مثل، «لقد رأيت قمة الشجرة».

فكل واحدة من هذه العبارات مضللة، ذلك لأن شكلها النحوي غير مناسب للواقعة التي تسجلها؛ لذا يجب إعادة صياغتها، وبذلك يظهر الشكل المنطقي للواقعة المسجلة. وهكذا فإن العبارة «لا توجد أبقار لاحمة» هي عبارة صادقة وذات معنى وتبدو من الناحية النحوية مثل عبارة (موضوع - محمول) عادية؛ ولكن وبالمقارنة مع الواقعة التي تسجلها «الأبقار اللاحمة» لا تشير إلى موضوع، و«لا توجد» لا تمثل محمولاً. لذا وجب أن يرفض المفتاح Clue النحوي لعبارة موضوع - محمول؛ كما وجب أن يكمل الشكل المنطقي للواقعة إعادة صياغة التعبير. فالأفضل تعبيراً القول «لا شيء هو بقرة ولاحم في آن»، بدلاً من العبارة الأصلية التي تسجل الواقعة، من حيث إن هذه العبارة «لا شيء هو بقرة ولاحم في آن» «لا

تتضمن أن أي تعبير آخر، وأن هذا الأخير هو تعبير أفضل من التعبير الأصلي لأنه يظهر بشكل أفضل الشكل المنطقي للواقعة التي يسجلها.

الوضعية المنطقية Logical Positivism :

دامت الوضعية المنطقية من بدايات حلقة فيينا 1922 Vienna Circle وحتى نشر هيمبل C. G. Hempele مقاله «المشاكل والتغيرات في المعيار التجريبي للمعنى Problems and Changes in the Empirical Criterion of Meaning»؛ في «المجلة الدولية للفلسفة، ١٩٥٠» وأعيدت طباعته في كتاب «الوضعية المنطقية» الذي أشرف على تحريره أير J. A. Ayer.

لقد تميزت الوضعية المنطقية بتقديم عدد من النظريات المتطرفة radical والمتعالقة؛ ومن بين هذه النظريات، نظرية قابلية التحقق للمعنى ونظرية الرفض لكل ميتافيزيقا، وتلك المتعلقة بوحدة العلم، وتصور اللغة كنوع من الحساب، والتفسير الاصطلاحي للمنطق والرياضيات، والنظرة القائلة بأن الفلسفة الصحيحة تتطابق مع تحليل منطقي من نوع خاص؛ وأغلب هذه النظريات قد وافقت (بشكل عام) ونشأت أو نسبت ظلماً إلى بحث فيتغنشتاين (الرسالة Tractatus).

والنظرية الأساسية في الوضعية المنطقية هي نظرية المعنى؛ التي تبعاً لها يكون المعنى المعرفي لجملة ما هو طريقتها في التحقق its method of verification؛ فإذا كانت جملة ما (غير قابلة للتحقق) وليست تحصيلاً حاصلاً، فهي جملة خالية من المعنى المعرفي؛ وعلى أساس هذا المعيار الذي (يأثم) ضد نفسه وبالتالي يبطل الوضعية المنطقية من نقطة انطلاقها؛ حيث تعلن أن لا مجال للبحث في الفلسفة التقليدية لأنها كفلسفة خلو من المعنى ولأنها لا تقبل التحقق. أما ما بقي محترماً في الميدان المعرفي فهو المنطق والرياضيات كتحصيلات حاصل، والعلم، لأن قضاياه تقبل التحقق.

على أي حال، فإن المنطق والرياضيات والعلم هي حسابات، تتألف من متحولات وثوابت ومن صيغ محددة، ثم من قواعد تحويل، من خلالها

يمكن بناء أو اشتقاق جمل محددة. وهنا يطرح التساؤل التالي نفسه وهو تساؤل غير خال من المعنى ولا هو علمي بالمعنى القوي: ما هو تركيب Syntax هذه الحسابات؟

تصبغ محاولة الإجابة على هذا السؤال نفسها كتحليل فلسفي؛ وهكذا أعيد فهم الفلسفة على إنها عرض تصنيفي للتركيب المنطقي للغة العلم. ولهذا التصور عن الفلسفة كتحليل منطقي للغة العلم صيغتين مهمتين هما:

أ- كارناب Carnap: في «التركيب المنطقي للغة The Logical Syntax of Language 1934» و«الفلسفة والتركيب المنطقي Philosophy and Logical Syntax 1935».

ب- آير Ayer، في كتابه «اللغة، الصدق والمنطق Language, Truth and Logic, 1939».

كارناب Carnap:

تصبح الفلسفة عند كارناب منطق العلم = التحليل المنطقي «لجمله، وحدوده، لمفاهيمه، ونظرياته... الخ». يبني هذا التحليل التركيب المنطقي للعلم.

يصف كارناب - معمماً بذلك من رياضيات هيلبرت - التركيب المنطقي للغة كنظرية صورية محض للغة؛ وهكذا لا يكون للفلسفة أو للتحليل أي اهتمام خاص بمعاني كلمات وجمل اللغة، أي، بالعلاقات السيمانطيقية Semantical بين اللغة والعلم.

يستبيع التحليل، على أي حال، أن يفعل أكثر من مجرد تقرير قواعد لغة العلم؛ إذ يستطيع كشف الطبيعة التركيبية - ظاهرياً والمضللة لعدد من الجمل والمناقشات الفلسفية التقليدية. لنفرض على سبيل المثال هذه الجمل الثلاثة:

(١) «الوردة حمراء».

(٢) «الوردة هي شيء».

(٣) «كلمة وردة هي كلمة - شيئية».

يبدو جلياً أن الجملة (١) هي جملة اختبارية empirical sentence عن موضوع غير لغوي extralinguistic، إنها «جملة - موضوع واقعي»؛ أما الجملة (٣) فهي بشكل جلي جملة حول كلمة، إنها «جملة تركيبية Syntacti-cal»؛ أما الجملة (٢) فهي على أي حال، جملة غامضة، من حيث أنها تشبه الجملة (١) في شكلها وتشبه الجملة (٣) في مضمونها؛ فهي إذاً «جملة - موضوع زائف»؛ ولأنها جملة تركيبية واقعاً، وجب أن تترجم إلى الجملة (٣).

يقول كارناب: أن الجمل التركيبية تكون في الأسلوب الصوري من الكلام، جمل موضوع - زائف في الأسلوب المادي منه، وإذ تتولد العديد من المشكلات والمناقشات الفلسفية الزائفة باستخدام الأسلوب المادي في الكلام؛ فإن جميع هذه المشكلات والمناقشات يمكن أن تحل وأن تتجنب عن طريق «ترجمة» الجمل ذات الصلة بالموضوع إلى أسلوب صوري؛ فعلى سبيل المثال يمكن جلاء وحل النزاع بين الظواهرية Phenomenolism والواقعية realism عن طريق ترجمة من هذا النوع؛ فكل جملة ذات معنى كامل، هي إما جملة - موضوع واقعي، وهي بهذا الاعتبار تنتمي إلى واحد من العلوم الطبيعية؛ أو جملة تركيبية في المنطق أو في الرياضيات؛ وتكون الفلسفة كتحليل منطقي، متطابقة مع الكم الإجمالي من الجمل التركيبية الصادقة متضمنة لغة العلوم.

آيـر Ayer:

كان لكتاب آير «اللغة، الصدق والمنطق» أهمية تاريخية أكبر بسبب تأثيره المباشر على الفلاسفة الانكليز واستمرار هذا التأثير، علاوة على الجدة الحقيقية لنظرياته وأيضاً بسبب نظرة آير غير المقبولة إلى التحليل.

يشتق آير أغلب نظرياته من أعضاء حلقة فيينا بشكل مباشر، وبخاصة من كارناب؛ فيطابق آير في كتابه هذا بين الفلسفة والتحليل وبين التحليل والتعريف القريني من ذلك النوع الذي قدمه راسل في نظريته للأوصاف، والتي يعتبرها آير «براديما للفلسفة». يرى آير أن الفلسفة نشاط لا يقدم أي ادعاء واقعي ينافس ما يقدمه العلم؛ فللفلسفة أن تجهد نفسها في صياغة تعريفات محددة للرمز في الاستخدام «وذلك بإظهار كيف يمكن أن تترجم الجمل التي يظهر فيها (الرمز في الاستخدام asymbolinuse») بشكل ذو معنى إلى جمل مكافئة؛ لا تتضمن، لا المعرف نفسه definiendum، ولا أي من مرادفاته Synonyms». والهدف الكلي لهذه التعاريف القرينية هو تزويدنا بفهم للبنية المنطقية لجمل محدودة، وبالتالي للغة؛ وعبر هذا الفهم نكتسب تبصراً بمصادر الأخطاء المنطقية لكثير من الفلسفات التقليدية؛ إن «توضيح فلسفي كامل لأي لغة»، هكذا يخلص آير، «سيتألف أولاً من إحصاء أنماط الجمل ذات المعنى في تلك اللغة، ثم من عرض لعلاقات التكافؤ التي تنعقد بين جمل من أنماط متنوعة».

إلا أن كل من كارناب وآير قد تبرأ في أعماله الأخيرة من نظرته إلى التحليل؛ فابتداءاً من عام ١٩٣٥ وفي بحث بعنوان «الصدق والإثبات Truth and Confirmation» يجيز كارناب أو يشمل التحليل مسائل سيمانطيقية Semantical إلى جانب المسائل التركيبية Syntactical؛ كما يعترف آير في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «اللغة، الصدق والمنطق» بأن التحليل، وخصوصاً بعض تحليلات مور - هي أكثر - وفي حالات دونت غيرها - من تعريف قريني. ومع ذلك يطابق كل من كارناب وآير بين الفلسفة والتحليل وبين التحليل والأبحاث اللغوية، كما يفعل الوضعيون المنطقيون عموماً، إلا أن التحليل يبقى عند كليهما لغوياً محضاً، وليس له تعامل صحيح مع التعاريف المفاهيمية أو الانطولوجية.

الرد على التحليل The Rejection of Analysis :

لقد بدأ التحليل النفسي المعاصر مع راسل وانتهى مع الوضعية المنطقية؛ وبالرغم من أن التحليل المعاصر بمختلف أشكاله - سواء أكان من نوع التعريف الواقعي، المفاهيمي أو القريني، أم كان رداً أو ترجمة للمركبات اللغوية إلى وحدات أكثر بساطة أو وحدات نهائية ultimate من عالم المقال discourse، أو كتركيب Syntax منطقي - فإنه ما برح مستمراً عند الفلاسفة المعاصرين حتى اليوم، إلا أنه يبدو وقد فقد تقدمه المتواصل كفلسفة جدية معاصرة؛ ذلك إن ثلاثة من التحليليين الكبار «ويزدم، ريل، وخصوصاً فيتغنشتاين» قد أحلو مكان التحليل ما سواه، أو أنهم جحدوا التحليل كمنهج خاص بالفلسفة. وإذ تحمس بعض الكتاب للمحافظة على مصطلح «تحليل» - ربما بسبب ارتباطاته التمجيدية بالتوضيح - فقد وسم الأعمال المتأخرة لهؤلاء الفلاسفة الثلاثة بميسمه. إلى جانب أعمال آخرين من أمثال، جون اوستن John Austin وستراوسن P.F. Strawson- «كتحليل لغوي» أو «كتحليل للغة العادية»؛ إلى أن هذا التوسيع لمصطلح التحليل مضلل، ذلك أن الجزء الجوهري من الأعمال الحالية لهؤلاء الفلاسفة، يتضمن ارتداداً واضحاً عن التحليل كجزء أساسي من العمل في الفلسفة ومن أي أنماط التحليل المعاصرة. لقد تحول اهتمام هؤلاء عن التعريف والرد أو الترجمة إلى الوصف، ومن التحليل إلى التوضيح. من هنا نستطيع الآن الإجابة على التساؤل الذي طرحناه كنقطة انطلاق لنا: مع ماذا يتقابل التحليل الفلسفي المعاصر؟

لقد ابتدأ بالمواجهة مع المذهب الحدسي Intuationism عند برادلي (وعند برغسون فيما بعد)؛ وانتهى بأن يعارض تصور الفلسفة على أنها شرح للمفاهيم الصعبة والأساسية؛ إذ باكراً ومنذ الثلاثينات، نصح فيتغنشتاين محذراً «لا تسأل عن المعنى، واسأل عن الاستعمال» فقد أشار إلى انحدار التحليل (الذي هو، بعد كل شيء، وبشكل أساسي بحث عن المعنى) لقد كانت لحظة حاسمة في تاريخ الفلسفة المعاصرة.

وكان فيتنغشتاين قد شكك لأول مرة في (الرسالة Tractatus) بقيمة التحليل كتعريف واقعي - أي ككشف عن المكونات النهائية للمركبات غير اللغوية -؛ إذ أن ادعاءه أن الفلسفة نشاط، وليست نظرية للقضايا (المنطقية) حول العالم، يتضمن ارتداداً عن الكشف الانطولوجي ontoligical كعمل شرعي للفلسفة؛ وتبعاً لفتنغشتاين في «بحوث فلسفية Philosophical Investi-gations, 1953» فإن كل من راسل، مور، وحتى «كاتب الرسالة Tractatus»، إن ما قاموا به فعلياً عندما انشغلوا بالتحليل الانطولوجي، هو وصف استخدام مفاهيم أساسية بعينها، ولكن وبسبب من تصورات زائفة محددة ومكونة مسبقاً عن هذه المفاهيم، فإنها في الواقع تسيء وصف استخدامات هذه المفاهيم. ففي «بحوث فلسفية» يفسر كل الخطاب الانطولوجي على أنه توضيح غير ملائم للقاعدة المنطقية لمفاهيم أساسية محددة.

أما وجهة النظر التي ترى في التحليل تعريفاً قرينياً أو تحليلاً لرموز غير كاملة فقد نبذت، شأنها في ذلك نظرية راسل في الأوصاف «كبارادايم للفلسفة»؛ وما يشكل القاعدة في نظرية راسل هو مفهوم اسم العلم والنظرية الدلالية في المعنى منظوراً إليهما من زاوية المنطق؛ فراسل يدعي على سبيل المثال أن «الملك الحالي لفرنسا» رمز ناقص لأنه لا يسمي شيئاً، وبالتالي فإنه ليس له معنى بنفسه فقد نبذ مبدئياً على أرضية أن ذلك الادعاء يخلط بين المعنى أو التحليل والاستخدام لتعبير وصفي.

من جهته يبدي ستراوسن Strawson نفوراً يبرزه تجاه نظرية راسل في الأوصاف من خلال بحثه «في الاسناد On Referring 1950»، وذات النفور له حضور في أعمال ويزدم Wisdom المبكرة، مقدماً وجهة نظر مضادة في الأوصاف والتعابير الإسنادية referring expressions الأخرى؛ ناهيك عن عدم وجود بحث آخر يمثل ما يمثله بحث ستراوسن في الاختلافات الأساسية والمتضاربة بين التحليل الفلسفي والتوضيح الفلسفي للتعابير أو للمفاهيم.

كذلك تدور الشكوك حول التحليل كرد أو كترجمة ذات أشكال متعددة؛ وتستند هذه الشكوك حول قيمة التحليل كرد reduction على أساس قدرة التحليلات الردية الناجحة. وحول التحليل كرد فإن كل من ويزدم وسوزان ستيبنغ Stbbing لاحقاً في «تأثير مور Moore's Influnce 1942» يثيران عدد من القضايا الجدية حول ملائمية الرد، فعلى سبيل المثال، العبارات التي تدور حول الموضوعات الفيزيائية إلى عبارات تدور حول معطيات الحس.

وبالإضافة إلى الطعون التي تتجه إلى التحليل كتحويل والمرتكزة على مسألة ما إذا كان هنالك أشكال حقيقية للوقائع تستطيع أن تقوم مقام النماذج المقابلة في الواقع وكمقابل للأشكال النحوية للقضايا؛ وكان فيتنغشتاين هو من وضع الشكوك في مركز الصدارة عندما أشار في «بحوث فلسفية» إلى أن فكرة الأشكال الحقيقية للواقعة واللغة ككل ما هي إلا وهم يفرض على اللغة والتفكير من خلال تصورات أساسية خاطئة في اللغة ذاتها.

وأخيراً فإن الشكوك الدائرة حول التحليل كتركيب منطقي للغة العلم تأخذ بشكل رئيسي الشكل المنبثق من النظر إلى اللغة كنوع من الحساب الصارم مع نظريتها الدلالية الضمنية في المعنى ونظريتها الصريحة القائلة بأن الاستخدام الصحيح والوحيد للغة هو في تقرير الوقائع والتكافؤات المنطقية.

إلا أن الرفض الأساسي للتحليل، من الناحية التاريخية على الأقل، يتمثل في الدحض لكامل النظرية في اللغة، هذه النظرية المتضمنة في التحليل أو قل المنسوبة إلى التحليل. فقد بدأ فيتنغشتاين في [الرسالة] وآخرون أيضاً، يناقشون بجدية كل التعليمات الأساسية في هذه النظرية؛ وما أنكر منها هو النظرة التي ترى في اللغة صورة أو بنية مشاكله للعالم، حيث معانيها هي الموضوعات التي تسميها الوحدات الأساسية في اللغة وحيث الاستخدام الوحيد لها هو تقرير الوقائع. ويبدو هذا الرفض كلياً وتاماً في (بحوث فلسفية)؛ من هنا وعلاوة على النظر إلى هذه النظرية

برمتها كوهم مفروض على اللغة بسبب الافتتان باللغة ذاتها؛ فإذا ما تفحصنا كل ما حولنا (رأينا وتبصرنا look and see) كيف تؤدي اللغة وظيفتها فعلاً، وإذا ما ذكرنا أنفسنا بكل الأشياء المتنوعة التي تقوم بها اللغة وكيف تقوم بها، فإننا واجدون أن اللغة لا تؤدي تحديداً دور الصورة أو المرآة أو البنية المشاكلة المقابلة، بل تقوم بوظيفة صندوق أدوات (tool box) ضخم ومتخم بأكثر أصناف الأدوات تنوعاً، وعملياً لا تشبه ولا واحدة من هذه الأدوات تماماً هذه الأشياء الموجودة في العالم، والتي يمكن أن تنطبق عليه؛ كما نكتشف أن تلك الكلمات وتلك الجمل بحد ذواتها، أي، بمعزل عن استعمالاتها، لا تشير ولا تسمي أي شيء؛ إضافة إلى أنه في سياق استخدامها فإن بعض الكلمات تستخدم لتسمي شيئاً ما، وكلمات أخرى تصنف أشياء ما بينما ثالثة تأمر؛ وأن الجمل تستخدم بتنوع لتشير، أو لتصنف، أو لتحرك الانفعالات. . . الخ. وندرك كذلك أن المعنى، أيضاً، يجب أن يفسر، إذ لم يعد يفهم كعلاقة بين الكلمات والموضوعات، بل يفسر كقواعد، انتظامات، اصطلاحات، وعادات تتحكم بالاستخدامات الفعلية للتعابير.

إنه بدون فكرة لغة مثالية تختفي الحاجة إلى التحليل؛ فتصبح مهمة الفيلسوف إلى جانب مهمات أخرى - بدلاً من تدبيج رسائل تذكيرية بأدوار تعابير بعينها - أن يصف جميع الأعمال المتنوعة التي تتم الإشارة إليها بوساطة هذه التعابير، والشروط التي تؤدي وفقاً لها دورها؛ ويصبح الهدف من الفلسفة هو توضيح القاعدة المنطقية لتعابير محددة. وبالرغم من اختلاف عدد من الفلاسفة المعاصرين أمثال ريل، اوستن، وستراوسن، مع فيتغنشتاين - في أن هذه الرسائل التذكيرية reminders - يجب أن تحشد في سبيل الهدف الوحيد المتمثل في التخلص من الألغاز أو من القيود العقلية، إلا أنهم يتفقون مع كل من فيتغنشتاين وويزدم في أن المؤشر الجوهري للنشاط الفلسفي الخاص هو تقديم وصف كامل للأعمال الفعلية للغة، مفضلاً على تحليل هذه الأعمال إلى نوع من تخطيطه schem غير فاعلة unworkable للغة مثالية. لقد اختفت الحاجة إلى التحليل باختفاء الوهم الذي أنتجها.

أفرقة الديموقراطية

محمد مختار أبو بكر*

مقدمة:

تتناول هذه الورقة بإسهاب قضية تطبيق الديموقراطية في أفريقيا من خلال دراسة العديد من الدعوات التي نادي بها بعض الكتاب والمؤلفين الأفارقة حول مفهوم (أفرقة الديموقراطية)

* محمد مختار أبو بكر: باحث من القطر السوداني الشقيق.

بدءاً نجد أنه من خلال تداعيات النظام العالمي الجديد برزت إلى السطح مرتكزات وثوابت يقوم عليها هذا النظام متمثلة في الآتي : -

-تطبيق الديموقراطية، وحماية حقوق الإنسان والدعوة إلى حرية الأسواق وانتقال رؤوس الأموال. وعليه فإننا نجد أن هناك محاولات لتسويق تلك المفاهيم.

إلا أن عملية تسويق الديموقراطية تصطدم بثلاث عقبات وهي : -

أولاً إن مشروطية الديموقراطية تعتبر موضوعاً خلافياً من شأنه أن يكون ذا أثر كبير على الدول الصغيرة والضعيفة أكثر من الدول الكبيرة ذات البنيات التحتية القوية.

مثلاً : كما نجد أنه وعلى المستوى الاقتصادي من الصعب أن يفرض على دولة قوية (كالصين) خيار التخلي عن سياسة الحماية. فإنه من الصعوبةبمكان فرض شروط سياسية عليها وإجبارها على قبول تلك الشروط، بيد أننا نجد أن إجراء مثل هذا يمكن تطبيقه في دول مثل كينيا، وزامبيا، ملاوي وتنزانيا وغامبيا وأن فرض عليها هذا الخيار مؤخراً.

ثانياً : أنه ما يجب التأكيد عليه، أنه ومن أجل التوافق مع الوضع الديمقراطي، فإن خطوات معينة تظل أمراً لا مفر منه، إذ أنه من المستحيل إنجاز التنمية الديموقراطية دون اتخاذ مسار تدريجي يفضي إليها تلقائياً، وإلا فإن الأمور ستفضي إلى وضع يكون فيه التوجه نحو نظام التعددية الحزبية واحداً من أهم الطرق للحفاظ على وجود نخب مشوهة في حركة الحكم، وهو أمر تشير إليه نماذج عديدة في أفريقيا وأمريكا اللاتينية كاشفة عن أن التطبيق العملي أكثر أهمية من مجرد الإعلان عن النوايا.

ثالثاً : -

ثمة بون شاسع وهوة عميقة بين التطور الديمقراطي الرسمي والمشاركة الاجتماعية. فالمفهوم السائد حول العلاقةبين الديمقراطية والمشاركة

الاجتماعية هو أن كلاً منهما ينتج الآخر، غير أن نموذج جنوب شرق اسيا يوضح أن التقدم الاقتصادي لا يأتي بالضرورة عبر الأنظمة ذات الديمقراطية النموذجية، كما أنه يوضح أن استعادة العافية الاقتصادية كانت تحدث أحياناً على الأقل في الماضي عبر القمع الاجتماعي والسياسي، ومن الناحية الأخرى فعلى الرغم من هذا الوضع السياسي القمعي فإن توزيع الدخل فيما يعرف بـ (التنانين الآسيوية) يعتبر أكثر عدالة منه في نماذج التطور السريع الأخرى على مدى التاريخ.

وفوق كل هذا فإن العلاقة بين الديمقراطية والسوق لا تقوم على مجرد الصدفة، فالعقبات التي تعترض الديمقراطية بوصفها (أداة نظام مفضلة) لا يجب أن تقود إلى حالة من البلبلة فكفكرة أفريقيا غير مؤهلة أوجاهزة لتلقي الديمقراطية، تعتبر فكرة غير مقبولة، فكل الأقطار والمجتمعات والأفراد جاهزون دوماً لتلقي الديمقراطية، بيد أن الديمقراطية تعتبر أمراً فوق الحرية السياسية وحرية الأفراد، والمجتمع الأفريقي سيكون عليه - بالتأكيد - إيجاد جذوره في تراث مجتمع شمول يتوفر فيه عدد من أشكال المساواة.

يعتقد (جان جاك روسو) (Rousseu) أن الناس يمكن إجبارهم على نيل حريتهم، لقد كانت نواياه قاسية لكنها مخلصة.

أما (MOntesquieu) فقد أوضح بالإقناع أن الحرية تنمو خطوة فخطوة في تاريخ المجتمعات، وأنها لا يمكن أن تفرض فرضاً أو قسراً، وهو الشيء نفسه الذي ينطبق على الديمقراطية بنماذجها المختلفة منذ أن حكم على (سقراط) بالإعدام. وعلى الرغم من إدراكنا أن التطبيق الديمقراطي يفترض أن يقود إلى التحرر السياسي، فإن اتاحة الفرصة لقدر أكبر من شفافية المشاركة الديمقراطية لا يمكن النزول بها إلى مجرد ديمقراطية تعددية أو إلى مجرد عقد انتخابات برلمانية، والمشاركة الفوقية الصورية قد تتمخض فقط عن تجديد هش للديمقراطية في أفريقيا - (NZongola -Nataja (1995فثلاثون عاماً من الأنظمة المركزية لا يمكن إلغاؤها ببساطة بمجرد

إضفاء الشرعية على أحزاب المعارضة، كما إن الاقتصاد والقيم الثقافية والسياسية الأفريقية ذات عمر أطول حتى من تلك الثلاثين عاماً.

وعليه فإن هذه الورقة تهدف إلى عرض وجهة نظر مفادها أن التحول الديمقراطي في أفريقيا يمكن النظر إليه على ضوء الاهتمامات التي تم تحديدها في مقدمة هذه الورقة.

مصطلح (أفرقه) تم استخدامها في هذه الورقة من خلال معنى:

(إعادة مواءمة الحوار حول الديمقراطية بواسطة الأفريقيين)

ونظراً لأن مصطلح (africanisation of Democracy) قد يكون مشوشاً أو مثار خلاف، وعليه فثمة حاجة لتوضيح عن ما الذي يعنيه أولئك الداعين لهذا المفهوم!!

- على الصعيد السياسي، قادت فكرة الوطنية إلى أفريقية الإدارة (وهو مصطلح تم استخدامه في المستعمرات البريطانية السابقة وفي دول مثل ساحل العاج).

- وعلى الصعيد الاقتصادي ثمة حديث اثير مؤخراً حول الوطنية الاقتصادية الداعي إلى خلق وتدعيم قطاع اقتصادي وطني (وهي فكرة تدور الآن في اجندة دول مثل كينيا وزيمبابوي وناميبيا وجنوب أفريقيا).

- على الصعيد الثقافي كان الوطنيون الاوائل يتحدثون سلفاً عن (أفرقة العقول) أو حركة تأكيد تؤثر على العلماء الأفارقة وتعمل كقاعدة (مدرسة الهرم المقلوب) مثل الزنوجة والشخصية الأفريقية وغيرها.

- على الصعيد الديني تمت عملية توفيق لكل من العقيدتين المسيحية والإسلامية مع الواقع المحلي الإفريقي، ويمكن التدليل على ذلك بالعديد من الشواهد المتمثلة في تأسيس الكنائس، أو في عدد من التطبيقات المحددة لدين (الكنيسة الارثوذكسية في أثيوبيا مثلاً مسيحياً لهذا، والاخوانية المريدية في السنغال تصلح أيضاً كنموذج اسلامي لهذا. (LObis 96).

- على الصعيد الاجتماعي - ثمة توجه نحو التقاليد بوصفها وسيلة دفاع ضد أكثر مظاهر اعتداء النماذج المستوردة في مواقع تبدو في تعددية أشكال السلوك الاقتصادي في المؤسسة الاجتماعية أو سلوك المؤسسات نجد أن (Pat-rick Chabel) يتناول ظاهرة إعادة المواءمة في مواقع أكثر غوراً وبعداً في التاريخ، وعليه فهو يرى أن مملكة (الكونغو) ونظام الـ (PraZeiro) في الملك في موزمبيق مع بداية التدخلات الأوروبية، أو البرتغالية بصورة أكثر تحديداً، في افريقيا، ربما يكشف لنا عن نماذج لموائمة الأنظمة المستوردة فيما عرف (بالأفرقة السياسية. (Political africanisation (Chabl 1994)).

ولتوضيح صحته أكثر، يرجع إلى النموذج الياباني قائلاً (في حالة اليابان فيدو من المقبول عالمياً أن العملية التي استوعب بها المجتمع الياباني التجربة الغربية ومواءمتها وأعاد تعريفها وتكيف على استخدامها، كانت في جوهرها ذات صلة واضحة بهويته الثقافية والاجتماعية والسياسية.

وعليه يبدو أن استخدام نفس المنطق في التحليل المحتمل الممكن بالنسبة للديمقراطية في جنوب الصحراء من أفريقيا، ستوفر مدخلاً جديداً يمكن بالقياس السياسي ربطه بالعمل الأيديولوجي الإيجابي والذي يرتبط بحركات الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان الهدف ولا يزال هو خلق إمكانية توزيع أكثر عدالة من خلال معايير قانونية وعبر ما يعرف بـ (التفرقة الإيجابية).

ويشار إلى أن هذا المصطلح (Positive discriminations) يعتبر الآن موضع خلاف كبير، لكنه لا يزال يشكل مرجعية للأقليات المقاومة (الأفارقة الأمريكيون، الهاسبنيك، الهنود الحمر، في الولايات المتحدة). ويتطرق (P.Chabal) إلى:

أن صورة العدالة المقرونة بالعمل الإيجابي، تجعلني اعتقد أن الدول الأكثر قوة بحاجة إلى الاعتراف بأهمية التفرقة الإيجابية تجاه دول أفريقيا جنوب الصحراء أيضاً، وأن انسب صيغة يمكن أخذها لهذا، يمكن أن تكون ببساطة هي الاعتراف بأهمية التفرقة الإيجابية تجاه دول أفريقيا جنوب الصحراء أيضاً، وأن انسب صيغة يمكن أخذها لهذا، يمكن أن تكون ببساطة هي الاعتراف بقدرة افريقيا على التقرير في مصيرها بنفسها وبما يخالف تلك النماذج المستوردة، فالصورة تبدو أكثر قوة في هذا الإطار على وجه الخصوص، فكما رأينا من قبل أن الولايات المتحدة ومنذ إصدار الرئيس ترومان للمبدأ الذي عرف باسمه والذي يحوي على خمس نقاط، كانت على الدوام الدولة الأكثر شغفاً بالمشروطية السياسية(Political conditionality).

أما بالنسبة للجانب الإيديولوجي فيتمثل هذا في الخيار السريع الذي يجب أن يجد السياسيون والمفكرون أنفسهم مجبرين على أخذه بين الحديث والتقليدي.

يستلهم الحداثيون طموحهم من مفاهيم الديمقراطية الليبرالية ويحللون الواقع الاجتماعي وفقاً للصيغ الحديثة لمؤسسات القوى السياسية التي تستتبع دولة ذات وجود أصغر، في مجتمع مدني أكبر، بيد أن الجينية غير الناضجة والهامشية أحياناً للمجتمع المدني تعتبر معوقاً لا يشكل أي شكل من التشويش على تصور هذه الأيديولوجيا.

أما التقليديون الذين يسيطرون على المسرح السياسي الأفريقي فيحد دون (الافريقانيه) بأنه الخطاب الذي يحدد دوافعه الخاصة ويروج الصراعات التي تحدد مفهوم الآخر وتضفي جلالاً وكرامة عليها.

يتميز هذان المفهومان (الحداثة والتقليدية) بالتثاقفي في إطار القديم أو

بفقدان النظرة الديناميكية في إطار الخطاب، وقد مزجت الأنظمة السياسية الأفريقية، بما فيها تلك الناتجة عن عمليات ديمقراطية حديثة مزجت في العديد من المرات بين هاتين الأيديولوجيتين، مترددة في الاختيار بينهما وواجدة نفسها في موقف القبول والرفض لها في آن واحد، وهو موقف يعد ذا دور أكبر ومؤثر في احداث هزة أو تحريك لحالة الثبات، وعند تحليل الواقع السياسي الأفريقي لا يجدر بنا أن نقع في خطأ الاعتقاد بأن إفريقيا تعتبر نسيج لوحدها في حركتها السياسية، ذلك لأن فصلها عن البيئة المحيطة والمعرفة المتحصلة نتيجة للسياسات المقارنة سيكون أمراً مأساوياً.

فكما قال (Chabal 94) (ليس ثمة شيء محض إفريقي فيما يخص السياسات الأفريقية، كما أنه ليس ثمة شيء محض أوروبي فيما يخص السياسات في أوربا.

There is nothing specifically African about politics in Africa, or rather there is nothing which more specifically European .is the politics of Europe

وعليه نجد أن ما تتضمنه كلا السياستين هو عملية إعادة مواءمة يجب السعي إليها من خلال أربع زوايا رئيسة تبنى على النحو التالي:

- تزامن الفراغ التاريخي، نظم السلطة الرسمية، إعلام السياسات وعالمية النموذج الديمقراطي.

أولاً تزامن الفراغ التاريخي The syndrome of the historical vacum

يعتبر الفشل في الاعتراف بالأبعاد التاريخية واحداً من المشكلات الرئيسية في عملية بناء الديمقراطية في افريقيا، وهو أمر لفت الانتباه إليه عدد من المؤلفين منهم (Mkandawire 1995) والفريق الذي كونه مجلس الاقتصاد والأبحاث الأفريقي (Codesria) وهما المثالان الأكثر وضوحاً في هذا المجال بالإضافة إلى العديد من الكتاب.

لقد لفت هؤلاء المؤلفين إلى الطريقة الاصطناعية التي تتم وفقها صناعة التغيرات في الأنظمة السياسية، هذا بالإضافة إلى مظهر آخر هو النظرة التبسيطية لتعقيدات ومشاكل أفريقيا، وبالتالي تلك مفارقة تجد جذورها في مواضيع الدونية الأفريقية.

ولقد قاد هذا المنظور التاريخي الذي استشهدنا به لمواجهة فكرة أن الديمقراطية بنيت على فراغ، قاد بعض المؤلفين لالقاء نظرة أخرى للأهمية القصوى التي أودت للدولة خلال العقود الأولى لفترة الاستقلال وبناء على وجهة النظر هذه فان هناك مرحلتين لتمتين بنية الدولة في أفريقيا يمكن تميزها وهما:

أ/ المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي تميزت بالتحول التاريخي من استقلالية حركات التحرر حيث تمت محاولة تنفيذ إصلاحات معتدلة على الأنظمة الاستعمارية والإصرار على نظام الحزب الواحد وتأميم الاقتصاد وبناء سياسة عسكرية وطنية.

ب/المرحلة الثانية:

وتلك تميزت بعمليات التحول الديمقراطي الحديثة وقد صاحبتها عمليات تطبيق الشروط الخارجية والتي كانت أكثر رهقاً مثل التوقعات الهيكلية، فانشأ تبعاً لذلك أنظمة التعددية الحزبية بالثقل السياسي في مراكز ريفية إلى مراكز أكثر مدنية، كما أنها قبلت عمليات تحجيم النظم وتخفيض المجال الهيكلي للدولة، من ناحية أخرى فان كل من النموذجين لديهما أشياء مشتركة توضح في الآتي:-

تقليد النماذج والطبيعة القسرية للعلاقات الاجتماعية والتلاعب على القاعدة الاثنية، والالتزام بالتبريرات الأيديولوجية التي تمازج في وقت واحد بين النظرتين - (الحداثوية) والتقليدية، وبناءاً عليه تظل تحديات التمثيل والشرعية التحديات الأكثر أهمية.

تلك التحديات تمثل تحديات بسيطة نسبياً أثناء فترة التحرر الوطني، إذ أنه كان يجب على الوطنيين أن يضفوا الشرعية على أنفسهم بوصفهم ممثلين لتابعي الاستعمار (Chabl 1994) .

وقد كانت الانتخابات نادرا ما تكون واحدة من وسائل إضفاء الشرعية هذه، كما أن اعتراف الدولة الاستعمارية بواحدة من الحركات باعتبارها من محاورها الرسمية، كان ذلك دليل النجاح النهائي وأقصى طموحاتهم وقد اضطلعت منظمة الوحدة الأفريقية وهي الأكثر قدرة على استيعاب مثل هذه الفلسفة بدور القاضي للتمثيل، ولم تؤمن أو توفر هذه الخاصية بكلا المهمتين الشرعية والتمثيلية، لم توفر أي أسس مؤمنة للنظام السياسي لفترة ما بعد الاستعمار، فقد تم تحديد شرعية السلطة وطبيعة التمثيل في (الدولة الأمة) وهي حديثة التكوين من خلال بناء جنسيتها وضمان سيادتها (Chabl 1994)، وعوضاً عن تقوية القواعد الداعمة لها فان دورها في خلق بنية ذاتية تحتية شكلت المعيار الوحيد للشرعية، وهكذا كانت أسس تبرير القوة ضعيفة إلى حد ما.

--ونجد أن الوطنية بوصفها خطاباً توحيدياً قد انبنت كشرعية حديثة فيما يندرج تحت سياق تقليد (الدولة القومية).

ظاهرة الاثنية:-

هناك ثمة اعتراف عام وسط غالب العلماء بأن الاثنية ظاهرة حضرية تنشأ من الصراع على السلطة السياسية والمصالح الاقتصادية على المستوى الوطني، وليس من الصعب تغير ذلك على المستويين التاريخي والاجتماعي نظراً لأن السياسات الوطنية في أفريقيا تمركزت على الدوام في المناطق الحضرية.

وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة لم تجد الأولوية لدى الحركات الوطنية بالقضية الاثنية، إلا أن التنافس بين الأطراف المتعددة المتصارعة في حقل العمل الحضري نفسه، انتهت إلى جر هذا العامل إلى المعركة السياسية.

أما في الوقت الحالي فإن هذه المجموعات العرقية في أفريقيا لم تعد كثيرة جداً كما في السابق - ولكن العنصرية نفسها لا تزال موجودة.

فمن الناحيتين الأنثروبولوجي والاجتماعي، تتضمن كلمة (قبيلة) (Tribe) أو (مجموعة عرقية) (Ethnic Group) معنى للوجود لم يكن موجوداً في أيامنا هذه، فمن الصعب الآن، إن لم يكن من المستحيل وجود مجتمع كان في الماضي يشترك في المكان واللغة والثقافة، فالوظائف الآن متعددة والمصالح الاقتصادية والطبقية أصبحت مختلفة، هذا فضلاً عن التشتت الجغرافي الواسع والحدود اللغوية والتي أصبحت الآن أكثر تعقيداً بكثير مما كانت عليه. وكنوع من الإثارة يجب أن نحاول إرسال النخب الحضرية الذين يعتزون بعنصرهم، إلى قراهم الأهلية لكي يمارسوا وعيهم العنصري ومن زاوية أخرى لنحاول إيجاد فوارق بين مجموعتي الهوتو والتوتسي الموجودتين في رواندا وبورندي واللتين اشتركتا في اللغة والمكان والثقافة لقرون طويلة، أو دعنا نذهب ابعد من ذلك بالنظر إلى السود بالقرب من لوس أنجلوس من خلال نفس المنظور، سوف نجد أن الفهم السياسي الذي يمكن إيجاده في تلك النماذج لا يمكن أن يكون مؤسساً وفقاً لتعريف المجموعة العرقية.

والمجموعة العرقية هي في الواقع طبقة اجتماعية تجعل من الممكن وجود مفاهيم داخلية ضارة تقوض الوحدة الوطنية التي يسعى إليها السياسيون أنفسهم، وتلك النتيجة للاستخدام المتزامن لنموذجين أيديولوجيين متعارضين خلقا هذا المأزق.

غير أننا نجد في بعض الأحيان أن العنصرية تعتبر جذابة لدى الداعين لها نظرا للأسباب التالية: -

- أن طريقة عرض المفهوم يعني أنه يمكن استخدامه بطريقة انتهازية وكوسيلة شرعية تتغير دوماً وباستمرار.

- إنها تعطي الطبيعة الدعائية للدولة، فهي تسمح بنظام دعائي يشكل وسيلة رأس المال السياسي المتغير لمصلحته.

- إنها تمكن السياسيين من تقديم أنفسهم في صورة تقليدية.

- إنها تتيح اللجوء للإحتماء بالاثنية في حالات الأزمات ذات الدوافع الذاتية في الصراع حول السلطة.

كما هو واضح فبالنظر إلى تلك العوامل التاريخية والتي يجب أخذها في الاعتبار عند المحاولة للتحليل لطبيعة السلطة القائمة، وبما في ذلك أثر النماذج الاقتصادية التي تبدو ذات أبعاد خارجية، فإنها تهدد استقرار النماذج الديمقراطي والديمقراطية (Chibbon- Uuisufl 1992).

ثانياً نظم السلطة الرسمية: -

استجابت اغلب المجموعات الحاكمة في أفريقيا بتعدد نظمها من عسكرية ومدنية لطبيعة مجتمعاتها باعتمادها على تقاليد استعمارية مركزية متوحدة وتكتيكات واسعة التنوع، وهي بفعلها هذا أعادت خَلْق دولة إدارية متمركزة بتوجيهات الإداريين الذين أعادوا إلى الأذهان الصيغ الاستعمارية في العملية الإدارية ومن ثم عملت تلك الدول على تبنيهم ورعايتهم ويبدو لنا ذلك الاهتمام من خلال ثلاث مظاهر أساسية تمثلت في الآتي:

أ/ سيطرة جماعات محدودة وبروز سياسات طبقية تعتبر حديثة نسبياً.

ب/ التمداد التي يحاول هذا النمط من الدول تحقيقها فضلا عن محاولات تدعيم وتقوية البنى السلطوية العليا وتركيز القطاعات الإدارية.

ج/ استخدام نماذج غارقة في الذاتية في الحكم وسياسات إدارية كانت نتيجتها تكون الدولة الإدارية الأبوية (shalate 1986.p.32).

وعليه فإن هذا التلخيص الذي يقدمه (shalate) يعتبر نقطة بداية جيدة لفهم أفضل لبنى السلطة الرسمية في إفريقيا اليوم بسماتها المتعددة، إن التحليل النموذجي لا يختلف عن ما عرف في مواقع عدة من العالم، خاصة حين تأخذ أمريكا اللاتينية في الاعتبار حيث نجد في عدد من دولها تاريخاً سياسياً في تحقيق قدرمعين من الوحدة الوطنية،

ويشمل هذا محاولات مواءمة قوة الدولة بواسطة مجموعات أو طبقات معينة واستخدامها لغايات ذاتية.

وعلى الرغم من الطبيعة الراديكالية الواضحة لحركات التحرر الوطنية، فمن السهل اكتشاف عناصر الاستمرارية الصارخة والتي كانت تمثل متطلبات أساسية لتطور الدولة في أفريقيا، تماماً كما كان الحال في أمريكا اللاتينية وقد أكدت الدولة من خلال تعاقب شرعيتها عبر خطاب تشريعي يوحد عناصر الاستمرارية الناشىء أصلاً من صلب الإدارة الاستعمارية، ومن خلال ما ذكر في حق ذاتية الدولة فقد تضمن خطاب الشرعية الوطنية طرفاً من (الحداثوية) تبدى ذلك من خلال محاولتها لبناء قاعدة دعم أساسية، مستخدمة في ذلك مبادىء الأصالة والتي تعتبر ردة فعل ضرورية في سبيل الوصول لغاية تبرر القوة السياسية.

وقد استخدمها الأفارقة لاول مرة كوسيلة دفاعيه حتى الحقبة الاستعمارية وقد كانوا مضطرين للحفاظ على هذا المفهوم (الأصالة) نظراً لاستمرارية مفهوم (الدونية الأفريقية).

ولكن عن الوهم في تبريرنا لهذا الأمر قد تم الحفاظ على هذا أيضاً باعتبارها جزءاً من البنية السياسية التي تم بناؤها حتى الآن من أنها أسست في شكل تنظيم إداري قدمته القوى الاستعمارية (الأيديولوجيا الطفيلية) .(Kabu 1991)

يمكن الإشارة إلى أن أول خطوط الاستمرارية والتي يمكن ملاحظتها هو استخدام آليات القوة المركزية والسلطوية، إذ أن ما أنجزته أو لـ مراحل الدولة ما بعد الاستعمار كان في جوهره افرقة السلطة الاستعمارية والديمقراطية والتي تسعى إلى تفكيك النظام القائم آنذاك. والتي كان عليها لزاماً أن تعكس هذه الحقيقة التي يجب أن تتغلب على الاحتجاجات وإلا تتحاشى المواجهات أو الاختلاف أو مواقع المعارضة أو الصراع. وقد تم تطبيق الديمقراطية في هذا الخصوص بطريقة غير ملائمة إلى الحد الذي

وجدنا فيه إن كافة الممارسات الديمقراطية قد انتهت إلى تصعيد الصراعات المتفاقمة إلى درجة تفجير هذه الصراعات بدلاً عن إدارتها، أو أكثر من ذلك فكان نتيجة ذلك انتفاء كثير من القيم والمبادىء الديمقراطية في البنية الرسمية التي لا تعطي اعتباراً للمعترك السياسي الافريقي الحقيقي والذي يعمل من خلال صيغ ارتباط أخرى.

ويورد رؤيته من خلال صيغ دعوته القاضي انه عند تطبيق نظرية التعبئة (للتفجير والتغيير) انه يجب استصحاب العناصر التالية:

-الحاجة إلى تداخل اجتماعي.

-مرغوبية وسائل التوزيع.

-شروط التعبئة الصراعية.

-إمكانية الاستقطاب المدفوع سياسياً.

وعندما يتم تحقيق هذه الشروط، فإن استمرارية أي عملية سياسية (مثل تلك السمات المتعلقة بأوضاع كل قطر) فإن ما سيحدث هو تطور نموذج قانوني مؤسسي مصطنع دون الأسس المطلوبة للتأثير في تحريك الانفجار.

وفقاً لـ (losndal 1986) فإنه يجب عدم إظهار العنف بل يجب عكسه في صورة قوة ذاتية، فالعنف عمل غير مقبول ويعتبر عملاً خارجياً حتى ولو تم استخدامه بواسطة أعضاء المجتمع نفسه.

ويرى أن العنف لا يقبل النقاش ولا يعترف به من حيث أن القوة تعني القوة التي تعترف بالرأي الآخر والمناقشة في إطاره حتى إذا كان هذا النقاش بين طرفين بينهما توازن في القوة.

كما أن استخدام القوة يمكن أن يؤسس رغبة واسعة دون القدرة على التغيير، وتلك تمثل مؤامرة تقود إلى الركود إضافة إلى أنها يمكن أن تقود الأفراد الواحد بعد الآخر إلى مرتبة الصدارة. أما العنف والاتفاق فلكليهما

حدود، وكل السياسات عبارة عن مزيج بين العنصرين وقد تم تطبيقه على الحالة قيد الدراسة. تتضمن هذه النظرة إمكانية بناء الديمقراطية من خلال استخدام العنف أو القوة، وهناك نظرة أخرى تعتمد على (القائد ذي الكاريزما القيادية) حيث تم استخدام عدد منهم في التحولات الديمقراطية الأخيرة في أفريقيا بيد أن كلاهما على نفس الدرجة في صناعة الطلب، رغم أنهما ينطلقان من أسس مختلفة، في حين أن المسيطرين على القوى السياسية النخبة والصفوة يرغبان في استخدام العنف.

ولعلنا نجد أن هذا التناقض قد قاد إلى تحطيم الصيغ التقليدية للسلطة دون اللجوء إلى التفسير بواسطة نظام ديمقراطي، محدداً بوسائل التمثيل، واعياً باستخدام السلطة ومدركاً لامكانية التعبئة لإحداث التغيير والذي يتحول فيه المجتمع إلى مجتمع ديمقراطي ينبذ قيم الصراع والعنف (Lie 1995).

ولعل هذا يفسر لنا سقوط العديد من الدول في أفريقيا منها الصومال رواندا، تشاد، ليبريا، وموزمبيق، انغولا، سيراليون وهي النماذج الأكثر وضوحاً من بين بقية الدول الأفريقية.

ثالثاً: الإعلام السياسي: (إعلام السياسات)

نجد انه من المهم جداً تشجيع تعبير (المجتمع المدني) واعطاؤه صوتا وفرصة في المشاركة في المستويات المختلفة للحكم وصناعة القرار

- ولكن هل هو (مطلب) من الأفضل التعبير عنه من خلال المجتمع المدني؟

- وهل من المفترض أن يكون هذا مطلباً يتحقق من خلال استخدام العنف والقوة؟

نجد أن فترة ما قبل الاستعمار تشير إلى وجود أربعة عناصر يجب أخذها في الاعتبار عن أي محاولة جادة لبناء دستوري وهي:

-المصالح الأساسية التى تلعب نفس الدور في الدساتير الحديثة

-القوة العكسية المؤثرة.

- البنيه الاقتصادية الموغلة في اللامركزية.

- التكيف السريع بالأنظمة التي تفرزها التحويلات الاجتماعية في المجتمع.

- التكيف السريع بالأنظمة التي تفرزها التحويلات الاجتماعية في المجتمع وعلى أساس تلك العناصر الأربعة من الممكن فهم أن المواطنين في فترة ما قبل الاستعمار في أغلب أجزاء القارة الأفريقية كانوا يتمتعون بالمشاركة الاجتماعية.

فلم يكن هناك ثمة شيء استثنائي أو أفريقي بالأصل في فترة ما قبل الاستعمار كما توضح قاعدة الدعم التي يمكن أن تجدها الديمقراطية في أفريقيا (rod labicital 1996).

وتلك هي نفس الحجة التي تمت إثارتها في العلاقة مع الاشتراكية التي وجدت في الفترة ما قبل الاستعمار وهكذا نجد انه ستكون هناك ثمة علاقة مباشرة ما بين الصيغ الحديثة والموروث الثقافي.

بيد أننا نجد أن الحقيقة السياسية من الناحية الأخرى أكثر بساطة من هذا. ذلك لان القوى الفردية للسلطة أبرزت في الواقع صيغاً جديدة من المؤسسات الاجتماعية وتلك لها علاقة كبيرة بإفقار الدولة وانهيار قدرتها الأبوية، كما أن لها علاقة أيضاً بالواقع الحضري المتصاعد أكثر منها مع الماضي البعيد وعليه فقد ألحقت مؤسسات المجتمع المدني بوصفه شيئاً جيداً.

ونجد أن للدولة والمجتمع المدني في أفريقيا سمات محددة حيث تشير إلى مزيد من الحاجة إلى حوار مؤسس بقوة وعلى سبيل المثال (monga 1994)فان استخدامات التضخم الشعبي لتحديد أن الاختلاف بين الإمداد والتفاعل السياسي والطلب الاجتماعي يتسع بواسطة عوامل خارجية تجنح إلى آثار ما يرجع إليه بوصفه خروجاً عن الطاعة والذي يتضمن إلغاء التدخل

الشعبي من خلال (لا منهجية جماعية) وتمثل هذه نماذج صارمة للفت الانتباه للوسط الذي تجري فيه العمليات الديمقراطية في أفريقيا وربما تبرز صيغ جديدة من السلطوية من خلال بنيات المجتمع المدني التي تجنح إلى خلق الاستخدام الانتهازي للدولة.

وفي تلك الصيغ نجد أن الكثير من الزعماء الأقوياء في المجتمع المدني هم الممثلون الأكثر بروزاً للدولة وتتبدل قناعاتهم حسب الموقف المطلوب، وبالتالي تتيح هذه النماذج إلى تكاثر المواقف والحوارات التي تجعل التحليلات مسألة في غاية الصعوبة.

ونجد أن هناك ثمة شواهد لتحويل العلاقات السياسية لكي تأخذ حالة الارشمية والتي تتصاعد من الحاجة إلى نفس التكتيكات المستخدمة في تأسيس الروابط مع القطاع الرسمي التي تستخدم في المجالات الاقتصادية وكنقطة معاكسة لهذا التطور برز ميل شديد نحو الدستورية والحوار الدستوري والقيم البرلمانية وقد انحصر هذا الولع في النخب الحضرية والذين وجدوا في هذا المجال فرصة للتأكيد على استمرارية سيطرة تاريخية جديدة تأتي هذه المرة تحت غطاء قيم جديدة.

ولربما يقال إن المجتمع المدني لا يمكن تحجيمه بحيث يصبح بنية احادية قابلة للتجديد، اذ قد يجعل في دواخله ممارسات عدائية غير ديمقراطية، ولكن من النادر جداً في افريقيا ان تجد تلك المجموعات المسيطرة عليها مدافعين عنها في المجتمع (Lomarshan 1992) دون أن تكون هناك حاجة لكي تجعل من تلك السيطرة شرعية وعن طريق الانتخاب.

اما (butran 1993) يعتبر ان المجتمع المدني مرآة للمجتمع لكنه ليس كذلك فحسب وانما تتطور من نقطة معاكسة للدولة اذا ما اتبعنا النظرية اللبرالية ولكن تلك الظاهرة عادة ما تتطور على خلفية مواطنة راسخة.

تعتبر العلاقة القانونية بين الفرد والدولة على أساس هذه العلاقة مسألة جديرة بالدراسة والتمحيص وهنا نجد أن سرعة التواءم مع تزامنية

الفراغ التاريخي امراً غير مرغوب فيه، ولكن وبالرجوع إلى التحليل المفصل للنظام التعليمي مثلاً فان الاتصال والتكامل الاقتصادي تعتبران بحاجة إلى وضع حد للفروقات العنصرية في الوحدات المحلية بغرض تهيئة الظروف لفهم أفضل للعلاقات الرسمية وغير الرسمية في سياسة أفريقيا الحديثة. ربما تكون الدولة الأفريقية سلطوية وقوية لكنها ضعيفة لأسباب عديدة ويكمن ذلك في أن المجتمع المدني لا زال في مراحل تكوينه الأولى حيث أن مطامحه لم تتحدد بعد، وهو تبعاً لذلك لم يتعرض للدراسة والتحليل بصورة كافية، كما أن بنيته لم تكتمل ولم يتم التخطيط له بصورة جيدة.

ووفقاً لـ(Movga 1994) فان الدولة سوف تتخلى عن كونها مركزاً للمصالح الخاصة فقط عندما يكون من الممكن تطبيق (تنظيم اجتماعي معين) يكون من شأنه تأسيس صيغ مختلفة للانتاج الاجتماعي ويعني هذا الأخذ في الاعتبار بعدم تكاملية التطلعات الجماعية والمجتمعية من ناحية، وتطلعات الجماعة والمجتمعية من ناحية، والتطلعات الفردية وتطلعات المواطنين من الناحية الأخرى وعلى الرغم من عدم عدالة المناهج والمفاهيم، فإن الهدف هو توحيد الأفراد في العملية الديمقراطية.

ونجد أن أحد الوسائل الممكنة لتوجيه الجهود التي تتسبب الآن في تبديد السياسات غير الرسمية هو تقوية ما أسماه (NZongla - Ntalaja 1995) الحركات الاجتماعية الجديدة في أفريقيا، فوفقاً لما يراه فإن الوضع الحالي يمكن مقارنته بالأوضاع التي كانت سائدة في فترة الخمسينات والستينات، بيد أن ثمة إمكانية الآن لاستخدام ضغوط خارجية من اجل التغيير إلى الأفضل، فقد ارتقت المناقشات الديمقراطية بأفريقيا إلى المستوى العالمي، أخرجتها من عزلتها المفروضة التي كانت تعيشها من ثلاثة عقود، ولكن دعونا نتساءل هل هذه هي الظروف المناسبة لمواءمة النموذج الديمقراطي الحقيقي.

عـالميـة النمـوذج الديمقـراطي: The Universalisation Of Democratic Model، أتاحت فترة التهميش الذي عاشته أفريقيا، الفرصة لبعض المجوعات المؤثرة لتؤثر بشكل واضح في رسم وتشكيل السياسة في القارة.

وعلى الرغم من أن (الانتلجسيا الأمريكي) لم يكونوا في أول الأمر يعيرون اهتماماً بالأفريقيا، فإن بلادهم هي التي تضطلع حتى الآن باخذ زمام المبادرة في فرض الشروط السياسية على القارة، وهي التي تمارس تأثيرها إما مباشرة وعبر الأمم المتحدة أو في صيغة أكثر وضوحاً من خلال المؤسسات بيرتون وودز.

(IMF.W.B) ونظراً لاتساق هذه النظرة مع توجهات الاقتصادالدولي من خلال المؤسستين المذكورتين واللتان يتم إدراتهما من (washington D.C) فقد أصبح من غير المستغرب فيه تسمية هذا الأمر بـ (إجماع واشنطن) (Washington Consensus) تتدخل بصورة كثيفة في رسم السياسات التي تعولم القيم الأمريكية التي ينظر إليها كقالب لتقديم الديمقراطية، فكانت النتيجة أن تحول مناطق عديدة في العالم إلى مناطق للاختبارات الـ - socio) political) وتبدو هذه الحقيقة في أوضح صورها في أفريقيا.

ويعتقد (moss) في أنه وعلى الرغم من الحقيقة التي كثيراً ما تتعارض مع ما يعتقده فان القيم الأمريكية تأثرت بالفلسفة الليبرالية التي استوعبها وعبر عنها (جون لوك). والذي يعتقد في ميزات الرأسمالية والحرية الفردية والتطور الإنساني، وهو يعتقد أيضاً أن الطريقة التي طبقت بها هذه المبادىء في الولايات المتحدة، تعتبر طريقاً مرغوباً فيها في كل أنحاء العالم وعلى هذا الأساس، لا يفهم معظم الأميركيين أن صيغة المجتمع لديهم يمكن أن تكون مختلفة بالأيديولوجيين، وانما يعتبرون ان الذين يقومون بتصنيف هذه (المبادىء العالمية) بوصفهم أيديولوجيين أو أنهم يخدعون أنفسهم.

لقد تحولت (الأيديولوجيا للوركية) إلى أسطورة وطنية أمريكية مبررة فقط لأنها تعمق الاعتقاد في الأسطورة وتلبي الحاجة إلى توسيع رقعة انتشارها.

لهذا فإن من الطبيعي أن يكون الترويج لحقوق الإنسان والديمقراطية بمثابة حجر الأساس في السياسة الخارجية الأمريكية ويوصف بأنه (واجب أخلاقي)و (مطلب تاريخي) و(نداء عالمي) (Moss 1995).

ولهذا السبب أيضاً لم يهتم الأمريكيون بسؤال أنفسهم عن أسباب جعل الديمقراطية مسألة مؤسسية، فهم يفضلون فقط مناقشة صيغ التطبيق نظراً لأنهم يعتقدون في كل أشكال الحرية التي تؤكدها القيم ذات الصيغة الغربية.

أن فكرة العولمة (Universalisation) تشابه إلى حد كبير النقاش الدائر حول العولمة. (Globalization) التي تروج لقيم عالمية مؤسسة على القيم الغربية مكتسبة العداوات والتي يمكن أن تتسبب في تصاعد حرية النزاعات المضادة لها.

إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأن صيغ التعبير الجماعي حول العالم يجب أن تكون متشابهة تماماً مثل ما أنه من التجريد الاعتقاد بأن قواعد الممارسة الأخلاقية والسياسية يجب أن تكون متشابهة، وأنه لمن السهولة الوقوع في المشروعات التي تخلق مشاكل أكثر منها إيجادها للحلول إذ نجد أنها أكثر تعقيداً وهي بحاجة إلى التساؤل حول النموذج العالمي، كما أن حقائق الدليل الذاتي التي تختلط عادة مع العمليات الديمقراطية في إفريقيا هي أن الديمقراطية مطلب أساسي بالنسبة للمجتمع المدني وأنها تمثل محوراً أولياً بالنسبة للقيم الأفريقية كما أنها الطريق الذي يقود إلى الخروج من الأزمة وينظر إلى كل واحدة من هذه الديمقراطيات باعتبارها الدواء الذي يصلح لكل الأمراض والقادر على التعامل مع كل التناقضات والصعوبات التي تشهدها السياسة الإفريقية

لقد استخدمت التحليلات المتمركزة حول المجتمع بواسطة الماركسية (Barrington More) كما استخدمها غير الماركسين، ونجد أنه في الوقت الذي يركز فيه الماركسيون على دور البنى. - socio)

(economicوالبـرجـوازية الوطنيـة في بناء الدولة (Rudebeck 1996) عن الدور التقليدي والحديث ودور الطبقة الوسطى في تحقيق الحدين المطلقين .

وتمثل هذه نقاطاً ابتدائية أكثر تعقيداً من النظرة الليكونيه وتشكل جانباً من الصورة المعقدة التي تتركز حولها الاهتمامات لدى العديد من الباحثين الآن ووفقاً لرؤية ، فثمة موضوعات أساسية تتصل بالبناء الديمقراطي :

– رؤية غير الماركسين التي تزعم أن التحديث (socio -economic) إضافة إلى الطبقة الوسطى القوية تختلق الديمقراطية .

– رؤية الماركسيين الجدد الذين يعتقدون أن الرأسمالية نفسها تختلف (من خلال تدميرها الاحتكارات السياسية والسلطوية عاملة قادرة على فرض التغيير الديمقراطي عن طريق القوة .

– التفسير الذاتي الذي يتضمن تباحث التحية وديمقراطية القمة والقاعدة .

– المؤسسات الجديدة والتي عمل على إقامة نموذج صالح لنظام الحكم .

– فرضية مصالح الميزات الاجتماعية والثقة والتعاون التى يمكن التعبير عنها بعبارة (رأس المال الاجتماعي) .

– يصلح هذا المشروع التحليلي للتطبيق على الحقائق الأفريقية حيث لم ينجح أي من التحولات الديمقراطية في إيجاد مزيج من الموضوعات التي تم تحديدها أعلاه وإذ ما قلنا أن يتخذ الأفراد القرارات وفقاً لنوعية المعلومات المتاحة فإنه ليس من الصعوبة بمكان أن نتخيل أن جزءاً من هذا التعقيد لم يكن يشكل رغبات أولئك الذين وضعوا تصورات للعملية الديمقراطية التي يتم تطبيقها الآن .

– إنه من الممكن الذهاب أبعد من ذلك وقبول أسئلة (Monga) عما إذا كانت صيغ المشاركة المطروحة حالياً عرقية أم أنها مجرد انتقام من الدولة

– مع تبعات لم يتم بحثها بعد، ومع الأخذ في الاعتبار أنها تشكل وتشجع (الانفجار الكامل) كما هو الحال في رواند، بور ندي).

ويمكن للنموذج الديمقراطي أن يتجاهل باسم العولمة، عمليات الانشطار الاجتماعي والتي تقود – بدلاً عن نقل الخيار الديمقراطي الحتمي إلى الانتقال إلى مسرح للعنف ما بين انهيار النظام السلطوي وغياب القيم الجديدة التي لا تكون قد برزت بعد، وهو أمر ممكن الحدوث خاصة إجراء الانتخابات في إطار من المواجهات بين قوى متعددة، وأكثر منه في حالة التفاوض بغرض تحقيق إجماع واسع.

في مثل هذه الظروف يمكن للانتخابات أن تكون مطية إلى الحرب (Lie 1995) مما يتسبب في تفاقم استراتيجيات التمرد والأوضاع غير المنهجية، وليس ثمة مخرج سوى القبول بفعل إيجابي يسمح للأفارقة بمواءمة النموذج الديمقراطي بما في ذلك قيمه المنبطة لتلك المواءمة التي تتيح فرصة لمجابهة النزاعات والنتائج التي تمت دراستها ومناقشتها في إطار هذه الورقة، وإن هذا الشرط أساسي للنجاح في بناء صيغ جديدة من النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أفريقيا.

References:

Chabal.P.(1986) political domination in Africa
Retractions On the limits of power
Cambridge University press

Chabal .p. (1994): "power in Africa" An essay in political interpretion
New yourk; st Martin's press

Chibbon,p.B.Ayusuf (1992) "democracy and adjustment:

The politics of economic reform in Africa.

Lacer chand, R. (1992) "Un civil states and civil societies:

How illusion become reality"

The journal of modern African studies vol.30.No2 makejeje,A. (1995)

"Demographic and ethinc variation:

Source of instability in modern African state.

codesria Eight General Assembly -Dakar Codesira mkandwizre (1995)

Beyond crisis: Toward.Dakar.

Monga (1995) civil society and democratiZation in frencohone Afri ca"

The journal of modern Africa studies vol 33.No3.

Moss.T.j.(1995) us policy and democratiZation in Afri ca.

The limits of liberal universalize.

The journal of modern African studies vol 33. No2.

Nronglola - Ntalaija G. (1995) "Democratic transition in Africa"

AAPS New letter No .19.

putnam.R.D (1993) Making democracy work Princeton:

Princeton university press:

Rudebeck, L.O.Tornguist,V.Rojas (1996): democratiZation in the third world Uppsala- Uppsala university

عبد الهادي الصديق: السودان والافريقانية ... مركز الدراسات الاستراتيجية 1997.

مجلة الوحدة ... العدد 97عدد خاص عن (العرب وأفريقيا) أكتوبر 1992.

* * *

الشباب وإشكالية الاندماج الاجتماعي في المجتمع السوري

د. طلال عبد المعطي مصطفى*

مقدمة:

لقي مفهوم الشباب اهتماماً واسعاً حتى أضحى ظاهرة عالمية، لما للشباب من دور بارز مميز في مسيرة المجتمع النمائية باعتباره القطاع الأكبر والحيوي في مجمل التركيبة المجتمعية وذلك أن الاهتمام به يعد مؤشراً على اهتمام المجتمع

(*) د. طلال عبد المعطي مصطفى: باحث من سورية، دكتوراه في علم الاجتماع، استاذ في معهد الخدمة الاجتماعية.

بمستقبله الذي سيكون به ومن خلاله، ومن ثم فإن الاهتمام بدراسة هذا القطاع وإن كان حديثاً يعد دليلاً على تقدم المجتمع وتطوره، سيما وأن الشباب يشكلون الأداة والوسيلة والغاية والمحور لأي عملية تنموية، فهم القوة الحقيقية في المجتمع ويمثلون الحاضر الفاعل والمستقبل الواعد، وما سيؤول إليه، وهذا ما استدعى ظهور فرع جديد ومتنام في علم الاجتماع سُمي بـ «علم اجتماع الشباب» والذي اتخذ من الشباب وقضاياه ومشكلاته مجالاً متميزاً للبحث والدراسة على المستوى النظري والميداني.

أولاً: مفهوم الشباب لغويا

جاء في لسان العرب المحيط لابن منظور وغيره من المعاجم العربية أن كلمة شب من شبيب وأن الشباب هو الفتاء والحداثة، وشباب الشيء أوله، وتجمع على شباب وشبان وشواب. (1).

وأورد الثعالبي في فقه اللغة وسر العربية ترتيبا متميزا دقيقا لأصول الغلام وتنقل السن به إلى أن يتناهى شبابه ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد، وما دام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم، ثم هو إذا دب ونما فهو دارج، فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور، فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط فهو مثغر بالتاء والثاء، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حزور ومزور واسمه في جميع الأحوال التي ذكرنا غلام، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ثم هو كهل إلى أن يستوفي الستين (2).

وتفيد القواميس الإنكليزية أن كلمة Youth تعني كون الشيء الحي حيويا طازجا أو الفترة الأولى من حياة المرء أو الفترة في البلوغ إلى اكتشاف النمو التام أو المراهقة، أو أول فترة مبكرة من كل شيء (3).

ثانياً: اتجاهات تعريف الشباب

حاول كثير من الباحثين تقديم تعريف للشباب من وجهة نظر نظرية بحتة أو من وجهة نظر إجرائية تطبيقية وبرغم الجهود المبذولة لم يستطيعوا

تقديم مفهوم واحد لأكثر من عامل موضوعي وتاريخي وبيئي، إلا أن هناك اتجاهات ركزت على منظور معين فهناك من كرس النظرة البيولوجية، وهناك من كرس النظرة السيكولوجية، وهناك من جمع بين الإتجاهين مكرسا نظرة اجتماعية في التعامل مع الشباب، ويمكن تحديد الاتجاهات تفصيليا كمايلي:

1- الاتجاه السكاني.

يعد علماء السكان أول من حاول تقديم تحديد لمفهوم الشباب، في هذا التحديد نجدهم يستندون إلى معيار خارجي يتمثل في العمر الذي يقضيه المرء في أتون التفاعل الاجتماعي. وقد اختلف علماء السكان فيما بينهم حول نقطة البداية والنهاية لهذا العمر الشبابي، فهناك من يؤكد أنهم من هم تحت سن العشرين وبذلك فهو يحدد نقطة النهاية دونما تحديد لنقطة البداية وهناك من يؤكد أنهم من يتراوح عمرهم بين سن الخامسة عشرة إلى سن الخامس والعشرين، أو من يقعون بين سن الخامسة عشرة وسن الثلاثين على ما يرى آخرون.(4)

وهناك بعض الدول ترى أن مرحلة الشباب تصل إلى سن (35) سنة والبعض الآخر إلى (40) سنة. (5)

وتشير منظمة وثائق اليونسكو إلى أن الشباب هم من تتراوح أعمارهم بين (15-20) سنة، إلا أن هذا التعريف ليس مطلقاً، فهناك عدد من بلدان العالم ترى أن سن الشباب يبدأ من (11) سنة، والبعض الآخر في سن (12) سنة، وهناك من يمدها إلى سن (35) سنة، مما يشير أن لكل بلد ظروفه الخاصة.(6)

وقد اعتبر الباحث (سعد جلال) الشباب كمرحلة موزعة على مرحلتين هما:

- مرحلة المراهقة: وتبدأ بسن (13) سنة وحتى سن (21) سنة.
- مرحلة الرشد المبكر: وتمتد من سن (21) سنة وحتى (30) سنة.(7)

وقد اختلفت الدول العربية في تحديد فترة زمنية واحدة لمرحلة الشباب، فبينما اعتمدت جمهورية مصر العربية في كثير من دراساتها وبحوثها على المرحلة العمرية من سن (15-20) سنة، نجد دولة الإمارات العربية المتحدة – مثلا – تحدد سن الشباب في المرحلة ما بين (15-44) سنة في الأردن تم تحديد فئة الشباب بالفئة العمرية (15-24) سنة وفقا لإحصاءات سنة 1992. (8)

وفي سوريا تحدد فئة الشباب بالفئة العمرية (13-35) سنة. (9)

وفي الحقيقة يرجع هذا الاختلاف بين علماء السكان إلى طبيعة السياق الاجتماعي الذي يعيش بداخله هؤلاء العلماء، وينضم إليه الشباب موضع الاهتمام إذ يختلف المدى العمري الذي تقع فيه هذه الفئة في المجتمعات النامية عنها في المجتمعات المتقدمة، بحيث نجد أن الحد الأقصى لسن الشباب ينتهي في الأولى مبكرا عن الثانية. (10)

2- الاتجاه السيكولوجي

على خلاف علماء السكان يربط علماء النفس مرحلة الشباب ونهايتها بمدى اكتمال البناء الدافعي فإذا ولد الفرد كتكوين بيولوجي، فإنه كذات أو هوية يكتمل بناؤه إذا استوعب مجموعة التوجيهات القيمية الكائنة في السياق الاجتماعي من خلال عملية التنشئة التي تقوم بها نظم اجتماعية عديدة على مراحل متتابعة وإذا استطاعت أن توائم بين هذه التوجهات القيمية من ناحية وإشباع حاجاتها واهتماماتها الأساسية من ناحية ثانية، بحيث تشير هذه المواءمة إلى امتلاك الشخص لبناء دافعي متكامل يمكنه من التفاعل السوي في المجال الاجتماعي. (11)

ويرى أيضاً أنصار هذا الإتجاه أن الشباب ليس مرحلة عمرية تتحدد بسن معينةوإنما حالة نفسية لا علاقة لها بالعمر الزمني، فالفرد يعد شابا بمقدار ما يشعر بالحيوية والحماس والحركة والطموح، والأمل في الحياة وبمقدار مايستطيع أن يولد في الآخرين الرغبة في العمل والحياة يكون شابا، وحين يخفق في ذلك، يشعر باليأس والإحباط والرغبة في الهروب من الحياة، وهذه بدايات مرحلة الشيخوخة. (12)

ومن الواضح أن هناك إسهاما كبيرا من قبل علم النفس في تحليل مرحلة المراهقة وبيان خصائصها الجسمية والنفسية والاجتماعية، وهي دراسات حاولت أن تصوغ إطارا نظريا سيكولوجيا لدراسة مرحلة المراهقة وهي وإن كانت لم تركز تركيزا كاملا على المراهقة والشباب نظرا لاهتمامها بالموضوع الأشمل وهو الشخصية الإنسانية إلا أنها أظهرت عددا من الحقائق المتصلة بهذه الدراسة، ويؤخذ على هذه الدراسة عموما، أنها اتجهت اتجاها نظريا وصاغت فروضا عديدة، ولكنها لم تقدم الشواهد الكافية للتحقق من صحة هذه الفروض وبخاصة ما يتعلق بمرحلة المراهقة. (13)

3- الاتجاه الأنثروبولوجي

لقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية كيف تختلف المجتمعات في تحديدها لمراحل النمو الاجتماعي والنفسي، وبالأخص فيما يتصل بالشباب والرجولة، وهناك العديد من الدراسات التي تناولت الفروق بين المجتمعات المتقدمة في هذا الصدد. (14)

فالأنثروبولوجية هي العلم الذي قدم الكثير فيما يتعلق بدراسة هذه القضية، حيث أوضحت معطيات علماء الأنثروبولوجية، أن ما نتوقعه من المراهقين يختلف من ثقافة إلى أخرى، وتعكس سلوكات المراهقين واتجاهاتهم هذه التوقعات وقد لا يعرف أحد إلى أي مدى يمكن أن يمتد تأثير البيئة، غير أنه من الواضح أن لهذا التأثير فاعلية حتى بداية البلوغ، كما يؤكد (فرانز بلادو Franz Bladu) مثال على ذلك ما ذهبت إليه عالمة الأنثروبولوجية (مارجريت ميد Margaret Mead) حيث كانت تصف الشباب في «غينيا الجديدة» أي سنوات ما بعد البلوغ بأنها سنوات التوتر والقلق، والقهر والصراع، إذ تعتبر هذه السنوات بالنسبة للإناث سنوات السلبية المفروضة، وبالنسبة لكلا الجنسين تعتبر هذه الفترة السنوات الأخيرة للحرية. (15)

إضافة إلى ذلك فهناك المعطيات القيمة التي قدمها علماء الأنثروبولوجية في وصف طقوس التعميد التي تجريها المجتمعات البدائية،

لاختيار صلابة المراهق والنظر في مدى استحقاقه العضوية الكاملة في بناء القبيلة كوحدة اجتماعية، والتي يمكن اعتبارها أساساً للاعتراف الاجتماعي بالشاب عضواً كاملاً له كل حقوق البالغين وعليه كل التزاماتهم. (16)

4- الاتجاه الاجتماعي

لم يقف علماء الاجتماع بعيداً عن هذا الميدان، وإنما حاولوا أن يقدموا تصوراً لمعالجة قضايا الشباب في صلتها بمشكلات المجتمع المعاصر، واستطاعوا باستخدام مفاهيم الاغتراب والثورة، والتنمية والثقافة والمشاركة أن يكشفوا الدور الذي يقوم به الشباب داخل البناء الاجتماعي للمجتمع المعاصر سواء في المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة. والشباب وفقاً لهذا الاتجاه يعيش في عالم مضطرب يتسم بالتغير والتحولات المفاجئة على أكثر من صعيد وفي أكثر من مكان وتصارعت فيه القيم الاجتماعية والمادية مما جعله في صراع نفسي وقيمي وعدم استقرار في طريقة حياته بحيث يتمرد تارة وينحرف تارة أخرى. (17)

ولعماء الاجتماع تشخيصهم العلمي والموضوعي لفئة الشباب، وهو التشخيص الذي يرى أنه بالإضافة إلى التحديد العمري السابق فإن فترة الشباب تبدأ حينما يحاول المجتمع تأهيل الشخص الذي يمثل مكانة اجتماعية ويؤدي دوراً أو أدواراً في بنائه، وتنتهي حينما يتمكن الشخص من احتلال مكانته وأداء دوره في السياق الاجتماعي، وفقاً لمعايير اللعبة الاجتماعية، وهم يؤكدون على ذلك أن الشخصية تظل شابة طالما أن صياغتها النظامية لم تكتمل بعد. (18)

وفي إطار ذلك يفرق علماء الاجتماع بين الدور في مرحلة الإعداد والدور في مرحلة الاكتمال والفاعلية، فدور الطالب والحرفي يعد من النوع الأول بينما يعتبر دور العامل والموظف من النوع الثاني، وبذلك يعتمد تحديد علماء الاجتماع للشباب كفئة على الطبيعة والمدى لاكتمال الأدوار التي تؤديها الشخصية الشابة، ويستتبع ذلك تأكيدهم على انتشار الرفض والعنف والتظاهر عند هؤلاء الذين لم تكتمل أدوارهم بعد، أو ما زالت في طور

الإعداد، وذلك نظرا لنقص اكتمال صياغتها النظامية، كانتشار هذه الظواهر بين الطلبة أو العمال أو الموظفين الذين شغلوا أدوارهم المهنية حديثا. (19)

ويرجع هذا التنوع في تشخيص مرحلة الشباب إلى تنوع الأطر أو المعايير التي يعتمد عليها الباحثون المختلفون - من مختلف الاتجاهات - في عملية التحديد من ناحية، وإلى اختلاف السياقات أو الظروف التي تنتمي إليها الظاهرة الشبابية من ناحية أخرى. (20)

فبعضهم يهتم بتتابع الأجيال استنادا إلى تتابع منظومة سنوات العمر، وبعضهم يهتم بالنمو النفسي وحالات القلق والتوتر المصاحبة، بينما يهتم بعض ثالث بطبيعة الحركة بين الأدوار الاجتماعية المتباينة على حين يهتم رابع بالتحديد الثقافي للشريحة الشبابية، على حين يهتم بعضهم الأخير بملامح النمو البيولوجي وطبيعة التغيرات التي تنتاب الجسم الشاب ثم الدلالات النفسية والاجتماعية والثقافية لملامح التغير والنمو هذه.

ثالثاً: مقومات الشخصية الشابة

بغض النظر عن اختلاف زاوية النظر بين كافة العلوم، فإنها تتفق جميعاً حول مكانة الشباب في دورة حياة الأجيال. هذه الدورة التي تضم مراحل حياة الإنسان ابتداء من الطفولة إلى الشباب والرجولة والشيخوخة يؤكد ذلك إذا كانت المرحلة الأولى ذات طبيعة بيولوجية في غالبها، فإن المرحلة الثانية استمرار أو هي بالأحرى اكتمال بيولوجي نفسي واجتماعي. وتعتبر المرحلة الثالثة امتدادا لهذا الاكتمال إلى أقصى درجات النضج، وهي المستوى الذي يبدأ في التحلل في المرحلة الرابعة، وهي مرحلة دينامية فيها إضافة وتولد، فيها عرض ورفض، فيها فعل ورد فعل، كل ذلك يضفي انطباعا خاصا على هذه المرحلة. (21)

ذلك يجعلنا نتساءل: إذا كان كل بناء يتكون من مجموعة من العناصر التي تتفاعل بعضها مع بعض لتشكيل كلية الشخصية الشابة، فما هي العناصر التي يتشكل منها بناء الشخصية الشابة؟ قبل الإجابة على هذا السؤال نطرح ملاحظتين، الأولى، أن هذه العناصر المشكلة لبناء الشخصية

ليست عناصر ثابتة، لكنها ذات طبيعة دينامية، فكل عنصر من هذه العناصر في حالة تشكل أو لنقل في حالة صيرورة مستمرة، وتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض يضاعف الطبيعة الدينامية لبناء الشخصية، وتتمثل الملاحظة الثانية، في أن عناصر بناء الشخصية الشابة كانت موجودة في مرحلة الطفولة ولها استمرارها حتى مرحلة الشيخوخة. الخلاف الأساسي أن الفرض النسبي لكل عنصر من العناصر بالنظر إلى العناصر الأخرى يختلف في بناء الشخصية الشابة عن ما قبلها وما بعدها. وهو التميز الذي يكسبها طابعها الخاص.(22)

1 - **العنصر البيولوجي:**

يعد العنصر الأول في بناء الشخصية الإنسانية والشخصية، حيث يولد الفرد بهذا العنصر، فمن خلاله يعتبر الإنسان امتداداً للوجود الطبيعي، ولا يختلف الإنسان عن الحيوان فيما يتعلق بمكونات العضوية والبيولوجية، ويحتوي هذا العنصر على أكثر أبعاد الشخصية أهمية، وهو بعد الحاجات التي تتطلب إشباعاً. حيث تخلق هذه الحاجات لدى الشخصية ميلاً إلى خارج بنائها العضوي باتجاه التفاعل مع الآخر تأميناً للإشباع. ويتميز العنصر البيولوجي في كونه بسيطاً ذا إمكانيات محدودة في مرحلتي الطفولة والشيخوخة. أما في مرحلة الشباب فالبناء الفرعي الداخلي لهذا العنصر يشهد تغيرات أساسية ذات طبيعة كمية وكيفية.(23)

2 - **العنصر الاجتماعي:**

ويعد العنصر الثاني في بناء الشخصية الشابة، وإن كان الإنسان لا يولد بهذا العنصر، إلا أنه يتأسس لديه من خلال تفاعله مع الآخرين استنادا إلى قواعد حالة الاجتماع المتفق عليها. ويشير العنصر الاجتماعي إلى البيئة الاجتماعية المحيطة بالإنسان والتي يتيسر له إشباع حاجاته الاجتماعية التي عليه أن يعمل على إشباعها إلى جانب حاجاته البيولوجية الأساسية، ويتم غرس هذا العنصر الاجتماعي من الخارج من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تنجزها مؤسسات عديدة كالأسرة ومؤسسة العمل، جماعة

الرفاق، ويعني اكتمال البعد الاجتماعي في بناء الشخص، وهو الاكتمال الذي يعني شغل الإنسان لمختلف أدوار البالغين، واكتمال بناء الشخصية الشابة. (24)

3- العنصر السيكولوجي:

ويعد العنصر الثالث في بناء الشخصية الشابة، وهو يضم مجموعة الخبرات التي يكونها الشخص نتيجة للتعامل مع العالم الخارجي إلى جانب اتجاهاته نحو هذا العالم. وتتكون هذه الخبرات كنتيجة لأنماط التكيف التي يحاولها الشخص مع مختلف مواقف العالم الخارجي، ذلك يعني أن العنصر السيكولوجي في جانب منه، ناتج عن التفاعل بين العنصر الاجتماعي والعنصر البيولوجي. ومن ثم فهو يختلف من شخص إلى آخر نتيجة لطبيعة تكوينه البيولوجي من ناحية، وبالنظر إلى طبيعة السياق الاجتماعي الذي يشكل إطار تأهيله اجتماعيا من ناحية ثانية. (25)

4- العنصر الثقافي:

وهو العنصر الرابع في بناء الشخصية الشابة، ويضم مجموعة التوجيهات القيمية التي توجه سلوك الإنسان في مختلف المجالات الاجتماعية، ويتم استيعاب هذا البعد في بناء الشخصية الشابة من خلال مؤسسات التنشئة الاجتماعية. ويلعب هذا البعد دوره في ضبط حركة الفرد في السياق الاجتماعي، وتتباين القيم الموجهة للسلوك الفردي بين كونها قيما وجدانية تلمس الجوانب العاطفية والمشاعرية أو القيم التقويمية التي تساعد الفرد على المفاضلة بين الاختيارات، والقيم الإدراكية التي توجز معرفة الإنسان بواقعه المحيط، والأسلوب العلمي أو الموضوعي للتعامل مع هذا الواقع. (26)

وتتمثل الحالة المثالية - من وجهة نظر المجتمع - في تأسيس مستوى عال من التطابق بين العنصر الثقافي في بناء الشخصية الشابة وبين الثقافة الكائنة في بناء المجتمع. بيد أن ذلك لا يحدث عادة فهناك افتراق بين تشكل العنصر في بناء الشخصية الشابة، وطبيعة تواجده في المجتمع، وقد يتخذ هذا الافتراق طابع الثقافة الفرعية، وقد يتعمق ليصبح ثقافة مضادة.

رابعاً: خصائص الشباب

1- **السن:** لأن عامل السن من أهم العوامل التي تحدد جمهور الشباب يؤكد المختصون أن ثمة ملامح عامة ومشتركة فيما بين (14-28) سنة وذلك بالرغم من التباين وعدم التجانس اخل جمهور الشباب وفئاته المختلفة، فالسن مؤثر متميز وأصيل على التجربة الاجتماعية المكتسبة، وعلى المعارف والعادات والرغبات والحاجات والاهتمامات. [27]

وهي الفترة التي يتحقق فيها النضج الاجتماعي الذي يتجسد باحتلال الشاب لمكانة اجتماعية معينة يؤدي من خلالها دورا أو أدوراً ترتبط بهذه المكانة.

2- **الديناميكية:** تتمثل الخاصة الثانية في تمييز المرحلة الشبابية بالطابع الدينامي لسببين، الأول، يرجع إلى أن فترة الشباب عادة ما تكون الفترة الكائنة بين مرحلتين، مرحلة الإعداد من ناحية ومرحلة القيام بدور فعال في بناء المجتمع . . . ويرجع السبب الثاني لدينامية هذه المرحلة إلى طبيعة التكوين البيولوجي والفسيولوجي والوضع الاجتماعي للشخصية الشابة. [28]

3- **يشكل انتشار مشاعر القلق والتوتر الخاصية الثالثة للشخصية الشابة**، فالتوتر القائم بين الذات والمجتمع هوالقضية المحورية المدركة في مرحلة الشباب، ففي مرحلة المراهقة يتقبل اليافعون تقييم المجتمع لهم كمتمردين، كمتسيبين، كرياضيين، أو كمنجزين، أما في مرحلة الشباب فنجد أن العلاقة بين ثوابت المجتمع والذات الحقيقية تأخذ طابعا مضطربا مع التركيز على الذاتية. فالمراهق يحاول جاهدا أن يحدد هويته، والشاب يبدأ بإدراك حدود شخصيته ليتمكن من تمييز احتمال الصراع والتباين القائمين بين ذاته المتنامية وبين نظامه الاجتماعي. [29]

4- **ويشكل الميل إلى التجديد إحدى الخواص الأساسية التي تتميز بها الشخصية الشابة**، فهم غالبا المجددون في التاريخ، فقد أكد (تريفور بوتمن Trevor Potmen) على دور الشباب كقوة كاسحة

ومبادرة لتجديد المجتمع . فللشباب اهتمام ضروري بالمستقبل لأن مصالحهم في إطاره، ومن يتبدى قلقهم بشأن ما قد يؤثر في الحاضر على المستقبل، أو بشأن عناصر الحاضر المتناقضة والتي قد يؤدي تناقضها إلى تدمير المستقبل. (30)

5- **إن لدى الشباب إيمانا كاملا لتغيير**، وهو الأمر الذي يعد سمة أساسية في البنية الشبابية، والشواهد الدالة على ذلك عدة :

الأول: يتمثل في وجود ميل قوي لدى الشريحة الشبابية لتجاوز الواقع المحيط دائما بالنظر إلى مثال يتمسك به الشباب إلى تجاوز ما هو كائن إنطلاقا إلى ما ينبغي أن يكون، ومن هنا يصبح إيمان الشباب بالتغيير ظاهرة موضوعية ومطلوبة .

والشاهد الثاني: يشير إلى أن ما هو كائن هو ناقص من وجهة نظرهم، وقد يصبح النقص أكثر وضوحا حينما يعايش مع ذلك تفككا واضحا للسلطة التقليدية في المجتمع تحت وطأة التحديث ومن ثم تصبح البنية التقليدية غير ملائمة، ومن شأن ذلك أن يفرض الانتقال إلى بيئة جديدة . (31)

6- من خصائص الشباب أيضاً معالجة أزمة الهوية خلال هذه المرحلة، فمرحلة الشباب هي مرحلة انتقالية في عمر الإنسان، في الطفولة كانت له هويته، ومن هذه الهوية كانت علاقاته وتفاعلاته - الثابتة من حيث الشكل نسبيا - مع الآخرين . وفي مرحلة الرجولة سوف تكون له مكانته وأدواره الثابتة والمصاغة نظاميا بينما لا شيء ثابت في مرحلة الشباب، تحديد علاقاته مع الآخرين وأسلوب تفاعله ما زال موضوع حوار ليس مرفوضا أن يدخل عالم الكبار غير أن الاعتراف به لم يتم كذلك . ويظل الشباب خلال مرحلة الشباب في نضال على جبهات متعددة، يستهدف تعيين الحقوق والواجبات على كل جبهة واتجاه، ومن بين هذه الحقوق أن ييسر المجتمع له إشباع حاجاته الأساسية التي تعتبر عنصرا أساسياً في بنائه، وقد يتحقق الاعتراف ويقدم الإشباع، بحيث يساعد ذلك على المرور من أزمة عدم التبلور وقد لا يتحقق فتصبح الهوية أزمة تفرض مشكلات . (32)

7- أن هناك ثقافة شبابية تنتشر بين شريحة الشباب وخاصة شباب

الجامعة، وقد ساعد على خلق هذه الثقافة عناصر ذات طبيعة عالية منها تضخم الشريحة الشبابية في العالم، حيث نجد أن الهرم السكاني في كثير من المجتمعات النامية والمتقدمة يميل لصالح الشباب. هذا بالإضافة إلى فاعلية عنصر التكنولوجيا في بناء النظام العالمي ومن ثم في دعم التماسك والوحدة للشريحة الشبابية في هذا النظام من خلال وسائل الاتصال والمواصلات التي جعلت عالمنا عالما واحدا بل إننا نجد أن تكنولوجيا الاتصال خلقت إمكانية عالية لانتقال الأفكار والقيم من مجتمع لآخر، ومن شأن ذلك أن يجعل الشباب - بحكم قدرتهم على التجديد - أكثر قدرة على الاستيعاب والتواصل ومن ثم أكثر وعيا. (33)

8- من خصائص الشباب الميل إلى الانفتاح على ما هو خارج عن ذاته، قد يتخذ هذا الانفتاح التلقائية في التعامل، وبهذا يميل الشباب إلى أن يكونوا - بالقياس إلى الأطفال والراشدين على السواء، وبفضل الطاقات التي يفجرها فيهم النضج الجنسي والجسمي والعقلي - مندفعين وتلقائيين ومتفائلين ونظرا لنقص تجربتهم في الحياة، ولأنهم لم يرتبطوا بعد بالتزامات وعلاقات مقيدة، فإن نظرتهم تتميز بمثالية رومانسية، وربما ببراءة لا توجد بالدرجة نفسها عند الكبار وقد يتخذ هذا الانفتاح شكل حب الاستطلاع للأفراد أو للعالم الخارجي عنه في إطار ذلك فإنه نظرا لرغبتهم في اكتشاف العالم - حيث ما زال جزء منه على الأقل مجهولا لهم - ولإحساسهم بأن وسائل التنشئة الاجتماعية والنظام التعليمي بخاصة، تقدمه لهم في صور غير حقيقية أحيانا، فإنهم يميلون إلى أن يكونوا محبين للاستطلاع، ويحسبون بان طاقاتهم الهائلة لا تؤهلهم لفهم العالم فقط بل لتغييره أيضاً، وربما أحس بعضهم أن من مسؤولياتهم تحقيق ذلك. (34)

وقد يتخذ الانفتاح على العالم شكل الميل إلى المستقبل، ونظرا لأن الشباب لم يعيشوا في الماضي فليس عندهم ما يجعلهم يحنون إليه أو يعتزون به، ربما أن الحاضر ليس من صنعهم ولا يشاركون في إدارته فليس منه ما يدفعهم إلى التمسك به، فضلا عن الدفاع عنه، أما المستقبل فإنه بهم ولهم،

رضوا بذلك أم أبوا، فهو مفتوح غير متعين، ومن ثم منها مجال خصيب لأحلامهم وآمالهم وطموحاتهم، تصور لهم طاقاتهم البكر غير المجهدة أنهم قادرون على أن يصفون فيه المستحيل.[35]

9- ومن بين الخصائص الفريدة للشباب محاولة التخلص من كافة الضغوط وألوان القهر المتسلطة عليه من أجل تأكيد التعبير عن الذات، ونتيجة لهذه النزعة إلى الاستقلال والاعتماد على الذات، اتسم الشباب بأنه أكثر راديكالية وأقل رغبة في الامتثال للسلطة المفروضة عليه.[36]

10- أن الشباب هم أكثر فئات المجتمع تأثرا بنتائج التغيرات الاجتماعية السريعة، خصوصا من حيث العلاقة بين الأجيال، فهذه التغيرات تخلف تناقضا بين اتجاهات الأجيال المختلفة، فهي عادة ما تكمن وراء الصراعات بين جيل الشباب من جهة، وجيل الكبار من جهة أخرى، إذ أن الأخير غالبا ما ينزع إلى المحافظة على الأوضاع القائمة، ومن ثم يرفض ويعارض كل ما هو جديد، على حين يشجع الشباب النتائج المصاحبة للتغيرات الاجتماعية.[37]

فالشباب، مرحلة تساؤل واستفسار عادة ما تكون ذات طابع رومانسي، حين تسيطر المثاليات المطلقة على طريق تناول الشباب لمشكلات حياتهم، وعلى أسلوب تفكيرهم ومشاعرهم وذلك قبل أن تسمح مرحلة النضج بتوضيح الواقع بكل أبعاده الحقيقية، ولا يترك الشباب خلال هذه المرحلة أي تساؤل أو استفسار دون أن يجتهد في البحث عن إجابة شافية له.

خامساً: الشباب في المجتمعات المعاصرة

يكاد لا يختلف اثنان على أن الشباب يمثل رأس مال المجتمع ومصدر قوته وعزته من خلال ما يمتلكه من إمكانات وطاقات وقدرات على التفاعل والاندماج والمشاركة في قضايا المجتمع، وبما لهم من دور في عملية البناء والتغير والتجديد، فهم أول الشرائح الاجتماعية التي ترفع لواء التحديث والتطوير في السلوك والعمل وأول الفئات التي تنادي بإسقاط القيم التقليدية المعرقلة لنمو المجتمع وتقدمه، وإحلال قيم جديدة صاعدة تنسجم وروح

العصر وطبيعة المرحلة، ولا نبالغ إذا قلنا أن الشباب هم مصدر التغيير الثقافي والاجتماعي في المجتمع عامة وهذا يعود إلى نمط الإنتاج الاقتصادي العصري، فالمجتمع مجتمع عمل وإنتاج، بما يجعل الشباب يتخذ صورة قوة عمل أو قوة منتجة تكسبه الأهمية الاجتماعية المعروفة، وكأن المجتمع الحديث يميل إلى استهلاك فئة الشباب قبل غيرها ليمتص رحيق الحياة فيها.

ولقد شعر العالم كله بأهمية وحيوية دور الشباب بصفة خاصة في أعقاب ثورة أيار 1968 بفرنسا، حين رفع الشباب على جدران (السوربون) شعارا مؤداه (الثورة البرجوازية ثورة قانونية، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية، أما ثورتنا فهي ثورة ثقافية نفسية، والمتأمل لهذا الشعار يتضح له تنوع احتياجات الشباب كفئة رئيسية من فئات المجتمع، وما تعيشه هذه الفئة من ظروف نفسية تتسم بالقلق والإقدام حينا والرغبة في المشاركة والقدرة على الإنجاز أحياناً، فضلا عن حاجاتهم الماسة إلى تأكيد مكانتهم داخل بناء المجتمع وإدراكهم لكثير من القيم والاتجاهات الجديدة التي يرون ضرورة زرعها، ، لتحل محل النظام التقليدي القائم، ولقد بدت هذه الحركة ذات طابع شمولي، فقد كانت تضم جماهير الطلاب كطليعة قادرة على التعبير والحركة، إلا أن سرعان ما التحمت فئات أخرى من الشباب مع هذه الحركة وبالأخص شباب العمال، وأصبحت الشعارات تعبر عن مطالب واحتياجات ثورة الشباب في معظم بلدان هذا العالم. (38)

وهي الثورة التي هددت بالإطاحة بالنظم السائدة في هذه البلدان، والتي ارتدت في أحيان كثيرة إلى أشكال من التمرد عبرت عن نفسها من خلال رفضها للنظام العالمي القائم على الاستغلال واللا مساواة فقد كانت هذه الحركة من وجهة نظر (هربرت ماركيوز) - المنظر الفكري لها - تمثل ثورة جديدة على مجتمع البعد الواحد - مجتمع الوفرة - والذي يساهم في إنتاج إنسان مدجن أحادي البعد. (39)

وتعد فئة الشباب جزءا لا يتجزأ من التركيب الاجتماعي يتأثر بما يدور فيه من أحداث اجتماعية واقتصادية وسياسية وما يطرأ عليه من تغييرات في

مختلف جوانب الحياة وتتأثر تبعا لذلك أدوراهم وتتغير وضعيتهم، فوضعية الشباب في التركيب الاجتماعي وإمكانياتهم ومشكلاتهم تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة ومن مجتمع إلى آخر، بل تختلف داخل المجتمع الواحد في فترة زمنية واحدة. (40)

وهناك عدة اعتبارات ينبغي الاهتمام بها حينما نحدد مكانة الشباب في المجتمع العربي المعاصر، وتتلخص هذه الاعتبارات فيما يلي: (41)

1- التطور الذي طرأ على دور الشباب في الحياة الاقتصادية للمجتمع، وفرص التعليم المتاحة أمامهم، إذ أن من الملاحظ أن هناك علاقة بين الدور الاقتصادي للشباب وفرص التعليم وأيضاً هناك ارتباط واضح بين هذه العلاقة من جهة وبين ما يتمتعون به من قوة اجتماعية من جهة أخرى، ذلك أن اعتبار الشباب أو استبعادهم من المجال الاقتصادي، نتيجة للتعليم الرسمي يضعف من هذه القوة، ومع ذلك، فمن الضرورري ألا نقبل هذه المعادلة على صورتها هذه ببساطة وإنما يجب أن نضع في الحسبان تعاظم الدور المؤثر لجماهير الطلاب في المجتمع المعاصر بحيث أصبحوا يشكلون جماعة كبيرة ذات قوة ضاغطة.

2- أن الشباب في المجتمع يعبر عن تلك الفئة التي تتسم بأعلى درجة من النشاط والحيوية لما لها من خواص دينامية متفردة، غير أن الشباب عادة لا يدرك أن الوسط المحيط به ليس نتاج نشاطه فحسب وإنما هو نتاج أنشطة قامت بها وتحملت مسؤوليتها الأجيال السابقة، وقد تكون هذه الظاهرة هي المسؤولة عن هذه الصراعات والتناقضات بين الأساليب التقليدية والأساليب الجدية التي يسعى الشباب إلى توكيدها، وليس من شك أن مواجهة هذا الموقف لا تكون بالتحليل والتأمل فحسب وإنما عن طريق الممارسة العملية والمشاركة البناءة وإتاحة الفرص أمام الشباب لإقامة العلاقات الاجتماعية المنتجة والإيجابية.

3- ترجع أهمية الشباب بالنسبة للمجتمع إلى كونهم أكثر فئاته رغبة في التجديد وتطلعا إلى تقبل الحديث من الأفكار والتجارب، ولذلك فإنهم

يمثلون مصدرا أساسيا من مصادر التغير والتجديد من جانب النظام القائم دون تناقضات أو صراعات حادة.

4- إن الشباب في المجتمعات كافة يميلون إلى تطوير نسق ثقافي خاص بهم عبر عنهم مفهوم ثقافة الشباب أي تلك العناصر الثقافية التي انبثقت تاريخيا والتي تعبر في المحل الأول عن مصالح الشباب وحاجاتهم ورغبتهم في التغيير والتجديد ورفض كل ما هو تقليدي، وعلى المجتمع ألا يقف موقف العداء من هذا النسق الثقافي وإنما عليه مهمة دعم التكامل الثقافي العام دون أدنى تفرقة بين ثقافات الشباب وبين مختلف الثقافات السائدة في المجتمع.

سادساً: إشكالية الظاهرة الشبابية

تكاد تكون «إشكالية الشباب» إشكالية عالمية في العصر الحديث، ربما لم، تكن كذلك على مر التاريخ، إلا أن قلق الراشدين وجيل (الكبار) من مستقبل جيل الشباب لم يكن يوما خارج إطار البحث والاهتمام، حتى أن الجمعية العامة للأمم المتحدة دعت إلى اعتبار عام 1985 (سنة الشبيبة) وأوصت المجلس الاقتصادي بتوجيه الدعوة إلى حكومات العالم لبذل جهودها واهتماماتها في وضع دراسات واستراتيجيات لمعالجة مشكلات الشباب والعمل على زيادة مشاركتهم الإقليمية والدولية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والأسرية والتربوية.[42]

ولأن المشكلة جزء لا يتجزأ من حركة المجتمع العامة، والشباب مرحلة من المراحل النمو لا تنفصل عما سبقها ويليها أو يترتب عليها، فقد اختلف الباحثون في تحديد أسباب المشكلة، كل وفق زاوية النظر التي يرى من خلالها ليس إلى (المشكلة) فحسب، بل وإلى الإنسان والمجتمع عموما، فهي تارة مشكلة نفسية واجتماعية، وطورا، سياسية واقتصادية، وهي أيضاً كل ذلك معا.

والبحث في الظاهرة الشبابية يطرح على الباحث في مجال العلوم الاجتماعية عدة إشكاليات نظرية ومنهجية يمكن إبراز أهمها فيما يلي

1- إن الشباب في أي مجتمع، لا يشكلون شريحة أو فئة اجتماعية متجانسة سواء فيما يتعلق بمكوناتها أو بانتمائها الاجتماعي - الطبقي، أو بارتباطاتها الثقافية والأثنية. . . الخ، ومن ثم فإن البحث في هذه المسالة يطرح العديد من التساؤلات الإشكالية الأساسية، نذكر من بينها ما يلي: حينما نتحدث عن الشباب، فما هي الفئة المعينة بالتحديد، من هذا الحديث؟ هل نقصد الشباب الريفي أم الشباب الحضري؟ الإناث أم الذكور؟ المتعلمين أم الأميين؟ وشباب الأوساط الاجتماعية الميسورة والمحظوظة أم شباب الأوساط الاجتماعية الضعيفة التي تعاني من مشاكل التهميش والاستبعاد؟ . . . إلى غير ذلك من التساؤلات المماثلة.(43)

2- هناك مسألة أخرى من المفيد أن تتم الإشارة إليها في هذا الصدد، وهي التي تتعلق بإشكالية التحديد الدقيق للفئة العمرية التي ينسحب عليها مفهوم الشباب، فهل، نتحدث هنا عن فئة عمرية لا تحتمل أي جدال أو اختلاف في تحديدها مهما اختلفت النظرات والسياقات الاجتماعية المتباينة، أم أننا بصدد الحديث عن عدة شرائح تنتمي إلى فئات عمرية متعددة؟ . . . وكثيرة هي الدراسات الشبابية - سواء في المجتمعات الثالثية أو المتقدمة - التي واجهتها مشكلة الإجراءات العلمية لهذه المسألة، وإذا وجدنا بالفعل دراسات عديدة عمدت على حصر مرحلة الشباب في السن مابين (15-25) سنة فإننا نجد تحديدات أخرى مخالفة ومن بينها ذلك التحديد الشائع الذي يصنف ضمن فئة الشباب كل أولئك الذين لم يتجاوزوا بعد «سن الأربعين»، وعلى أي حال، فإننا حينما نريد تناول مسألة الشباب، لابد وأن تعترضنا مشكلات من هذا النوع.(44)

3- الإشكالية الثالثة تتعلق بطول الأمد المدرسي أو الجامعي في إطار أنظمة التعليم والتكوين في المجتمعات المعاصرة، ذلك أنه إذا كانت المجتمعات التقليدية - بحكم بساطة تركيباتها البنيوية ومستوى تطور وتعقد الأوضاع والأدوار الاجتماعية فيها - تعمل على تأهيل الأفراد ودمجهم في الحياة الاجتماعية العامة في سن مبكرة نسبياً، فإن المجتمعات المعاصرة،

نظراً لتطورها وتعقد بنيتها ومجالاتها، فقد تطلبت نوعاً من التعليم والتأهيل والتكوين يتناسب مع درجة التطور هذه، وهو أمر قد استتبع بالنتيجة طول مدة هذا التعليم، واستمراره في بعض الحالات - ولاسيما في المراحل الجامعية التخصصية العليا - إلى ما بعد سن الأربعين، وقد أكدت هذا المعطى التربوي والسوسيولوجي الهام مجموعة لا بأس بها مَن الدراسات التي تناولت مشاكل الزواج والعمل، وبطالة المتعلمين، وصعوبات الاندماج الاجتماعي للشباب سواء تعلق ذلك بمجتمعات العالم الثالث أو بالمجتمعات الغربية نفسها.

مع اختلاف نوعي، بالطبع، في حدة هذه المشكلات وأنماط تمظهرها حسب القضاء الاجتماعي المعني، وتأسيساً على ذلك يبرز تساؤل أساسي: من أي فئة عمرية نستطيع أن نصنف أولئك الذين تجاوزوا سن الثلاثين (مثلاً) والذين ما زال بعضهم في طور التكوين والتأهيل، وما زال بعضهم الآخر لم يندمج في الحياة الاجتماعية العامة عبر قنوات الزواج والعمل وتحمل المسؤولية الفردية أو الجماعية، بل أن البعض من هؤلاء لا يزال يشكل - لظروف اقتصادية بالأساس - عبئاً مكلفاً بالنسبة لكثير من الأسر... (45)

4- الإشكالية الرابعة والتي تتقاطع مع كل ما سبق عرضه، ألا وهي أن أغلب الدراسات التي تناولت مشاكل الشباب - في العالم الثالث كما في سورية - قد ركزت بالأساس، على الشباب المتعلم، سواء في المستوى الجامعي أو ما دون هذا المستوى، وأهملت مشاكل الشباب غير المتعلم، أو الشباب المنتج في مختلف القطاعات الزراعية والصناعية وغيرها وبذلك غيبت عن الأنظار المعرفة الواقعية والشاملة لقطاع عريض من الشباب بل وفي المجتمع بشكل عام.

والبحث السوسيولوجي الحقيقي في إشكالية الظاهرة الشبابية في المجتمع العربي، هو في تقديرنا بحث في الأسس الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المؤثرة في التكوين النفسي والثقافي للشباب العربي، إنه البحث

الذي يستمد النظرية من مضامين الدراسات التاريخية والاقتصادية والسوسيولوجية التي اهتمت بواقع المجتمع العربي، فكثيرة هي الدراسات التي يمكن للباحث السوسيولوجي أن يوظف بعض نتائجها في هذا النطاق، وهذه أمثلة توضيحية عن أهمية بعض نماذجها في تحديد خصائص الواقع العربي ومكوناته فهناك من ربط أزمة الواقع العربي وتخلف الإنسان العربي، وعلى الخصوص من حيث الممارسات السياسية بالخصائص الزراعية المميزة لهذا الأخير، فمن رأي (نديم البيطار) أن أسباب أزمة المجتمع العربي وعوامل تخلفه تتمثل في **خمسة مقومات رئيسية هي**: 1-الشعور بالعجز عن السيطرة على الطبيعة والتاريخ، 2- رد التحولات والظواهر إلى قوى ذاتية لا إلى قوانين طبيعية وتاريخية، 3- انعدام التكنولوجيا والاعتماد على الوسائل البدائية، 4- الاعتماد على الظواهر المحسوسة في الطبيعة لا على العلاقات العلمية، 5- تحكم التقليد والتفكير الخرافي في السلوك.[46]

ورغم ما لهذا التحديد من أهمية بالغة في دراسة تخلف المجتمع العربي بشكل عام، والشباب العربي بشكل خاص، فالملاحظ أنه لا يغطي مختلف جوانب هذه المسألة ولا يقدم تفسيرا دقيقا ومقنعا عنها.

وهناك من ربط أزمة الإنسان العربي، بما في ذلك الشباب العربي، بالبنية المتخلفة للواقع العربي، وهي بنية تتمثل عواملها وأسبابها في جملة المكونات الاجتماعية والسياسية والثقافية، أو إذا أردنا الدقة، فإن الباحث (مصطفى حجازي) الذي يمثل هذا الاتجاه، يحدد أسباب تخلف هذه البنية في **خصائص أساسية** هي: اعتباط الطبيعة واعتباط التسلط الذي يتحكم بإنسان هذا العالم على شكل قهر صريح أو ضمني فمن خلال هذا الاعتباط يتخذ الأمر طابع علاقة جامدة تذهب في اتجاه واحد هو التسلط - القهر - وهو نموذج يمكن تعميمه، حسب (حجازي) على جميع العلاقات والسلوكيات حتى الذهنية منها، وبالتالي، فإذا كانت ذهنية الإنسان العربي تتصف بالجمود والقطيعة والحسية، وتفتقر إلى التجريد والجدلية والمرونة،

وإذا كانت انفعاليته مفرطة يعوزها الضبط المنطقي والتحليل العقلاني فما ذلك إلا نتيجة استعمال العلاقة ذات الاتجاه الواحد وبشكل جامد، وهي علاقة التسلط والرضوخ، والواقع أن هذا التسلط وما يرافقه من اعتباط طبيعي هو الذي يستحكم في نظر (حجازي) بالذهن العربي مفقدا إياه مرونته ودافعاً إياه إلى حيز الانفعال والخرافة والسيطرة السحرية على ظواهر الحياة. وإن موقف الإنسان العربي من وضعية القهر هذه تجعله بين الرضوخ المستسلم مع ما يرافقه من عقد نقص واستكانة وفقدان للثقة بالنفس والجماعة، وبين العدوانية المفرطة التي تتخذ شكل علاقات اضطهادية، تفرز مناخا عاما من العنف العلائقي، وبين التمرد المتفجر فرديا وبشكل عابر، ، أو جماعيا بشكل يهز بنية المجتمع وقد ينتهي بتغييرها. (47)

وهناك من ربط أزمة الإنسان العربي بالطابع الخرافي للعقل، وذلك أن الأوساط الجماهيرية والطبقات الدنيا التي تشكل الأغلبية العظمى لسكان الوطن العربي، لا تزال، في نظر كل من (ابراهيم بدران وسلوى خماش) عرضة للإثارة بالخرافات، وخاصة ما يتعلق منها بالجن والسحر والأولياء والكرامات، وبالتالي فإن خطورة هذه المسألة تتجلى في الانعكاسات السلبية التي تصاحب أساليب التربيةوالتنشئة الاجتماعية المتبعة داخل الأسرة العربية، وهي أساليب كلها دلائل على التخويف والترهيب والإحباط، والغريب هو أن هذه الأساليب المقيدة للنضج الجسماني والاندماج الاجتماعي والتفتح الذهني والعاطفي، غالبا ما تبقى عالقةبسلوكيات الطفل حتى بعد انخراطه في المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالمدرسة والمجتمع.

إنها تشكل علاقات بارزة في تركيب شخصيته ونموها حتى في المراحل الحياتية اللاحقة، وفي مقدمتها مرحلة المراهقة والشباب، وإن الانفصال بين كل من المجتمع والبيت والمدرسة، وطبيعة التعليم في الوطن العربي والمفاهيم الثقافية السائدة، عادة لا تتيح للشاب أو الشابة فرصة التخلص مما علق في الذهن من خرافات الطفولة. وهذا ما يؤدي به إلى أن

يرى نفسه وحيدا ضعيفا لا يثق في الآخرين ويخافهم، ويخاف على نفسه من المخاطر غير المرئية، والحقيقة أن هذا العجز الذي يمثل السمة الغالبة في سلوك الإنسان العربي بصبغة عامة والشباب العربي بصبغة خاصة، أو أصوله المادية والذهنية والنفسية، وهي أصول ترجع جذورها إلى الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع العربي، وإن ما تنفرد به هذه الظروف من عوامل التخلف والكبت والخرافة، هي التي تشكل في نظر (بدران وخماش) النفسية الإستنجادية عند المواطن، هذه الاستنجادية التي نراها متمثلة في العلاقات الفردية والاجتماعية، ابتداء من الطفل الذي يستجدي والده، وانتهاء بالشاب المتعلم الذي يستجدي الأستاذ والإدارة وحتى الأسرة. [48]

وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية قد أوضحت مشكلات الشباب ضمن الخطة الشاملة للثقافة العربية[49]. في الجوانب التالية:

1- **مشكلات نفسية**: كالشعور بالضياع، والغربة، والإحباط بسبب التفاعلات السياسية والايديولوجية المتباينة، وضغط الأسرة ورفضها، والمبالغة في الإحساس القطري بسبب قهر النظم، والإهمال في التوجه المهني، وفي تعهد المواهب والهدر في الطاقات.

2- **مشكلات اقتصادية**: تتعلق بالعمل والسكن، وضمان المستقبل، وقلة الإنتاجية والهرب من الريف والحرمان من آمال الغد، بالإضافة إلى التبعية وسيادة الثقافة الاستهلاكية.

3- **مشكلات اخلاقية - اجتماعية**: ناجمة عن التناقض القيمي بينهم وبين جيل الآباء، وبينهم وبين السلطة، ناجمة عن التطرف الديني والاجتماعي وعن عدم استغلال أوقات الفراغ، وقلة أشكال الترويح، ومشكلات الزواج وتفكيك الأسرة. ومشكلات الانحراف والجنوح والتدخين، والكحول والمخدرات بوصفها رد فعل على المشكلات المختلفة.

4- **مشكلات سياسية**: تتعلق بالنظم القائمة والحريات المهدورة وبالتجزئة الإقليمية والقهر . . . الخ.

سابعاً: الشباب وإشكالية الاندماج الاجتماعي

إن مسألة إدماج الشباب في مفهومه السيولوجي الشمولي ضمن السياق الاجتماعي العام وتلبية مطالبه وحاجاته الروحية والثقافية والمهنية والقيمية تشكل الهم الشاغل لكل الأنظمة الاجتماعية وللشباب نفسه في آن واحد. وفي المشاكل الآنفة والأوضاع المأزومة التي يعيشها الشباب بعض من مظاهر التعبير عن فشل تلك الأنظمة في إيجاد الحلول الملائمة لتلك المشاكل والمتجاوزة لتلك الأوضاع المأزمية، فظل هؤلاء الشباب مستبعدين، يستهلكون مشاكلهم ومعاناتهم الوجودية، ويراكمونها وقوداً قابلاً للاشتعال والانفجار في أي لحظة مواتية. (50)

فقد كانت المجتمعات التقليدية - بنمط تربيتها العفوية وغير المُمأسسة في أغلبها والمتمحورة أساساً حول الأسرة كمؤسسة اجتماعية مركزية - لا تجد صعوبات كبيرة في تأهيل الشباب، واحتوائهم، وإدماجهم في النسق الاجتماعي عبر المؤسسة الزوجية، والإنخراط المبكر في العمل الإنتاجي، وتقلد بعض المسؤوليات الحياتية، أما في المجتمعات المعاصرة، فنظراً لتعقد بنيانها ونتيجة ما عرفته من تطور حضاري كبير وتراكم في المعارف والخبرات والتجارب. . . فقد ارتفعت فيها درجة التخصص الوظيفي - أي التخصص في مختلف الأدوار والوظائف والميادين - وكان من مستتبعات هذا الوضع النمو المتزايد لما يسمى بالمجتمع المدني، وظهور مؤسسات اجتماعية جديدة كالمدارس والجامعات ووسائل الإعلام والاتصال والأحزاب والنقابات والجمعيات. . الخ. (51)

وفي هذا السياق المجتمعي الجديد أصبح الاهتمام بالشباب وبشؤون تعليمه وتكوينه وتأهيله للاندماج الاجتماعي مسألة حاسمة. فمن الناحية الاقتصادية، وفي إطار التوجهات الفلسفية العامة لمجتمعات الوفرة الربحية والاستهلاك، لم يعد ينظر إلى الشباب كركام بشري يقع استدماجه بشكل عفوي في دورة اقتصادية بسيطة، كما كان الأمر بالنسبة للمجتمعات التقليدية، بل أصبح ينظر إليه كرأسمال بشري يجب استثماره بشكل عقلاني مخطط تلافياً لأي هدر أو ضياع مجاني.

أما في الأقطار العربية ومنها القطر السوري، ورغم مرور عدة عقود من الزمن على الاستقلال السياسي فإننا نجد أنها مهددة بالتبعية الاقتصادية التي تؤثر بشكل من الأشكال على ثقافة المجتمعات العربية وعلى الممارسات الثقافية لشبابها.

ويعد غياب مشاريع التنمية الاقتصادية والمخططات العلمية التي تعنى بهموم الشباب وتطلعاتهم المستقبلية، عاملاً مساعداً على طمس وضياع طاقات وكفاءات هذه الفئة البالغة الأهمية.

وتشكل البطالة إحدى المظاهر الكبرى لتهميش الشباب، فبعد أن كانت مشكلة البطالة في سورية وحتى أواخر السبعينات لا تمس سوى بعض عناصر الشباب غير المتعلم وغير المؤهل، فقد أصبحت هذه المشكلة تطال منذ الثمانينات، عدداً هائلاً من الشرائح الشابة من مختلف الأوساط وخاصة فئة الشباب الجامعي، ففي دراسة ميدانية قامت بها الدكتورة (ليلى داوود) في قسم علم الاجتماع بجامعة دمشق على فئة الشباب من الجنسين في مدينة دمشق، تبين أن الخوف من عدم توفر فرص العمل بعد التخرج من أبرز مشكلات الطلاب الجامعيين.(52)

وفي دراسة ميدانية قام بها الدكتور (عدنان مسلم) حول الشباب والتغير الاجتماعي في جامعة دمشق، تبين أن المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع السوري من وجهة نظر الشباب قلة الدخل بنسبة (27%) والعمل إلى جانب الدراسة بنسبة (40,4) وارتفاع الأسعار بنسبة (16,7%) وعدم وجود فرص عمل بنسبة (14%) ونسبة (10%) عجزوا عن تحديد أهم المشكلات الاقتصادية (لا يستطيع التحديد). (53)

وتبين أيضاً من هذه الدراسة أن (10%) من العينة المبحوثة قالت بوجود فرص عمل متعددة في سورية بينما كانت نسبة (66,2) أكدت على وجود فرص محددة ونسبة (22%) قالت بانعدام هذه الفرص تماماً. (54)

وإذا كان بمقدور الطبقات الميسورة أن تتجاوز مشكلة البطالة، فإن العديد من شباب الطبقات المهشمة اجتماعيا قد ظلوا محاصرين بمشكلة

البطالة وعواقبها ومستتبعاتها السلبية بل وصلت إلى الشباب الجامعي، وقد أدى هذا إلى تبخيس قيم العلم والتعليم والمعرفة والحط من المكانة الاجتماعية للمدرسة ودورها في الحراك الاجتماعي كما ظل سائدا في خلال العقود التي تلت الاستقلال ومن بين أهم عوامل تهميش الشباب على المستوى الثقافي، غياب سياسة ثقافية واعية ومتفهمة لهموم الشباب واهتماماته وتطلعاته وأزماته القيمية والفكرية والإيديولوجية والحضارية، والتي من المفروض أن تعمل على تحسيس الشباب بمكانته ودوره الريادي، وجعله من الناحية الثقافية والإيديولوجية أكثر قدرة على المشاركة الإيجابية وأكثر رعيا بأوضاعه وبواجباته ومسؤولياته وبواقعه الاجتماعي المعيشي.

فالتناقض بين الثقافة التي تروجها المؤسسة المدرسية عبر المقررات الدراسية وأشكال النماذج القيمية والسلوكية وبين ما تروجه مختلف مؤسسات ومجالات المجتمع المدني كالأسرة والشارع . . . الخ من قيم مغايرة، بالإضافة إلى ما تنقله وسائل الإعلام المحلية والعالمية من رموز ثقافية وحضارية غربية ساحرة مثل نمط العيش وأساليب الاستهلاك . . . الخ، وهذا ما يدفع باتجاه بقاء مؤسساتنا التربوية والثقافية المختلفة بعيدة عن تحقيق ما ينتظر منها من أهداف تتعلق برعاية الشباب وتوجيهه وتأطيره ثقافيا واجتماعيا.[55]

وبفعل هذه التحولات الجديدة فقد أسهمت في توسيع الهوة بين المكونات الاجتماعية والمحلية والممارسات الثقافية للشباب، فالأسرة التي تعد أول مؤسسة اجتماعية ينشأ فيها الشباب وينهل من تقاليدها الاجتماعية وتعاليمها الثقافية، أضحت تتعرض في السنوات الأخيرة لعدد كبير من التغيرات التي تحدد في ثلاثة مظاهر :[56]

1- أولها أن الأسرة لم تعد تمثل تلك المؤسسة الشمولية ذات الوظائف المتعددة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والتربوية، بل إن دورها الحالي أصبح محدوداً بفعل ظهور مؤسسات أخرى تنافسها في هذا الدور.

2- أن هذه الأسرة التي كانت فيما سبق تشكل المؤسسة المركزية أصبحت اليوم مؤسسة محيطية تتأثر بالظروف الاقتصادية والسياسية للمجتمع، وتعاني من أزمة حادة في مسؤولياتها ووظائفها.

3- أن الأسرة كانت في السابق تحظى بنوع من الاستقلال الذاتي، أضحت مفتوحة على مصراعيها للتأثيرات الخارجية ولممارساتها الثقافية.

تبعا لهذا التحديد، يبدو أن الأسرة السورية المدينية التي تشكل بدون منازع الصورة المصغرة والحسية لمكونات المجتمع وتقاليده المختلفة، أضحت تتعرض لتغيرات عميقة في بنيانها ووظائفها الأساسية. فرغم كونها لا تزال تلعب الدور الريادي في تحمل مصاريف تعليم الشباب وتوجيههم، إلا أن هذا لا ينفي مطلقا الأبعاد السلبية لوظيفتها، والتي تختلف باختلاف الأوضاع الاقتصادية والثقافية، وهذه مسألة نتائج أغلب الأبحاث والدراسات التي تمت في هذا المجال فعلاقات الشباب العربي - ومنهم الشباب السوري - بأوساطهم الأسروية هي على العموم علاقات وصاية واضطهاد وإحباط، يتعذر فيها تحقيق الإشباع العاطفي والتوازن النفسي والاستقلال الذاتي.(57)

فالآباء يعتمدون على مؤشرات ومعايير غير دقيقة، ولا كافية مرتبطة بالماضي الذي عاشوه بعيداً عن الحاضر المتغير الذي يعيشه الجيل الصاعد، كالتحصيل الدراسي ونوع العمل، والنجاح المادي «فتتجه التربية بالآباء لا إلى تحقيق ملكاتهم الخاصة وصقل مواهبهم وإرضاء طموحاتهم، ولكن إلى صبهم في قوالب بالشكل الذي يرضى عنه الكبار ويقبلونه». (58)

يقول أحد الآباء: «إننا نحرم أولادنا من مواهبهم، ونحد من مقدرتهم، لأننا نسعى بغية جعلهم على صورتنا ومثالنا، كما فعل آباؤنا فجعلونا على صورتهم ومثالهم». (59)

فهذه الطريقة تخلق الصراع بين الأبناء والآباء فيقول أحدهم عن والده: «كان يرسم لي خطة الحياة، فأنفذها بلا أدنى مقاومة... أراد أن أكون الأول دائماً، فخرجت من كل امتحان وترتيبي الأول... أراد أن

أمتنع عن اللعب والمرح والضحك لأسترجل، فأطعت ولم أعد ألعب أو أمرح أو أضحك... أتاني بمدرسين في شتى العلوم فأسلمت لهم قيادتي، وقمت بأداء واجباتي كاملة. كان يفكر لي، ويتصرف لي، وينظر لي. فأقبل أفكاره وتصرفاته ونظراته بلا أدنى مناقشة. وحتى ثيابي كانت له فيها الكلمة الأولى والأخيرة... فقد جردني من كل معنى للفردية، وجعلني جزءاً لا يتجزأ منه، وحركني طوع إرداته مثلما يفعل بيده أو رجله أو رأسه أو لسانه»(60).

والحقيقة أن الشاب الذي ينشأ في مجتمع يحفل بكل هذه التناقضات لا بد من أن يبدو شاباً متخبط المفاهيم والأفكار، ومتذبذب التناقضات والتصرفات، تتحكم في ممارساته الثقافية ثنائيات متباينة المضامين والأهداف، تتراوح بين الخرافية والعلمانية، بين الأصالة والمعاصرة، بين الانغلاق والانفتاح... الخ، فتارة تجده يبدي استياءه المطلق تجاه الأوضاع الثقافية السائدة، حيث ينتقد مضامينها وأنماطها، ويرفض مظاهر استلابها واغترابها، وتارة أخرى نلحظه يعبر عن استسلامه ورضاه عن هذه الأوضاع، حيث يقبلها كما هي ولا يعير أي اهتمام لسبل تجاوز واقعه الثقافي المأزوم. وفي اعتقادنا أن هذا التذبذب بين الرفض والاستسلام هو الذي يعزز مظاهر اللا تجانس الفكري واليأس الثقافي التي يتخبط فيها الشباب العربي وتنعكس سلباً على ممارسته الثقافية.(61)

ومن المظاهر البارزة لممارسة الشباب لثقافتهم، التردد بين الميل إلى التماثل والاندماج الثقافيين، وبين الرغبة في التمايز والاختلاف الثقافيين، فهناك من جهة أولى ميل هؤلاء إلى تجاوز الماضي وتخطي واقعه المأزوم عن طريق الاشتراك مع الآخر (الأجنبي) في حضارته وثقافته ولغته ونمط عيشه، وهناك من جهة أخرى رغبة هؤلاء في التشبث بالماضي وأصالته والدفاع عن الهوية الثقافية عن طريق التمايز والاختلاف عن الآخر وعن مقوماته الحضارية والاجتماعية والثقافية.(62)

بالإضافة إلى التردد بين التفاؤل والتشاؤم، بين الأمل واليأس، بين

التروع إلى التغيير والاستسلام للأمر الواقع، نجد تطلعاتهم الثقافية مطبوعة بالتذبذب بين الانفتاح والانغلاق، بين التماثل والاختلاف، بين التسلح بالمعاصرة والتشبث بالأصالة.

والواقع أن تطلعات من هذا القبيل لدليل واضح على التباس الهوية الثقافية وضياعها بين واقع الذات المرفوض وواقع الآخر البعيد المنال. [63]

أما **من الناحية التربوية**، فرغم الإصلاحات المتتالية في الأنظمة التعليمية الهادفة إلى تحسين وسائلها ومسالكها، لا تزال تشكو من نواقص وقصورات كثيرة، فبرامجها التربوية تبدو غير ملائمة، إن لم نقل متجاوزة، وذلك بفعل جمودها وفشلها في تحقيق رغبات الشباب وتطلعاتهم المعرفية والثقافية والمهنية، فنتيجة افتقارها إلى المعدات والوسائل التربوية اللازمة، وبفعل البطالة التي تنتظر خريجيها، تجد المدارس والمعاهد والجامعات المطبقة لهذه الأنظمة تتخبط في مشاكل كلها تعبير وتجسيد لمحدودية وظائفها في مجال تربية الشباب وتثقيفهم وتأهيلهم لميادين العمل والإنتاج. [64]

بالإضافة إلى ما سبق، هناك مسألة ازدواجية التربية، إذ أن الأنظمة التعليمية تتبنى النص المكتوب، ففي هذه الثقافة يستوعب الفرد المكتوب، كما يستوعب الطفل في الكتاب نصاً مقروءاً (مسموعاً) تمت قراءته فيردده كما يسمعه، أي دون أن يقرأه فعلاً، دون أن يفسر معانيه، بهذا يتحول القارىء من متفهم للنص ومعانية إلى مستمع يردده وينقله دون أن يستوعبه، هكذا تلغي الثقافة الأبوية عملية القراءة ومشاركة القارىء في صناعة المعنى، فيصبح كل نص بالنسبة إليه نصاً مُمْلىً من فوق لا سلطة له إزاءه. [65]

فالطالب يردد ما حفظه من ايات القرآن في دروس الديانة، وفي الوقت نفسه يردد ما حفظه في درس العلوم دون نقد، إنما عبر حفظ آلي ميكانيكي وقد سأل الدكتور صادق جلال العظم طلابه في قسم الفلسفة عن هذا التناقض، ماذا يفعلون، عندما يواجهون مثل ذلك؟ (كان الرد أنها تزعجهم بصورة خفية، ولكن من وجهة نظر عملية كان عليهم أن يرددوا لأستاذ الديانة المعلومات التي تلقوها منه، وأن يرددوا لأستاذ العلوم الآراء

التي درسهم إياها وإلا لما نجحوا في الإمتحان، أما بالنسبة للتفكير الجديد بهذه التناقضات والربط بين هذه المعلومات والآراء فلم تكن مسألة واردة بالنسبة إليهم». (66)

من هنا يصبح اختراق التربية الحديثة لجدار هذه العوائق الثقافية مهمة بالغة الصعوبة والتعقيد، ذلك أنه من زاوية منظور سوسيولوجي، تعد البنيات الفوقية عموماً في أي مجتمع والتي تتعلق بالقيم والعقليات والاتجاهات . . . أي بالثقافة بالمفهوم الشمولي السالف الذكر، أبطأ تغيراً وأقدر على مقاومة العناصر الجديدة من البنيات التحتية التي ترتبط بالجوانب المادية الملموسة في الحياة الاجتماعية: مثل أساليب وأدوات الإنتاج ونماذج السلوك . . . وينتج ذلك عن كون عناصر الثقافة، نظراً لتجذرها في ثنايا النسيج الاجتماعي، تمتلك من الآليات التي تعيد إنتاجها ما يجعلها قادرة على الاستمرار والتجدد الذاتي والمقاومة العنيفة أحياناً لكل ما يهدد بقاءها وكينونتها. (67)

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد أنه بالرغم من انتشار التعليم في الوطن العربي، فإنه لم يأت بالنتائج المرجوة منه في تغيير ذهنية المواطن العربي بما يتطلبه التقدم الاجتماعي الحقيقي فهناك شعور كما يقول الدكتور مصطفى حجازي: (بأن الخرافة والتقليد لا زالا يعششان في نفسية الإنسان العربي الحائز على درجات جامعية، توثر على ممارسته ونظرته إلى الأمور المصيرية على وجه الخصوص.

أما في مجال العمل السياسي فهناك أيضاً تهميش مضاعف للشباب، وعلة مختلف المستويات والأصعدة، وهذه العملية لا يمكن فصلها - في مجتمعاتنا العربية - عن مختلف البنى والهيكليات الاجتماعية القائمة، والتي لا تزال تتسم، في الغالب بهيمنة العقلية الأبوية على مجمل العلاقات، والتنظيمات والمؤسسات، والأجهزة المكونة للنسيج المجتمعي العام، مثل: العائلة، والمدرسة، والمؤسسة الإدارية. . . الخ ولذا فإن بعض التحليلات السوسيولوجية المعاصرة ترى أن المجتمعات العربية لم تُنْتِجْ - عبر مسيرتها منذ عهود الانحطاط إلى الآن - مجتمعاً حديثاً أو عصرياً،

سواء بالمفهوم الماركسي للحداثة: (ثورة تغييرية جذرية في أساليب وعلاقات الإنتاج في إطار مجتمع رأسمالي حديث)، أو بالمفهوم الفيبري: (عقلنة وترشيد وتحديث العلاقات التنظيمية والإنتاجية في رطار مجتمع رأسمالي حديث)، بل إن سيرورة التحديث لم تنتج في المجتمعات المعنية - حسب تعبير د. (هشام شرابي) سوى أبوية مستحدثة أفسحت المجال لترسيخ جذور التبعية والتخلف أكثر مما ساهمت في تحقيق التنمية والحداثة.[68]

ولعل في هذه العوامل مجتمعة ما يفسر الخجولة للشباب في مضمار العمل السياسي، ففي سورية لم تستطيع منظمة اتحاد شبيبة الثورة أن تستوعب أكثر من 31% من عدد الشباب الذي يقدر بحوالي 4 ملايين شاب، وبالتالي لا يزال الشباب مشتتاً.[69]

وهذه المعطيات تؤكد على أن المجتمعات العربية عامة بحاجة إلى بلورة «ثقافة سياسية جديدة» تقطع مع «العقلية العشائرية والقبلية منها والمستحدثة» وتكرس أساليب جديدة في التنظيم والهيكلة وعقلنة المشاركة الإيجابية الفاعلة في مختلف المجالات الاجتماعية باتجاه بناء استراتيجية عملية لتحقيق عملية الإدماج وتوظيف الطاقات الشابة لتدعيم الإنماء السياسي والاجتماعي المتكامل.[70]

خاتمــة

نلحظ من خلال عرض التحولات الاقتصادية الاجتماعية الثقافية في المجتمع السوري المعاصر، اتجاه المجتمع السوري باتجاه الحداثة من خلال محاولة الاستفادة من تقدم العلوم المعرفية والتقنية، بالإضافة إلى المشاركة الإيجابية للدولة في حياة الجماعة والأفراد من حيث توفير الخدمات والمرافق العامة، ومحاولة تعميمها بالتساوي بين جميع المواطنين، وهكذا فقد انتقل عدد من الوظائف التقليدية للنظم الاجتماعية إلى مؤسسات الدولة، وحدوث تحولات عميقة في طبيعة العلاقات وأنماط السلوك بين الأفراد وخاصة لدى الجيل الحالي - الشباب - مما أحدث تبايناً ثقافياً بين الجيل الحالي - الشباب - وجيل الكبار - الآباء -.

الهوامش والمراجع

(1): ابن منظور، **لسان العرب**، الجزء الأول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1993، ص648

(2): ابن منظور الثعالبي، **فقه اللغة وسر العربية**، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 141- 143

(3):Unesco and its Program in Partenrship with Youth, Paeis, 1969. P8

(4): علي ليلة وآخرون، **الشباب القطري: اهتماماته وقضاياه**، جامعة قطر، مركز الوثائق والدراسات الدوحة 1991، ص7-8

(5): محمد سعود قظام السرحان، **فن التعامل مع الشباب**، ط1، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان 1986، ص12.

(6): United Nation, Educational Organization, Paris. 1981 PP, 27-28.

(7): محمود سعود قظام السرحان، **الصراع القيمي لدى الشباب العربي: حالة الأردن**، وزارة الثقافة، عمان 1994، ص19.

(8): المرجع السابق، ص18-19.

(9): سمير صارم، **الشباب والتنمية في سوريا**، مؤسسة علا للصحافة، دمشق 1997، ص180.

(10): علي ليلة، **العالم الثالث: قضايا ومشكلات**، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1987، ص451.

(11): علي ليلة وآخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص8.

(12): محمود سعود قظام، **الصراع القيمي لدى الشباب العربي**، المرجع السابق، ص19.

(13): محمد علي محمد، **الشباب العربي والتغير الاجتماعي**، دار النهضة العربية، بيروت 1985، ص18.

(14):.Unitid Nation, Educational and Culturea Organization, Paris, 1981 PP62.

(15): Milson, F, Youth in Chaging Society, Routlodge and Kegan Paul, Lonaon 1978, P14.

(16) : علي ليلة وأخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص9-10

(17) : محمود سعود القظام، **الصراع القيمي لدى الشباب العربي**، مرجع سابق، ص20.

(18) : علي ليلة وأخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص9.

(19) : المرجع السابق، ص9.

(20) : عزت حجازي، **الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها**، عالم المعرفة، ط6، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص35.

(21) : علي ليلة، **ألعالم الثالث، قضايا ومشكلات**، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1987، ص453.

(22) : علي ليلة، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص12-13.

(23) : المرجع السابق، ص13.

(24) : علي ليلة، **العالم الثالث، قضايا ومشكلات**، مرجع سابق، ص153.

(25) : المرجع السابق، ص453.

(26) : المرجع السابق، ص454.

(27) : أديب خضور، **الصحافة والشبيبة**، منشورات الشبيبة، دمشق 1978، ص29.

(28): علي ليلة وأخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص15.

(29): K. Keniston, Youth and Dissent; The Rise of New Oppositio, Harcourt Brace New York 1971, P8.

(30): علي ليلة وآخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص16.

(31) : المرجع السابق، ص19.

(32): Aries, Philip. Centuries of Childhood, Leans by R. Baldick, Vintoge Newyok, 1968, P. 73.

(33) : علي ليلة وآخرون، **الشباب القطري**، مرجع سابق، ص19-20

(34) : عزت حجازي، **الشباب العربي**، مرجع سابق، ص45.

(35): المرجع السابق، ص46.

(36): Hall. S. and Tony Gefferson. (eds) Resistande Through Rituals, Youth Subcultures in post War Britain, London, 1976, P22.

(37): محمد علي محمد، **الشباب والتغير الاجتماعي**، مرجع سابق، ص59.

(38): المرجع سابق، ص22-23.

(39): هربرت ماركيوز، **نحو ثورة جديدة**، ترجمة عبد اللطيف شرارة، ط1، دار العودة، بيروت1971، ص19.

(40): أحمد سالم الأحمر، **تحليل اجتماعي لمشكلات الشباب في مجتمع متغير**، مجلة الفكر العربي، العدد 19، طرابلس - ليبيا، 1981، ص-157 156.

(41): محمد علي محمد، **الشباب والتغير الاجتماعي**، مرجع سابق، ص28-32.

(42): طلال عتريس، **الشباب العربي: أزمة الدور والتباس المفهوم**، مجلة شؤون عربية، العدد77، مصر القاهرة 1994، ص185.

(43): مصطفى محسن، **المسألة الشبابية وإشكالية التنمية**، مجلة دراسات عربية، العدد (5-6) بيروت 1996، ص34.

(44): الغالي أخر شاو، **المنظور السيكولوجي لأزمة الشباب العربي**، مجلة الوحدة، العدد 49، كانون الأول، الرباط، 1987، ص47-55.

(45): مصطفى محسن، **المسألة الشبابية وإشكالية التنمية**، مجلة دراسات عربية، العدد 6 آذار - نيسان، بيروت 1996، ص35.

(46): نديم البيطار، **الأسباب البعيدة لظاهرة التخلف السياسي**، مجلة دراسات عربية، العدد (10) السنة العاشرة، بيروت 1974

(47): مصطفى حجازي، **سيكولوجية الإنسان المقهور**، معهد الإنماء العربي، بيروت 1989، ص238.

(48): ابراهيم بدران، سلوى خماش، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٣ و ص٢٠٧.

(49) : جامعة الدول العربية - المنظمة العربية للتنمية والثقافة والعلوم : الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، القاهرة ١٩٨٦، ص١٢٧ .

(50) : مصطفى محسن، المسألة الشبابية وإشكالية التنمية، مجلة دراسات عربية العدد (٥-٦)، آذار - نيسان، ١٩٩٦، ص٣٨.

(51) : المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦

(52) : ليلى داوود، منطلقات بحث قضايا الشباب في الوطن العربي، مجلة الفكر العربي، العدد ٤٧، آب ١٩٨٧، ص١٦٤ .

(53) : عدنان مسلم، الشباب والتغير الاجتماعي البحث غير منشور، ص١٢ .

(54) : المرجع السابق، ص١٤ .

(55) : عمر التومي الشيباني، الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٠، ص١٤١ .

(56) : أخر شاور الغالي، الشباب العربي والممارسة الثقافية المسأوية، مجلة شؤون عربية، العدد (٧٥)، القاهرة ١٩٩٣، ص١٣٢ .

(57) : عبد اللطيف معاليقي، صراع الأجيال أو صراع الثقافات، مجلة الوحدة، العدد (٣٩)، الرباط، ديسمبر ١٩٨٧، ص٧٧.

(58) : عزت حجازي، الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها، عالم المعرفة، وزارة الثقافة، الكويت ١٩٧٨، ص٩٣

(59) : هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الدار الأهلية، بيروت ١٩٨٠، ص٦٥.

(60) أمينة السعيد، أخر الطريق، سلسلة كتاب الهلال، القاهرة ١٩٥٩، ص٩٢ .

(61) : أخر شاور الغالي، الشباب العربي والممارسة الثقافية المسأوية، مرجع سابق، ص٣٥.

(62) : المرجع السابق، ص١٣٦ .

(63) : المرجع السابق، ص١٣٦ .

(64) : المرجع السابق، ص١٣٦ .

(65) : هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠، ص١٩ .

(66) : صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، ط٥، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٢، ص٢١ .

(67) : مصطفى محسن، الطاقات النسائية والتعليم في الوطن العربي، مجلة دراسات عربية، العدد (٥-٦) آذار - نيسان ١٩٩٨، ص٧٥ .

(68) : هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢، ص٦٩-٧٩ .

(79) : سمير صارم، الشباب والتنمية في سورية، مؤسسة علا للصحافة، ، دمشق ١٩٩٧، ص١٨١ .

(70) روز أنفانون وب - فيغيري : نحو ثقافة جديدة، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٢، ص٨٥-١١٠ .

* * *

شعار الصومال الكبرى: تاريخه، تطوره، في الوثائق البريطانية في الفترة ١٩٣٩ - ١٩٥٥

د. محاسن عبد القادر حاج الصافي*

مقدمة

تقدر مساحة جمهورية الصومال -التي ولدت عام 1960 نتيجة لدمج الصومالين البريطاني والإيطالي -بحوالي 683.000 كيلومتر مربع (ستمائة وثلاث وثمانين ألف)

* د. محاسن عبد القادر حاج الصافي: باحث من القطر السوداني الشقيق.

وهذا يعني انها تبلغ نصف مساحة اثيوبيا، وأكثر مرتين ونصف من مساحة بريطانيا، وضعف مساحة ايطاليا. وتقدر مساحة الأراضي التي يسكنها الصوماليون في القرن الافريقي، خارج حدود جمهورية الصومال بـ600.000كيلومتر مربع (ستمائة ألف). أي انها تقارب إلى حد كبير مساحة الجمهورية ذاتها.

يتكون السبعون بالمائة من سكان الصومال، وفقا لاحصاءات البنك الدولي لعام 1989م والذي قدر تعدادهم بـ6.089.000نسمة (ستة مليون وتسع وثمانين ألف) -من البدو الرحل. وتشكل الثروة الحيوانية أهم صادرات الصومال مضافا إليها الموز والجلود والسمك واللحوم.

ينقسم الصوماليون إلى أربع قبائل رئيسية هي الدير والدارود والاسحاق والهوية، مضافا اليها قبائل السوب أو الساب. وتتفرع عن هذه القبائل عشائر متعددة تنتشر في معظم أنحاء القرن الافريقي.

لقد تم تقسيم الصومال - في نهاية القرن التاسع عشر -نتيجة للصراع الدائر بين الدول الاستعمارية الكبرى بريطانيا، وايطاليا، وفرنسا. كما ضمت أجزاء منه نتيجة لاتفاقيات دولية بين القوى المشار اليها إلى كل من كينيا واثيوبيا، وذلك في الفترة بين 1948- 1963م. واستقلت جيبوتي -التي يطمع الصوماليون في الحاقها بأرضهم -في عام 1977م.

ويعتقد الصوماليون: بأنهم حاميون، اختلطوا بالعرب المهاجرين من شبه الجزيرة العربية. وان هذه الهجرة وما تلاها من تمازج، تمخض عنها ميلاد الأمة الصومالية[1]. غير أن الاثيوبيين يدعون: بأن ما يعرف بجمهورية الصومال، هي في الواقع جزء من اثيوبيا القديمة. فهم «سكان أرض البخور، اتباع ملك اكسوم»[2]. ويشير بعض الاثيوبيين: إلى أن الصومال جزء من العالم السليماني، وان كان هذا الادعاء لا يقوم على أساس تاريخي[3]. وكل تلك الحجج محاولات متأخرة من الاثيوبيين للرد على المطالبة الصومالية بجزء من الأراضي الاثيوبية التي تقدر بحوالي

200.000 كيلومتر (مائتي ألف). يسكنه عدد يقدر بـ500.000 نسمة (خمسمائة ألف) من الصوماليين وذلك الجزء أحد ثلاثة مواقع تم توزيعها بواسطة القوى الاستعمارية المشار اليها وذلك في الفترة من 1897م حتى 1955.

وظل هذا الأقليم منذ استقلال جمهورية الصومال عام 1960م مصدر صراع واضطرابات عاصفة بين الصومال واثيوبيا.

يؤكد الاثيوبيون على عمق الصلات بينهم وبين الصوماليين. وان المسألة لاتخص التاريخ والسياسة بقدر ما تتجاوزهما الى العلائق السلالية. فالصوماليون ينتمون إلى الكوشيين الشرقيين وهم نفس المجموعة التي ينتمي اليها معظم الاثيوبيين. ويرى المؤرخ الاثيوبي مسفين ولد ماريم أن جهاد أحمد الجران ضد الممالك المسيحية في اثيوبيا في القرن السادس عشر ليست حربا بين دولتين (الصومال واثيوبيا) ولكنها نهاية حرب أهلية داخلية بين اتباع جران من سكان الأراضي المنخفضة والتي تشكل أغلبيتها من المسلمين، والأراضي المرتفعة من رعايا الممالك الأثيوبية. تلك الحرب التي لاقى فيها أهل الأراضي المرتفعة الهزيمة بعد انتصاراتهم المتوالية على الأراضي المنخفضة. ويعتقد مسفين: أن مساعدات الأتراك للمسلمين وعون البرتغال للمسيحيين هما، العاملان الخارجيان الوحيدان[5].

وتبدو لنا وجهة نظر المؤرخ الاثيوبي مسفين ولدماريم، بمثابة محاولة واضحة لتهدئة الخواطر بين الصومال واثيوبيا، في فترة تصاعدت بينهما حدة الخلاف، وذلك عقب استقلال الصومال 1960م. فما هي إذا الخلفية التاريخية للصراع الصومالي -الاثيوبي حول اقليم الاوغادين؟

وما هي آثاره على المحاولة البريطانية لرفع شعار الصومال الكبرى في الفترة من 1939م-1955م.

ب- الاطماع الأوربية -الاثيوبية والخارطة الصومالية 1884- 1939م

أخلا الجنود البريطانيون -الذين كانوا يؤدون مهام الحكم نيابة عن

الخديوي -سلطنة هرر في الفترة 1884/ 1885م تاركين وراءهم الأمير عبد الله، ابن آخر امراء هرر قبل الفتح المصري على رأس إدارة تلك السلطنة. وفي ذلك الوقت استفحل العداء التقليدي بين أباطرة اثيوبيا وسلطنة هرر الاسلامية وقد امتدت جذور ذلك العداء منذ فترة جهاد أحمد الجران. وظل مستعرا على الرغم من محاولات مسفين ولد مريام المشار اليها في التخفيف من حدته.

كان منليك أول امبراطور اثيوبي يمتلك القدرة على احتلال هرر وضمها نهائياً لاثيوبيا، وقد تمكن من ذلك بالفعل عام 1887م[6]. وإصل منليك فتوحاته منذ عام 1891م، وتم له اخضاع اقليم الأوغادين، وبالي، وسيداما. وأصبح الوجود الاثيوبي في أرض الصومال قوة لايستهان بها. يؤكد ذلك حضور زعماء قبائل القادبورسي من الصومال البريطاني، والأوقاس من الاوغادين، إلى هرر لدفع الاتاوه للاثيوبيين، وذلك في اكتوبر 1891م.

الذي مكن للاثيوبيين من السيطرة والتغلب على الصوماليين، هو امتلاكهم للأسلحة النارية. بينما لاتمتلك القبائل الصومالية في مواجهتهم الا الحراب والسهام.

فقد حظر عليهم استيراد الأسلحة النارية. اضافة الى ذلك، فان الفاتحين الاثيوبيين استخدموا العديد من الوسائل لاستمالة بعض القبائل الصومالية من البارتيري الذين يسكنون منطقة جيجيقا واستخدامهم ضد القبائل الصومالية الأخرى. وقد رفضت القبائل الصومالية هذا التصرف من جانب إخوانهم البارتيري. واستطاع مبعوث منليك -راس ماكينون- باستخدامه لسياسة فرق تسد، باستمالته لقبيلة صومالية على الأخرى من تحقيق سيطرة كاملة على منطقة صومالية كاملة هي إقليم الهود، وذلك في منتصف عام 1892.[7] وامتدت سيطرة منليك في عام (1894- 1895) حتى منطقة Melmel جنوبا. وواصل الأثيوبيون زحفهم في الأرض الصومالية

وهم ينهبون مواشي السكان وممتلكاتهم، حتى وصلوا الشاطئ الغربي لنهر الويبي قانالي «الجوبا» حتى مدينة لوق Lugh .

وقاوم الصوماليون بكل ما لديهم من قوة هذا الغزو ولكن كانت مقاومتهم دون جدوى بسبب ضعف تسلحهم، فقد استطاع راس ماكينون في نهاية الأمر ضم الأراضي الصومالية لأثيوبيا .

كان منليك يهدف من ضمه لأراضي القالا الاستيلاء على أراضي غنية بالزراعة والمعادن بينما اختلف هدفه بصورة تامة فيما يتعلق بضم الأوغادين . فقد أراد منليك بسيطرته على هذا الجزء القاحل من القرن الافريقي، أن يؤمن حدود امبراطوريته ضد المصريين والبريطانيين والايطاليين الزاحفين نحو المرتفعات الاثيوبية . وقد نجح منليك بالفعل في دحر المصريين بأبعادهم عن هرر عام 1887م . في الوقت الذي استمرت فيه بريطانيا وايطاليا في تأمين مناطقهم على تخوم الأوغادين .

لقد أثار منليك حفيظة الدول الاستعمارية بضمه لهرر عام 1887م وبقية الأراضي في الفترة حتى 1895م حدث ذلك في اللحظة التي بلغ فيها الصراع الاستعماري بقيادة بريطانيا وفرنسا قمته . وقد تمكن منليك من ايقاع الهزيمة بايطاليا في عدوة عام 1896م . لقد جعل انتصار اثيوبيا على ايطاليا في عدوة من منليك شخصية قوية جديدة يحسب لها مكانها في المجال الدولي في نهاية القرن التاسع عشر . وواصل منليك بعد ذلك التوسع في مملكته . وكان على القوى الأوروبية ذات الاهتمام في المنطقة، أن تحصل على موافقته الرسمية عند تدخلها في المناطق المجاورة لحدوده .[8] وحضر بالفعل ممثلو تلك الدول لمناقشة المسائل المتعلقة بنفوذهم في المناطق المجاورة لاثيوبيا، وكانت مناقشة الحدود الاثيوبية مع الصومال من أصعب المسائل وأعقدها .

أبرمت بريطانيا عام 1897م معاهدة هامة مع الامبراطور، تمنح اثيوبيا بمقتضاها صومال المحمية البريطانية حق الرعي في وقت الجفاف في اثيوبيا.

وأعلن الايطاليون بمقتضى الاتفاقية التي أبرموها مع اثيوبيا في عام 1897م: أن حدود الصومال الايطالي مع اثيوبيا تأتي موازية للساحل حوالي مائة وثمانين ميلا الى الداخل. وتجدر الإشارة إلى أن خط الحدود هذا لم يضع في الاعتبار حاجات القبائل في مصادر المياه والرعي. هذا اضافة الى أن الوحدات الاثيوبية كانت تخترق هذا الخط الى اقليم Bur Haceb الذي يبعد ثمانية أميال من مقدشو والمحيط الهندي[9]. ولم تطبق بنود هذه المعاهدة على الواقع بالإضافة الى فقدان نصها.

واصل منليك فتوحاته لتضم جزءا من بلاد العفر والصومال في السهول الشرقية. وأخضع العروسي والقالا. ولكن احتلاله لهرر جعل الاثيوبيين لأول مرة، في مواجهة مباشرة مع القبائل الصومالية المحاربة. هاجم منليك منطقة اوسا Aussa في شمال هرر وضمها عام 1896م. وكان ذلك هو نفس العام الذي هزم فيه الطليان في عدوة. وبدأ مبعوثه ماكينون في عام 1897م سلسلة من الحملات ضمت أراضي صومال العيسى والأوغادين والمريحان والعوليحان حتى بلغت مشارف نهري جوبا والشبيلي.

ولم يتح لمنليك فتح الأراضي الصومالية قبل عام 1900م وذلك لشراسة القبائل الصومالية وصعوبة ووعورة الطبيعة في تلك المناطق، على الرغم من تفوقه العسكري وامتلاكه للسلاح الناري. وعليه فان الحدود الحديثة لدولة اثيوبيا لم تكن موجودة أو معروفة قبل نهاية القرن التاسع عشر. أما الحدود المعروفة لدينا الآن لدولة اثيوبيا فقد بدأت في الظهور في الفترة ما بين 1876- 1909م خلال العديد من عمليات الفتح والغزو كما أشرنا سابقا. وواجهت عمليات الفتح المقاومة من الأورومو والسيداما والولايته التي فشلت الأنظمة الامبراطورية المتعاقبة في اخمادها. ولم يتأثر

سكان الأوغادين بسياسة التبعية السياسة أمهرة الدولة بالطاعة والاذعان لها والخضوع لنظمها، لكونهم رعاة اذ كان اتصالهم بالادارة الأمهرية في ذلك الوقت محصورا جدا ويقتصر على دفع الاتاوة بصورة غير منتظمة. وعادة ما تؤخذ تلك الأتاوة في شكل هجمات على الأسواق. وفي نفس الوقت كانت مقاومة الأوغادين للاحتلال الأوروبي الذي جاء لاحقا عنيفاً. فقد قاوم السيد محمد عبد الله حسن في الفترة 1895 -1920م الانجليز والطليان والأحباش ولكن أوقف تمرده ومقاومته بالسلاح[10].

وظهرت في عام 1906م مشكلة وراثة العرش الاثيوبي وذلك بسبب مرض منليك ووفاة راس ماكينون -يده اليمنى وانتهزت الدول الأوروبية الطامعة هذه السانحة لتوقع في عام 1906م اتفاقية مع الإمبراطور المريض لتضمن مصالحها في حالة حدوث انهيار سياسي في اثيوبيا تؤمن هذه الاتفاقيات لاثيوبيا وجودها الجغرافي. كما تضمن مطامع بريطانيا في السيطرة على مياه النيل الأزرق، وتطلع ايطاليا في الحاق الصومال بمستعمراتها في ارتريا وأمل فرنسا في اكمال خط السكة الحديدية مع جيبوتي وتوصيله بأديس أبابا. وفي عام 1908م أعيدت دراسة الوضع في الأقليم بين ايطاليا واثيوبيا على ضوء مراجعة اتفاقية 1879م وما شابها من غموض ولبس في هذا الصدد حتى رفضها الطرفان. وتم التوصل إلى خط حدودي مبدئي يوضح مناطق نفوذ الدولتين. ونتيجة لذلك وقع ميثاق 1908م بين الدولتين.

ولكن ذلك لم يساعد على توضيح الرؤيا، ولكنها أشار فقط الى ضرورة ترسيم حدود تفصل بين مناطق النفوذ الايطالية والاثيوبية على الأرض[11].

لقد اختار الملك المريض ابن اخته لج ياسو، وكان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما، ليخلفه على العرش. وهو من القالا. وقد شجعه أبوه والألمان

والأتراك على اعتناق الاسلام . وكان على صلة طيبة بالسيد محمد عبد الله حسن المجاهد الصومالي وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى . ويقال انه أمد المجاهد الصومالي بالسلاح . وفي عام 1916م خلع ياسو وأعلنت ذوايتو ابنة منليك امبراطورة ، وابنها راس تفاري (هيلاسلاسي) وليا للعهد .

تميز وضع الأقليم الصومالي في الجنوب الشرقي من اثيوبيا بالقلاقل والاضطرابات في فترة حكم هيلاسلاسي . فقد قاوم الصوماليون الثقافة واللغة الأمهريتين[12] . لم يكن أقليم الأوغادين بالنسبة لاثيوبيا ذو جدوى من الناحية الاقتصادية نسبة لشدة الحرارة وعدم خصوبة التربة . ولكن المنطقة شمال شرق جيجيقا تعتبر أكثر خصوبة ، وذات معدلات طبيعية من الأمطار إذا قيست بالهضبة الصومالية . وعينت السلطات لإدارة هذه المنطقة فيترارى تكيلي هواريت - الذي تلقى تعليمه في روسيا - حاكما على جيجيقا وذلك في عام 1918م . واضطر فيتوارى تكيلي لاستجلاب مجموعة من القالا ليمارسوا الزراعة في هذه المنطقة ذلك لأن الصوماليين لا يميلون بطبيعتهم لهذه الحرفة . خلف تكيلي كينزماتش قلاقوليس الذي مدد الرقعة الزراعية على حساب المحمية البريطانية الصومالية وأسكن الأمهرا في الأراضي التابعة للصوماليين القادبورسي والغيسي . ولم يقبل الصوماليون مجيء القوم الجدد الذين أنشأوا الكنائس المسيحية ، ونزعوا المواشي من الصوماليين بحجة تسديد الضرائب . احتج الصوماليون من قبائل الأوقاس لدى حاكم جيجيقا والي الحكومة البريطانية . وأرسلت السلطات قنصل بريطانيا لحل هذه المنازعات في هرر .

جاء في عام 1929م لجنة انجليزية ايطالية من أجل ترسيم الحدود بين المحمية الصومالية البريطانية والصومال الايطالي . كان الموضوع الأساسي لهذه اللجنة هو توضيح خط عرض 8 درجة بخط طول 48 درجة والتي تمثل نقطة التقاء بين اثيوبيا ومنطقة النفوذ البريطاني والايطالي . أكملت اللجنة أعمالها في يونيو 1931م . جاءت بعدها لجنة انجليزية اثيوبية لترسم الحدود

على جانبي خط معاهدة 1897م الأنجليزية -الاثيوبية. وقد جاءت هذه اللجنة الأخيرة كاستجابة لاحتجاج القبائل التي تسكن على جانبي الخط، ذلك أن مراعيهم التقليدية قد اقتطعت وضمت الى اثيوبيا دون استشارتهم. كانوا يخشون بالدرجة الأولى -من أن تحد تحركاتهم خلال الحدود بواسطة ايطاليا، بناءا على ما ورد في المعاهدة الانجليزية الايطالية سالفة الذكر. وقد منحت اللجنة صلاحية رفع تقرير يسمح للقبائل بالرعي خلال الحدود، وذلك بمقتضى اتفاقية 1897م. ولكن اعتراض اثيوبيا على هذه الترتيبات أدت الى حادثة الوال وال التي تسببت في نشوب الحرب الايطالية -الحبشية التي شغلت الأمم المتحدة فترة من الزمن.

يذكر المؤرخون: أنه أثناء فترة امارة هيلاسلاسي وقبل تتويجه لم تخترق القوات الاثيوبية أكثر من مائة ميل بعد جيجيقا. وفي عام 1931م قاد ديزماتش قابري ماريام وفيتوراي سيريقو -بتوجيه من الامبراطور- حملة من هرر وجيجيقا الى الأوغادين، حيث وجدوا أن الايطاليين قد تسللوا لأراض يعتقد الاثيوبيون انها لهم ولكنهم لم يصلوا الى وال وال. وتخضع هذه المنطقة (وال وال) لادارة حاكم جيجيقا ومديرها جراماتش افورقي ولكن حكام جيجيقا لايتابعون تطور الأوضاع فيها. ويعتقدالاثيوبيون من جهتهم أن هذه المنطقة كانت تدفع الاتاوة للاباطرة. وقد أشار الى ذلك رئيس وزراء اثيوبيا في مؤتمر القمة لرؤساء الدول الافريقية المنعقد بأديس أبابا في عام 1963م. يعني هذا أن اثيوبيا تدعي ملكية الوال وال[13].

لقد عمق تهديد ايطاليا لاثيوبيا في الثلاثينيات من حدة اهتمام اثيوبيا بالوضع الاستراتيجي للاوغادين. وقام هيلاسلاسي في مايو 1934م بزيارة لهرر كمظهر من مظاهر الاهتمام بالاوغادين، حاثاً الصوماليين على محاربة الايطاليين وردعليه أول متحدث صومالي: بأن الصوماليين لايرون سببا وجيها لمقاتلة الايطاليين الذين لم يسيئوا إليهم. ولكن الأثيوبيين هم الذين يسمونهم كلابا ويعتدون على نسائهم ويقتلون مواشيهم[14].

ولما اشتغلت الحرب الايطالية الحبشية في وال وال عام 1935 لم يحرص الصوماليون في الإقليم للانضمام لأي من الطرفين.

كانت ايطاليا ترغب لضم اقليم الأوغادين نسبة لأهميته ولما يتميز به من مراع جيدة حول منطقة الهود. وعلى الرغم من اتفاقية الحدود بين ايطاليا واثيوبيا عام 1908م لم تستطع ايطاليا مقاومة الاغراء بضم الأوغادين. فالاقليم غني بالآبار والمراعي أغلى مادتين في أقليم صحراوي. فنهرا الشبيلي والجوبا، مصدرا المياه الوحيدين للصومال. ينبعان في المرتفعات الاثيوبية، وينحدران خلال الأقليم لعدة مئات من الكيلومترات، قبل عبورهما جمهورية الصومال في رحلتيهما الطويلة للمحيط الهندي. فايطاليا التي اقتنعت بالأهمية الاقتصادية لأقليم الأوغادين تنتظر الساعة المناسبة لضمه لممتلكاتها[15].

ذهب انتوني ايدن رئيس الوزراء البريطاني الى روما في عام 1935م ليقدم عرضا لموسليني بإراحة عصبة الأمم من النزاع الثنائي بين ايطاليا واثيوبيا حول الأوغادين. يقترح ايدن في هذا الصدد أن تقتطع أثيوبيا الأوغادين لتلحق بالصومال الايطالي، مقابل أن تعوض ايطاليا اثيوبيا بمنحها مخرجا الى البحر في زيلع. ولكن موسليني ولافال رفضا هذا الاقتراح[16]. الذي يصب في المشروع البريطاني الذي يتبنى دمج الأراضي التي يسكنها الصوماليون في القرن الافريقي في دولة واحدة.

وثأر الايطاليون من الأحباش الذين هزموهم في عدوه عام 1896م وتمكنوا من دحرهم نتيجة لمعارك الوال وال التي ربما افتعلوها لهذا الغرض. وتحقق أخيرا الحلم الايطالي بضم اثيوبيا لممتلكاتها وذلك في عام 1936م. وتمت ادارة الأوغادين من قبل الطليان انذاك بتوحيدها مع الصومال الايطالي حيث وجد سكان الاوغادين أنفسهم لأول مرة متحدين مع ذويهم في الصومال الايطالي تحت ادارة واحدة[17]. ولم تكن الادارة الايطالية لأقليم

الأوغادين -رغما عن قصر عمرها- بأفضل من النهج الإداري الذي كان يتبعه الأثيوبيون والذي يتلخص في السياسة القمعية وجمع الاتاوة والضرائب، وظل الوضع على هذا الحال حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية.

ج- المسألة الصومالية: أثيوبيا والقوى العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية:

بدأ الهجوم الذي شنته القوات البريطانية على الصومال الايطالي من كينيا في يناير 1941م. وزحفت القوات البريطانية في سرعة نحو مقديشو وجيجيقا مارة بالصومال البريطاني الذي انسحبت عنه القوات الايطالية في وقت سابق. وزحفت حملة بريطانية أخرى من عدن، تتكون من وحدتين هنديتين تمكنتا من الاستيلاء على بربره في 19 مارس. حدث ذلك بعد يومين من احتلال الوحدات النيجيرية لجيجيقا. وبذلك استعادت بريطانيا محميتها السابقة ووضعتها تحت ادارة عسكرية خاصة. وبحلول عام 1941م. أصبحت كل مساحة الصومال في شرق افريقيا البريطانية، تحت الإدارة العسكرية البريطانية. وأعيد الامبراطور هيلاسلاسي في اثيوبيا إلى عاصمته أديس أبابا في مايو 1941م. ولكي تحافظ اثيوبيا على سيادتها وتساهم بفاعلية في الحرب العالمية الثانية، بصفتها حليفا لبريطانيا سمحت بأن تصبح المنطقة المحجوزة مضافا اليها الأوغادين، تحت الادارة البريطانية بصورة مؤقتة[18].

تم التوصل في 1942م إلى اتفاقية هامة للغاية أعيدت بموجبها السيادة الكاملة لاثيوبيا ولكن بريطانيا احتفظت لنفسها بموجب تلك الاتفاقية - بمقتضى قانون عسكري خاص بادارة منطقتين في الاقليم الصومالي المحتل هما الأوغادين والمنطقة المحجوزة.

وتشمل المنطقة المحجوزة جيجيقا اضافة إلى المنطقة المشهورة بانتاج القمح والتي تقع الى الغرب من حدود المحمية، كما تضم أيضا خط السكة الحديد من ديرداوا الى حدود الصومال الفرنسي. والدافع الذي دعا بريطانيا

للاحتفاظ بالمنطقة المحجوزة يتجسد في تامين خط السكة الحديدية، وتمكينها من مواصلة الحملات ضد الفرنسيين في جيبوتي. وقد أتاحت معاهدة 1942م لبريطانيا وضعا مميزا، اذ أصبح من صلاحياتها القيام بالعديد من الاجراءات الدبلوماسية والإدارية، وذلك بتعيين مستشارين للحكومة الاثيوبية يقومون باداء مختلف الوظائف في الادارة، وادارة الأعمال والأموال.

لم يكن امبراطور اثيوبيا مرتاحا لاستمرار بريطانيا في احتلال الأوغدين والمنطقة المحجوزة بمقتضي اتفاقية 1942م. وفي نفس الوقت لم تكن ادارته -وعلى وجه الخصوص الجيش والشرطة- في وضع يمكنه من ادارة الأقليم. وقد تخوف الاداريون البريطانيون من إعادة هاتين المنطقتين لاثيوبيا، بسبب سوء الادارة الاثيوبية لهما. فقد شاهدوا بأنفسهم التجربة الادارية السيئة للجنرال الاثيوبي اسفاو في حكمه للمناطق الحدودية الاثيوبية مع كينيا. وأشارت التقارير أيضا الى احساس الاداريين البريطانيين بعقدة الذنب تجاه الصوماليين واهتزاز هيبة الإدارة البريطانية في نظرهم. فقد انتزعت بريطانيا منهم في 1940 أراضي المراعي في الصومال البريطاني ومنحتها لاثيوبيا. واجهت اثيوبيا أثناء الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في عام 1943م مشكلة كبيرة، أياً تختار من حيث الأهمية: الأوغادين أم اريتريا؟ علماً بأن الأوغادين تحتوي على مخزون من البترول. أمهل الامبراطور بريطانيا لمدة ثلاثة أشهر لانهاء معاهدة 1942م واعادة الأراضي المحجوزة لاثيوبيا. وأشار بعض المراقبين إلى أن الذي دفع الامبراطور لتلك الخطوة هو ايعاز من الولايات المتحدة الامريكية[19].

ووقعت في عام 1944م اتفاقية جديدة بعد انقضاء فترة اتفاقية عام 1942م. ويعتقد المؤرخون ان الاتفاقية الجديدة الغت كل ما جاء في اتفاقية 1942م حيث تقرأ الاتفاقية الثانية وكأنها بين دولتين متساويتين على درجة واحدة من الاستقلال. يجري التعامل بينهما على مبدأ الند للند باستثناء

مسألة واحدة تتعلق بالبند الذي نص على: أن الحكومة الاثيوبية توافق على استمرار المنطقة المحجوزة والأوغادين تحت الادارة العسكرية البريطانية أثناء مدة الحرب[20]. اضطرت اثيوبيا للموافقة على وضع المنطقة المحجوزة والأوغادين تحت الادارة العسكرية البريطانية لتضمن دعم بريطانيا لها في موضوع ارتيريا[21].

ولهذا فقد ظلت الأوغادين بعد طرد ايطاليا من المنطقة تحت الحكم العسكري البريطاني في عام 1948م. وأعيدت الأوغادين الى اثيوبيا في عام 1948م وذلك نتيجة لضغط الامبراطور وتعاطف بريطانيا معه. اتخذت بريطانيا هذا القرار، على الرغم من تنبيه اداربيها في الموقع من مخاطر هذا العمل. فقد لفت الحاكم البريطاني في المحمية نظر الادارة البريطانية منوها بأن سبب الحرب بين السيد محمد عبد الله حسن وبريطانيا يكمن في تخلي بريطانيا عن عهدها للصوماليين بارجاع الأراضي الصومالية لهم. ولكنها لارضاء غرورها الامبريالي فعلت عكس ذلك تماماً، حيث سلمت أراضي الصوماليين لاعدائهم الاثيوبيين «الكفار القساة» وذلك بمقتضى معاهدة 1897م مع اثيوبيا. وينبه الحاكم العسكري الادارة البريطانية: بأن الصوماليين عام 1944م أكثر وعيا عنهم قبل خمسين عام مضت. وانهم سوف يلجأون الى هيئة الأمم المتحدة لأخذ حقوقهم إذا ما اخضعوا لسلطة الامبراطور وربما لجؤوا للعالم الاسلامي لمساندتهم في الأمر[22]. لقد كان القرار باعادة الاوغادين لاثيوبيا صعبا له وقع سيء على نفوس الوطنيين الصوماليين. وتضاعف ذلك الاحساس بالضيق والظلم إذا علمنا بأن قبائل صومالية مثل الدولبهانتة والمجرتين والمريحان والاسحق والاوغادين كانت تعتمد اعتمادا كبيرا في رعي وسقاية مواشيها على مراعي الهود.

ظل الحضور الإداري الاثيوبي بعد إعادة هذه المواقع لاثيوبيا ضعيفا جدا، الأمر الذي توقعه الاداريون البريطانيون في السابق. وظل الوضع الإداري، كما كان عليه قبل الحرب. فلم تعقب هذه العودة تنمية تذكر. فلا

مدارس ولا مستشفيات ولا طرق، فقد ظلت التجارة وحدها وهي محصورة في المواشي. لم يحدث أي تحسين في الوضع الإداري للأقليم ومازال الزعماء التقليديون هم الحكام الفعليون. لم يحتمل بعض الصوماليين هذا الوضع فعبروا الحدود الى الصومال وقد عزز هذا الأمر -دون شك من حجة الزعماء الصوماليين في مطالبتهم بإقليم الأوغادين. وتزامنت هذه الأحوال مع نمو الحركة الوطنية الصومالية التي تبنت بقوة شعار «الصومال الكبرى» ممثلا في حزب الشباب الصومالي الذي ولد في هرر مسقط رأس الامبراطور عام 1943م.

د- شعار «الصومال الكبرى» مبرراته العسكرية، الاقتصادية، السياسية:

لم تكن فكرة خلق «الصومال الكبرى» جديدة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. وعلى سبيل المثال قد سبقتها فكرة المانيا الكبرى حيث حلم هتلر بتوحد كل المتحدثين بالألمانية في أوربا[23].

فقد نبعت فكرة الصومال الكبرى لأول مرة في أذهان بعض الاداريين البريطانيين، وذلك في فترة الحرب العالمية الثانية. وتبلورت بعد الحرب على أساس أن الصومال البريطاني والايطالي والاوغادين كانت أراض صومالية تحت الادارة البريطانية للفترة 1941- 1950م. أوحى هذا الوضع السياسي للإداريين البريطانيين بالترويج لفكرة خلق صومال موحد تحت الوصاية البريطانية. تلقفت هذه الفكرة زعامات الحركة الوطنية الصومالية ممثلة في حزب وحدة الشباب الصومالي الذي نشأ عام 1943م. وسرعان ما جعل هذا الحزب من شعارالصومال الكبرى السياسة المركزية والشعار الرئيسي للحزب.

ومن أهم العوامل التي دفعت بريطانيا لفكرة جمع الصوماليين تحت ادارة واحدة هو الصدام المستمر بين القبائل على الحدود الكينية الاثيوبية، وعلى وجه الخصوص الصراع في منطقة البورانا بين قبائل المريحان

والديوقوديا . هذا الصراع الذي أرهق الإدارة البريطانية وأنهكها في المجالين العسكري والاداري[23].

يتضح لنا مما سبق الجهد البريطاني الإداري المتواصل لحل النزاعات بين القبائل الصومالية في مواقعها المختلفة مع جيرانها ، سواء أن كان ذلك أثيوبيا أو كينيا . تلك النزاعات التي تحدث دائماً بسبب التنافس على المراعي ومواقع المياه كما توضح ذلك الاتفاقات المبرمة بين بريطانيا وهذه وتلك من القبائل أو الاتفاقات الثنائية مع الدول الأخرى والتي وقعت في هذا الصدد في الفترة من 1897م حتى 1955م . ولم تقف تلك النزاعات عند حدود قبائل تلك المنطقة بل تسببت في صراع وحروب نشبت بين الدول المتنافسة في الفترة المشار اليها . فخير مثال على ذلك الحرب الحبشية الايطالية حول آبار الوال وال عام 1935م .

وعامل آخر هام شغل اذهان الاداريين البريطانيين فيما يخص وضع الصوماليين الإداري ، ذلك هو الشك الكبير الذي لازم الاداريين البريطانيين عن مصير الصوماليين وما يمكن أن يلاقونه تحت الادارة الاثيوبية من معاملة أقل ما توصف به أنها غير عادلة ، كما أوضحت التجارب السابقة . فنظرة اثيوبيا التقليدية لهم تتلخص في أنهم مصدر طيب لدفع الاتاوة والضرائب .

والعامل الآخر والمهم في تبني بعض الاداريين البريطانيين لشعار الصومال الكبرى هو شعورهم بالذنب تجاه الصوماليين الذين عملت الدول الاستعمارية الكبرى بما فيها بريطانيا على تفتيتهم وتقسيمهم فيما بينها .

لم يأت طرح هذا الشعار من بعض الموظفين البريطانيين مصادفة ، ولم تكن عبارات ايرنست بيفين عام 1946م المتعلقة بذلك الشعار تتسم بالبراءة والسذاجة كما ألمح الى ذلك بعض الباحثين[25] . وقد جاء ذلك الشعار نتيجة لدراسات عميقة ، وتبادل لوجهات النظر بين الاداريين ذوي الخبرة والدراية بأحوال الصوماليين في المواقع المعنية مع ادارة المستعمرات ووزارة الخارجية والحرب في لندن . وقد هدفت تلك الدراسات بصورة رئيسية لتمكين أولئك

البدو الرعاة من العيش في سهولة ويسر، وكيما تعالج المصاعب الادارية المتعددة التي تكمن في الوضع المعقد الذي يعيشه الصوماليون المشتتون في أنحاء القرن الأفريقي. اضافة الى ذلك، فان الشعار المطروح يعني تعديل خارطة الصومال الجغرافية نحو الأفضل، مما يترتب عليه تحسين سبل المواصلات النهرية والبرية الأمر الذي يمكن من احداث تنمية اقتصادية لهم. يجدر بالذكر: أن طرح هذا الشعار لم يكن بالأمر اليسير ولم يكن من السهل اقناع الادارات البريطانية المتعددة بجدواه. بل انه قد وجد معارضة كبيرة من بعض الشخصيات القيادية في وزارة المستعمرات البريطانية الذين يعتقدون: أن الأوغادين يجب أن تتبع لاثيوبيا، وأن الامبراطور محق في المطالبة بها[26].

أشارت وثائق وزارة المستعمرات البريطانية في سبتمبر 1939م الى مذكرة رفعها الجنرال هاملتون Hamilton والميجور ارسكين Erskine، وهما ضابطان سياسيان وأعضاء سابقين في بعثات عسكرية الى افريقية وقد تضمنت هذه المذكرة آراءهما حول تعديل الحدود الصومالية وذلك بدمج جميع الأراضي التي يسكنها الصوماليون في القرن الافريقي في مساحة واحدة تحت ادارة بريطانية موحدة. وتشمل هذه الأقاليم -وفقا لما ورد في المذكرة- صومال المحمية البريطانية والأوغادين في جنوب شرق اثيوبيا[27]. وتعرضت المذكرة كذلك للبدائل المقترحة لتعويض من فقدوا أراض تبعا لذلك الاجراء. وأرسلت المذكرة الى وزارة المستعمرات المليئة بالنظرة الاستعلائية الاستعمارية وروح التفرقة المجحف ازاء الشعوب المستعمرة الا انها تشير بوضوح للمبررات الادارية والاقتصادية والعسكرية والسياسية التي تقتضي تكوين «الصومال الكبرى» وتتبنى بقوة التوجه الذي يرمي لتوحيد الأمة الصومالية.

يشير مؤلفا المذكرة انه نتيجة للحرب العالمية الثانية آل حوالي ستة ملايين نسمة (6.000.000) من الصوماليين الذين يسكنون الصومال،

البريطاني، والصومال الايطالي، والأوغادين في اثيوبيا، والانفدي في كينيا، الى الادارة البريطانية. ولفتت المذكرة النظر الى ضرورة تكوين لجنة خاصة لدراسة مستقبل هؤلاء الصوماليين وتقرير مصيرهم، قبل أن يسارع امبراطور اثيوبيا ليطالب بإلحاقهم بإمبراطوريته. وقد نبه هاملتون وارسكين الى ضرورة وحتمية أن يطالب الصوماليين في أقرب وقت ممكن بالاعتراف بكيانهم وقوميتهم في افريقيا.

ونلخص فيما يأتي آراء هاملتون وارسكين، وأهم ما ورد في مذكرتهما عن مستقبل ادارة الصومال الجديد الموحد.

أولا: -العنصر الجغرافي والإداري:

1- توقع هاملتون وارسكين -في مذكرتهما- آن تثير اثيوبيا مسألة حتمية طالما أقلقتها وذلك بايجاد مخرج لها على البحر. وقد طالبت سابقا بأن يكون ذلك المخرج هو زيلع. وبما أن انتصار بريطانيا في الحرب يضع حكومة صاحبة الجلالة في موقع المدان لاثيوبيا لأي أراضي صومالية قد تفقدها نتيجة لتعديل الحدود، الا انهما نبها -بنفس القدر- لضرورة توخي العدالة أثناء النظر للمطالبات القانونية للصوماليين الذين ظلوا لوقت طويل موالين لبريطانيا.

2- أكد مؤلفا المذكرة منح ساحل الدناكل الايطالي، الممتد من خليج Annesley الى الحدود الفرنسية بالقرب من جيبوتي والذي يضم ميناء عصب، وطريق المواصلات الرئيسي من عصب الى أديس أبابا، الذي يمر خلال أراضي الدناكل لايطاليا وذلك مقابل أن تمنح منطقة الأوغادين في جنوب شرق اثيوبيا لتضاف الى المحمية البريطانية الصومالية.

3- حددت المذكرة المساحة الجغرافية للأراضي التي يسكنها الصوماليون الخلص في القرن الافريقي. تحد هذه المنطقة جنوبا بمنبع نهر التانا في كينيا وتتبع هذا النهر غربا الى سانكوري ثم تصل حتى مودقاشي وتمتد الى الجنوب من واجبير حتى تصل الى الواك شمالا على طول خط

الطول 40 درجة . حيث تواصل امتدادها على طول المرتفعات الاثيوبية لتشمل كل منطقة الاوغادين الصومالية وتضم اليها بعد ذلك مناطق الوبي شبيلي وجنوب هرر حتى تلتقي بالحدود الفرنسية . ويرى مؤلفا المذكرة : ضرورة اجراء مناقشات مع الفرنسيين لاقناعهم بتعديل الحدود لتتضمن الحاق العيسى والقدابورسي من القبائل الصومالية بالمحمية الصومالية الجديدة . أن وضع المسائل بهذا الترتيب يضع كل الأمة الصومالية تحت الوصاية البريطانية . يتكهن المؤلفان : بأنه تحت هذا الوضع الجديد ستكون إدارة موحدة متفاهمة ومتعاطفة ومدربة ، تقودهم نحو تطلعاتهم وآمالهم القومية .

4- أكد مؤلفا المذكرة : أن المهمة الرئيسية للجنة توضيح حدود المحمية الصومالية المقترحة ، يضع في اعتباره العوامل الاثنية ، دون العوامل الجغرافية والطبيعية . ولن يكون بمقدور الحكومةالاثيوبية ابراز أي دليل قاطع يثبت أن لها ادارة سالفة لأقليم الاوغادين . بحيث تضحد به المطالب الصومالية القومية ، وتقف أمام الحاق الصوماليين بالمحمية الجديدة . ولم يستعبد مؤلفا المذكرة : امكانية قيام الامبراطور واتباعه برشوة بعض السلاطين وزعماء القبائل واغرائهم بالوعود الكاذبة ، ليقفوا ضد تطلعات الصوماليين الرامية للالتحاق بالمحمية الجديدة ، غير أن التوقعات تشير بعدم جدوى مثل هذا المسعى ، في ظل سوء ادارة الامبراطور في السابق .

5- يقترح هاملتون وارسكين : أن تعترف حكومة صاحبة الجلالة للصوماليين ، بحقوق تساوي تلك التي تعترف بها انذاك للامهرا ، وللعرب في السودان . ويتصور الصوماليون ان تدار تلك المحمية على مستويين : اشراف من اداريين بريطانيين على مستوى رفيع . على أن يساعدهم كادر اداري صومالي من الدرجة الثانية . حسبما كان متبعا في نظم الإدارة في السودان وغرب افريقيا . وقد تقدمت القبائل الصومالية في المحمية البريطانية السابقة ، إلى الحاكم العام بمذكرة في هذا الشأن .

6- يرى مؤلفا المذكرة: بأن الصوماليين لايتبعون من الناحية السلالية لقبائل البانو. ولا هم في الواقع من أصل أفريقي. ولكنهم ينتمون –حسب قرار الجمعية الانثروبولوجية البريطانية– إلى الجنس الحامي السامي، وذلك نسبة لذكائهم وقدراتهم واستعدادهم للتعليم والتجارة، بدرجة لاتقل عن الشعوب الذكية الأخرى مثل الهنود والعرب.. ووفقا لهذا الفهم استمرت المذكرة في رسم وتفصيل السياسة التعليمية التي يجب أن تتبع تجاه المحمية الصومالية الجديدة في حالة تكوينها. وتتلخص تلك السياسة في التالي:

آ- يرى هاملتون وارسكين: ان كلية غردون التذكارية في الخرطوم لا تستطيع استيعاب وتعليم كل الأمم التي تحتاج الى تعليم في شمال وشرق افريقيا. ويضيفان: أي أن هناك عوامل اثنية أخرى ربما حالت دون استفادة الصوماليين من تلك الكلية. ويعتقدان: أن السياسة التعليمية التي سوف توضع لصومال المحمية الجديدة، لابد أن ترتكز على فهم عميق للشخصية الصومالية التي تتصف بشدة الاعتزاز بالنفس والكبرياء. وعلى الرغم من أن ثقافة الصومالي هي ثقافة القوم الرحل. فانها تتوافق بقدر كبير مع ثقافة القوم الممتهنين للزراعة، والمستقرين، فأساسهم الثقافي جيد وليس فيه ما يبرر هدمه، ولكنه يزخر بكل ما يدعو الى النمو والتطور.

ب- نبه المؤلفان الى ضرورة تجنب أخطار الماضي، عند التخطيط لسياسة تعليمية لقوم مثل الصوماليين. كما يجب الابتعاد عن السياسة التي ترمي الى تخريج طلاب ناجحين في امتحان علوم كالتجارة والقانون والآداب، دون توفير فرص عمل لهم. تلك السياسة تصبح جريمة اجتماعية كبرى، يتمخض عنها رد فعل سالب سوف تعاني منه تلك المجموعة. اذ يحس الفرد من أولئك الطلاب بخيبة الأمل مما يشكل خطورة كبيرة على المجتمع. ويلاحظ المؤلفان أن الذي يزيد الأمر سوءا احتلال الأجانب لمواقع في العمل كان من المفترض أن يشغلها الصوماليون.

ج- يؤكد المؤلفان على الضرورة تعليم الصوماليين المسلمين القرآن الكريم والشريعة الاسلامية وسيرة الرسول (ص).

د- وأشارت المذكرة: الى وقوف رجال الدين ضد التعليم القائم، وتحريضهم السكان على مقاطعته، وذلك بسبب كراهيتهم للأوروبيين الذين ينشرون هذا التعليم. ويعتقد هاملتون وارسكين: أن هذه المعارضة سوف تتلاشى إذا كونت لجنة من العلماء الأحمدية، توكل اليها رعاية شئون التعليم.

وتجدر الاشارة الى أن هناك عشرة من العلماء الصوماليين المسلمين - هذا ما تؤكده المذكرة- وانهم على استعداد في الاتفاق على انشاء كلية، يكون لهم عليها حق الرعاية والارشاد. ويملكون الصلاحية المطلقة في وضع مناهجها، واعداد تفاصيل المراحل الدراسية بها.

هـ- ويرى المؤلفان -وهما ينظران الى مستقبل التعليم في المحمية- أن مسئولية التعليم الابتدائي تقع على كاهل المراكز الادارية للمحمية المقترحة وتقوم بتعليم أبناء وبنات السكان المحليين. على أن تفتح الكليات أبوابها لتسمح بقبول أبناء سكان المحمية وأبناء الصوماليين من عدن والذين نجحوا في امتحان الدخول في علوم الدين والتاريخ والجغرافيا والرياضيات. وتجدر الاشارة الى أن الامتحان يعد باللغة الانجليزية عدا مادة الدين التي يتم اعدادها باللغة العربية.

ثانيا: الجانب العسكري:

آ- يقرر هاملتون وارسكين في مذكرتهما: بأن مؤهلات الصومالي كمحارب معروفة لدى قبائل شرق افريقيا. فحملات الجهاد التي قادها أحمد الجران خلال القرن السادس عشر في اثيوبيا لم تتوقف الا بتدخل البرتغاليين. وشاهد آخر على شدة مراس الصوماليين الحربية في التاريخ الحديث، يؤكده جهاد السيد محمد عبد الله حسن ضد الجيوش البريطانية والايطالية والحبشية والتي الحق فيها بعض الهزائم على تلك الجيوش. ولم

ينتهي ذلك الجهاد الا بوفاة السيد المجاهد. وذلك دليل قوي على شجاعة الصوماليين. وخلال تعاون الصوماليين مع السلطات البريطانية كونت منهم وحدات جمالة ومشاة على درجة عالية من الجودة تتبع لفرقة البنادق الافريقية الملكية، وفرق التحرك السريع.

ب- أقر القادة العسكريون الفرنسيون بأن أحسن فرقهم تتكون من مواطني الصومال البريطاني وأشار العسكريون الايطاليون الى أن الصوماليين يحتلون المرتبة الثانية من حيث الكفاءة العسكرية بعد التجريبيين الأثيوبيين.

ج- يؤكد هاملتون وارسكين في مذكرتهما: أن الهدف الأساسي منها هو اظهار التغيرات التي طرأت على المستعمرات والمحميات البريطانية. ويعتقدان: انه قد آن الأوان لحكومة جلالة الملك أن تفكر بجدية في منح الصوماليين قدرا من الحقوق بأن تجمعهم داخل حدودهم الطبيعية والقبلية داخل الصومال الموحد. وبذلك توفر وتضمن وجود رصيد سياسي واقتصادي لحكومة جلالة الملك وللامبراطورية. فالصومال بوضعه الجديد سيوفر لبريطانيا مستودعا ضخما عالي القيمة، من المحاربين الأذكياء المقتدرين الذين يكون بوسعهم استعمال الأسلحة الحديثة وسبل المواصلات الجديدة.

د- يؤكد المؤلفان أن الامبراطورية في حاجة ماسة لهذا المستودع العسكري القيم، الذي سوف يتعاطف مع بريطانيا في سياسة طويلة المدى وضرورية لتقويها. ولكنهما يبديان الكثير من الشك والتخوف من احتمال اجهاض هذه المساعي من الموظفين البيروقراطيين القائمين بالأمر في الادارة البريطانية.

هـ- يتصور المؤلفان انه إذا أمكن توحيد كل الصوماليين في قومية واحدة باعلان ذلك وتطبيقه فعليا، فسوف يشعر الصوماليون -لأول مرة- بأن حلم العمر قد تحقق، بأن يصبحوا أمة واحدة تحت الرعاية البريطانية وفي

اطار الامبراطورية. يعتقد هاملتون وارسكين: انه إذا حدث ذلك فان بريطانيا يمكنها أن تطلب من الصوماليين مشاركتهم الكاملة بجانبها، أثناء الحرب. ويضحي الصومالي الذي كان يحارب بجانب ايطاليا محاربا بجانب بريطانيا.

ثالثا: الجانب الاقتصادي:

آ- كان الصومال في السابق يتكون من أربعة أقاليم منها المستعمرة ومنها المحمية، لاترىط بينها صلة اقتصادية واضحة. تحكم بواسطة ادارات مختلفة في الصومال البريطاني، والصومال الايطالي، والصومال الفرنسي، والانفدي في كينيا. جمع هذه الأقاليم في صومال واحد يجعل منها بلدا يمكنه أن يكتفي ذاتيا من الناحية الاقتصادية.

ب- إذا نظرنا للأحوال الاقتصادية لتلك الأقاليم فاننا نرى أن الصومال البريطاني (المحمية) ظل دائما عالة على دافع الضريبة البريطاني. أما مديرية الأوغادين في جنوب شرق اثيوبيا فلم تحظ بأي نوع من الاستقرار الاقتصادي. بل كانت مجالا للمنازعات والاضطرابات. إذ انها لم تعترف مطلقا بالسيادة الاثيوبية وكانت تخضع بشكل متواصل لحملات تأديبية تقوم بها كل من بريطانيا وايطاليا لحماية ادارتيهما. ومما زاد الحال سوءا نشوب حرب الوال الوال في عام 1935م بين اثيوبيا ايطاليا. ولعل الظاهرة الاقتصادية الوحيدة قد تمثلت في جباية الضرائب التي كانت تجمع لصالح اثيوبيا تحت تهديد السلاح. اضافة الى مظاهر تجارة الرقيق التي انتشرت في الأقليم. ولعلنا نشير الى الميزة الاقتصادية الوحيدة لأقليم الأوغادين -في فترة الحرب الإيطالية الحبشية وما بعدها- إذ انه كان يشكل حاجزا طبيعيا (صحراويا) بين المهاجمين الامهرا والزراع الايطاليين. فيما عدا ذلك ليس هناك أفضلية اقتصادية تذكر لهذا الاقليم.

ج- أما الصومال الايطالي فقد وصل الى مرحلة لابأس بها من التطور خلال نشاط الشركة الايطالية (روباتينو). ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية

أوقف ذلك التقدم. وقد قامت تجارة محدودة بين اقليمي الجوبلاند والانفدي اللذين يقعان في أقصى جنوب الصومال، مع جزيرة لامو. ويجدر بالذكر أن جوبالاند والانفدي يعتبران لفترة طويلة عالة على اقتصاد المستعمرة الكينية المكتفية ذاتيا.

د- وضعت -هذه الأجزاء الأربعة المنفصلة عن بعضها البعض، لأمة متجانسة من أذكى شعوب القارة الافريقية وذات مواهب متعددة في المجالين التجاري والعسكري وغيرهما تحت رحمة أربعة ادارات دولية مختلفة ومتناقضة في أهدافها ومصالحها. واستخدمت أولئك الصوماليين لأغراضها السياسية المتناحرة، وطموحاتها الخاصة. مما دفعهم للتعاون والتصادم ضد بعضهم البعض وضد جيرانهم. وعلى الرغم من ذلك فان تلك القوى تشتكي: من أن هذه المديريات الصومالية المنفصلة والمفككة تعيش عالة على ميزانياتها. وتنظر تلك الدول الى رعاياها الصوماليين كمجموعة لاجدوى ولافائدة منها اقتصاديا.

هـ- يتساءل هاملتون وارسنكين عن الجدوى الاقتصادية التي يمكن تحقيقها من دمج المناطق الصومالية الاربعة في ادارة واحدة؟ ويعتقدان: أن ذلك الدمج لن يحقق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي، فحسب، بل ستكون له قدرة على استقلال وتطوير امكانيات الأراضي الشاسعة لتلك المناطق التي تقع بين المحيط الهندي والمرتفعات الاثيوبية.

و- وتفصل المذكرة طبيعة ذلك الدمج بالاشارة الى أن الحل الاقتصادي يكمن في جمع هذه الأجزاء الأربعة في صومال واحد له ميزانية واحدة لادارة وتطوير كل المنطقة. ويرى المؤلفان: أن الأراضي الصومالية ليست جميعها صحراوية، ويمكن مقارنتها بصحراء السودان وشمال افريقيا وبها يوجد كثير من الأعشاب والحشائش الغنية بما في ذلك نبات السافنا والأشجار الكبيرة. كماتوجد في بعض أجزائها غابات تتخللها انهار كبيرة. من هذه الأنهار نهر جوبا الذي يصلح لملاحة السفن الكبيرة لمسافات تبلغ

500 خمسمائة ميل أو مئتان وثمانين ميلا 280. وقد طور الايطاليون أراضي زراعية استخدموا فيها الري النهري وانتجوا القطن واستخرجوا الزيوت النباتية ومنتجات مدارية أخرى للتصدير. ويقترح هاملتون وارسكين الاستفادة بتخزين المياه القوية لنهر الجوبا التي تمر عبر أراضي الأوغادين الصومالية، منحدرة من مرتفعات الهضبة الاثيوبية، هناك حيث تصل معدلات الأمطار الى 100 مائة بوصة في السنة. ويجد بعضها طريقه عبر عدد من القنوات الى الصومال. اضافة الى أن التربة في تلك المنطقة ذات طبيعة بركانية خصبة ويمكن ريها في سهولة ويسر. واذا ما تم اجراء مسح جيولوجي في الصومال مستقبلا ربما تمخض عنه الكشف عن بعض المعادن غير المعروفة. أما الثروة الرئيسية التي يعتمد عليها سكان تلك المناطق فهي الثروة الحيوانية التي تأتي بعائد نقدي يساعد في شراء الملابس القطنية وغيرها والتي يحتاجها الصوماليون. وبالامكان تطوير صناعة مستخرجات المواشي وتحسين مستوى معيشة الصوماليين في مجملها بتطوير مشروعات المياه عن طريق حفر الآبار. فقد جربت كل من كينيا والادارة الايطالية هذه الطريقة ونجحوا في شق قنوات من الأنهار وبناء خزانات ساعد في انشائها الأهالي مثل تلك التي قام بحفرها القالا الوردي.

يتم بسهولة تصدير المنتجات الصومالية خلال موانئ زيلع واوبيا وميركا وبرافا وكيونغا والموانئ العربية والصومالية الكبيرة والقديمة جدا مثل بربرة ومقديشو وكسمايو ولامو. ويمكن للصوماليين عن طريق هذه المدن الكبرى، الحصول على دخل ثابت من عائد الضرائب والجمارك من الصادرات والواردات. أما ما يتعلق بالضرائب المباشرة والمطالبة بها فقد كانت أمرا مجهولا عند الصوماليين في ذلك الزمان. وكانت المطالبة بها قد تسببت في الاضطرابات السياسية. وقد ثبت عدم صحة الدعوى القائلة: بأن البريطانيين لايمارسون أخذ ضريبة الصادر عن المنتجات في ممتلكاتهم فقد أثبت الواقع أنهم يمارسونها في زنجبار التي كانت تعتمد على تجارة القرنفل وتصديرها

ز- تلح المذكرة في التأكيد على ضرورة خلق صومال موحد من الناحية الاقتصادية تعود فوائده للصوماليين وللدولة الراعية وهي بريطانية في هذه الحالة . وتوصي المذكرة بألا تتوقف تنمية الصومال بسبب قوانين مقيدة لاستيطان البريطانيين البيض ومشاريعهم الاستثمارية في الصومال. فقد تسبب حرمان البريطانيين البيض في الماضي من الاستيطان والاستثمار في صومال المحمية والانفدي من التخلف الاقتصادي لهذه المناطق. واذا استمرت سياسة المنع هذه، فمن شأنها أن تخلق وضعا سيئا يسبب العداوة بين الاداريين والمستوطنين البيض، تماما كما حدث في فترة ما في شرق افريقيا. وتقترح المذكرة: عدم تشجيع النزاعات الوطنية التي قد تحول دون تنفيذ سياسة الاستيطان مثل شعار «الصومال للصوماليين». وتحذر المذكرة في نفس الوقت من الخطر السياسي الماثل في تشجيع هجرة الهنود والاسيويين، في اشارة هنا الى تجربة بريطانيا في شرق افريقيا. ولايمانع هاملتون وارسكين بالنسبة للتعامل مع الايطاليين، أن يبقى من يريد منهم العمل داخل المحمية الجديدة حيث أن روح العمل الجاد تجعل منهم مثالا طيبا للصوماليين الذين كانوا ينظرون للعمل كمظهر من مظاهر العبودية، ولكنهم تحت قيادة رشيدة يمكنهم أن يكونوا من أفضل العاملين.

خلاصة ما هدفت إليه المذكرة:

بعد استعراضنا لأهم البنود في هاملتون وارسكين نخلص الى التالي: أن الفكرة الرئيسية المحورية في هذه المذكرة تؤكد: الحرص الكبير منها على جمع الشتات الصومالي في القرن الافريقي في ادارة واحدة تخدم تطلعات الصوماليين السياسية والادارية من ناحية وتفيد الامبراطورية البريطانية في النواحي العسكرية والادارية والسياسية. فقد أرسلت المذكرة التي نحن بصددها الآن في اغسطس عام 1941م الى وزارة المستعمرات البريطانية. وتسلمها المستر لويد Lioyd في وزارة المستعمرات وحول المستر لويد هذه المذكرة إلى المستر ماكريث Mackereth [29] في وزارة الخارجية بصورة إلى

وزارة الحرب معلقا عليها. وأشار المستر لويد في تعليقه الى المناقشة التي دارت بينه وبين السير فنسنت قلندV.Glenday أحد دعامات الادارة الاستعمارية البريطانية، والحاكم العام السابق للمحمية البريطانية الصومالية والانفدي الكينية والذي كان يزور لندن انذاك في اجازة طويلة في انتظار عودة المحمية مرة أخرى تحت ادارة وزارة المستعمرات البريطانية بعد الحرب وفي تلك المناقشة (أشار المستر قلندي) صاحب الخبرة الواسعة في ادارة شئون الصوماليين: الى أن تصريحات حكومة جلالة الملك المتكررة ونفيها لتهمة التوسع في الأراضي الاثيوبية تجعل من مقترحات هاملتون وارسكين حول وضع الأراضي التي يسكنها الصوماليون تحت الادارة البريطانية أمرا صعب التحقيق. ناهيك عن تعويضها بأراضي بريطانية في مكان آخر الأمر الذي يبدو مستحيلا. ويتساءل قلندي في مسار تعليقه على المذكرة عن مدى ملائمة المنطقة المقترحة لإدارة عالية. كما تساءل عن مدى موافقة الصوماليين على هذا النوع من الحكم. وأي نوع من التعويض من حيث الأراضي أو غيرها يمكن أن يمنح للذين تنازلوا عن أراضيهم لهذه الدولة الجديدة؟ وكيف يمكن أن تدار منطقة لاتملك قوة اقتصادية أو استقرارا ماليا؟

ويري قلندي أن كل هذه المسائل لايمكن المضي في مناقشتها والوصول بها الى نتائجها المفترضة في ذلك الوقت. ويقترح قلندي ابقاء الأمور كما هي عليه في الوضع الراهن أثناء الحرب وأن تؤجل كغيرها من المواضيع الرئيسية لمؤتمر السلام. ويرى مسؤول بريطاني آخر هو المستر قولدر E.B.Golder من وزارة الخارجية أن مذكرة هاملتون وارسكين تحمل آراء على درجة كبيرة من المبالغة. وخير مثال لذلك هو تضخيمها لعدد الصوماليين في القرن الافريقي. ومع ذلك فهو يعتقد بأن المذكرة لاتخلو من أهمية وهي تطرح الفكرة الأساسية حول امكانية لم الشمل الصومالي. ولكنه في نفس الوقت لايحبذ أن تكون بريطانيا هي الدولة الراعية للكيان الصومالي الجديد المقترح ويبرر ذلك بعدة عوامل أولها: أن لبريطانيا ما

يكفيها ويغنيها من مناطق النفوذ في افريقيا والتي يمكن أن تدر عليها عائدا مجزيا بعد الصرف عليها، على غير الحال في الصومال. **وثانيها : أن** الصوماليين لم يخضعوا أبدا لسيطرة القوى الأوروبية وتوجيهاتها في السابق. **وثالثها** : أن اعتقاد هاملتون وارسكين عن الاعتماد على الجندي الصومالي أمر فيه كثير من المبالغة، على ضوء تجربة ايطاليا معهم. **ورابعها** يرى المستر قولدر أن ايطاليا وفقا لتجربتها السابقة في ادارة شؤون الصوماليين، ربما كانت الدولة الأنسب لادارة الدولة الصومالية المقترحة **وخامسها** : يعتقد قولدر -شأنه في ذلك شأن قلندي من قبله -انه من الأفضل ارجاء الأمر برمته الى مؤتمر السلام، وعدم الانقياد وراء حفنة من الإداريين البريطانيين المعجبين بالصوماليين[30].

تحتوي المذكرة اضافة الى آراء السير فنسنت قلندي والمستر قولدر سابقا الذكر، على فقرات مجحفة في حق الشعوب المستعمرة الأخرى. كما تتحدث في فقرات أخرى عن وقائع أثبتت الدراسات التاريخية عدم صحتها. خاصة فيما يتعلق بالزعم القائل بنفور الصوماليين من تلقي التعليم على أيدي الشعوب الافريقية الأخرى كالسودانيين ولكن الذي حدث هو عكس ذلك، فقد أضحت كلية غردون التذكارية في الخرطوم منذ العشرينات قبلة للطلاب الصوماليين. تخرج منها نفر من زعامات الحركة الوطنية الصومالية. كما قام رجالات التعليم من السودانيين بدور فاعل في انشاء المؤسسات التعليمية في الصومال حدث ذلك تحت ظل الإدارة البريطانية في المحمية[31].

أشارت الوثائق البريطانية انذاك الى انه أثناء تبادل وجهات النظر بين الادارات الاستعمارية المختلفة، حول فحوى مذكرة هاملتون وارسكين وما جاء فيها من امكانية جمع الأجزاء الصومالية المتعددة في اطار شعار «الصومال الكبرى» أشارت الوثائق الى اشتعال حدة التوتر والاضطرابات بين الصوماليين والاثيوبيين في مدينة هرر[32]. لم تشغل هذه الأحداث بال

الادارة العسكرية البريطانية في اثيوبيا وحسب، ولكنها نبهت الى إعادة النظر في مسألة العلائق الاثيوبية -الصومالية برمتها كشفت هذه الأحداث عن يقظة الصوماليين ووعيهم بالغبن الواقع عليهم نتيجة للاتفاقيات والترتيبات التي وضعتهم من الناحية الادارية تحت رحمة اثيوبيا. فقد حصلت اثيوبيا على مناطق نفوذ على حساب الصوماليين، وخير مثال لذلك اتفاقية 1897م مع بريطانيا. وبمعنى آخر، بدأ الصوماليون تحت تأثير الحركة الوطنية الصومالية النامية التي تبنت شعار «الصومال الكبرى» -يبدون امتعاضهم وعدم رضاهم عن تلك السياسة التي أدت إلى تشتيتهم يضاف الى ذلك سوء معاملة الاثيوبيين لهم مما فجر أحداث هرر المشار اليها.

ودفعت كل هذه الأحداث بارنست بيفن Ernest Bevin وزير الخارجية البريطاني بأن يتبنى ويدافع بقوة عن شعار «الصومال الكبرى». غير أن الدول الثلاث الكبرى قد رفضت هذا الشعار بنفس القوة التي دافع ارنست بيفين عنه. وتصدت له روسيا والولايات المتحدة وفرنسا في مؤتمر السلام عام 1946م. واتهمت هذه الدول بريطانيا بأنها من خلال رفع هذا الشعار، تسعى للمزيد من دعم امبراطوريتها[33]. وتجدر بالاشارة الى أن محاولات توحيد الأمة الصومالية المقترحة من بعض الاداريين البريطانيين لم تجد استجابة جادة من بعض الدوائر الرسمية في بريطانيا. اذ لم تقتنع تلك الجهات بالحجج التي طرحها الاداريون المعنيون بشؤون الصومال حول جدوى مشروع الصومال الكبرى. وواجهت اثيوبيا بالرفض المطلق ذلك المشروع الذي يقضي بتحقيقه على السيادة الاثيوبية على الاوغادين.

لقد تلقف حزب وحدة الشباب الصومالي منذ نشأته في الأعوام 1943- 1945، شعار «الصومال الكبرى»، وتبناه وقابل أعضاء هذا الحزب بالترحيب اقتراح بيفين الداعي للم الشمل الصومالي. ولكن الذي وقف حجر عثرة في طريق آمال الصوماليين، هوالمفهوم السياسي الاثيوبي في بناء

الدولة[34]. وقد أدى هذا التعارض في المفاهيم والمطامح السياسية، بعد الاستقلال، الى صراع وحروب حول الحدود المشتركة التي تبلغ 1.100 ميل (ألف ومائة ميل) بين اثيوبيا ودولة الصومال الوليدة وكينيا. وتظل مشكلة الحدود الصومالية الاثيوبية، أصعب مشكلة دبلوماسية واجهت اثيوبيا منذ الحرب العالمية الثانية.

والذي يجعل تلك المشكلة أكثر تعقيدا هو الحاق الأوغادين بالصومال في المشروع المقترح، الأمر الذي يتسبب في اختلال مبدأ سيادة الامبراطورية الاثيوبية ذات الأعراق المتعددة. وتخشى الامبراطورية الاثيوبية في حالة تنازلها عن الأوغادين أن يؤدي ذلك الى سابقة تشجع الأقليات الأخرى في الانسلاخ عنها. لم تقو بريطانيا على تأييد المشروع لسببين: الأول، لم تكن بامكانها الوقوف ضد رغبة الدول الكبرى السبب الثاني: كانت بريطانيا تحرص على كسب ود حليفتها الامبراطورية الاثيوبية، ولذلك فقد أعادت اليها الأوغادين، والمنطقة المحجوزة في الفترة 1948م-1955م. وأبقت على الانفدي داخل الحدود الكينية في عام 1963م. وأعلنت بريطانيا في بداية الستينات بصورة رسمية موت شعار «الصومال الكبرى»! . وبعد تخلي بريطانيا عن ذلك الشعار واجه الصوماليون وحدهم مسؤولية رفعه، وتحمل العبء الكبير في الدفاع عنه ومحاولة تحقيقه في الواقع. ذلك ما قامت به الحركة الوطنية، والحكومات الصومالية المتعاقبة على السلطة. مما جعل الدولة الصومالية تواجه الكثير من المصاعب والأعباء وتفتح العديد من الجبهات مع جيرانها لتحقيق ذلك الشعار، مما تسبب في العديد من الآثار السلبية التي قضت على أمن الدولة واستقرارها كما هدمت من بنياتها الأساسية الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، الأمر الذي أدى في النهاية الى انهيار الدولة في عام 1991م!

Footnotes

لمزيد من المعلومات حول أصل الصوماليين والنظريات حول هذا الموضوع انظر :

محاسن عبد القادر الصافي، المسألة الصومالية في كينيا، دار هايل للطباعة والنشر، الخرطوم، 1988م ص 2-6.

2- Mesfin Wolde Mariam, The background of Ethio-Somali Boundary Dispute (Addis Ababa, 1964) P.27.

3- R.L Hess, Ethiopia: The Modernization of Autocracy, (Cornell, University Press, Thaca, London, 1970) P.222.

4- Jhon H.Spencer, A personsl Account of the Haile Selassie Years, (Reference Publications, Inc, USA, 1984) P.643.

5- Mesfin Wolde Mariam, op. cit., P.29

6- Richald Greenfield, Ethiopia: Anew Political History, (Pall Mall Press, London, sec. ed. 1969) P. 99.

7- Harold G.Marcus, The Life and Times of Menelik II:

thiopia 1844 -1913, (Clarendon Press, Oxford. 1975) P. 138.

8- John Drysdale, The Somali Diput, (Pall Mall Press, London, 1964), pp. 33 -40.

9- Robert L.Hess, op. cit. P.220.

10- Mekuria Bulcha, Flight and Integation: Causes of mass Exodus From Ethiopia and Problems of Integration in the Sudan. (Uppsala, 1988) P.46.

11- John Drysdale op. cit., pp. 33 -40.

12- Ibid., pp. 40 -47.

13- Reihard Escher, "Nationalism and Particularism of the Ogaden Somali in Ethiopia", Papers of the 12th International Conference of Ethiopian Studies, vol., I, (ed) Harold Marcus, (The Red Sea Press, Jnc., 1994), P.650.

15- Teferra Haile sellasie, The Ethiopian Revolution (London, 1997).

16- John H.Spencer, Ethiopia at Bay, (U.S.A., 1984) P.35.

17- Reinhard Escher, op. cit, P.650.

18- Mesfin Wolde Mariam op. cit., p.48.

13- في مذكرة الى سير هنري مور في وزارة المستعمرات بتاريخ 22/ 3/ 1943م ذكر جيرالد ريس حاكم الانقدي أن الامبراطور صار يدير اهتمامه أكثر الى امريكا التي يعتقد بأنها ستكون أفيد اليه في المستقبل من بريطانيا. انظر:

Co/847/22/25/Memo from G.Reece to Henry Moor, Isiolo 22/3/1934.

2- Christine Sanford, Ethiopia Under Sellesie (J.M. Dent and Sey, London, 1946), P.128.

21- John H.Spencer, op. cit, P.146.

22- CO/847/24/6 Secret Note by the Military Governor of British Somaliland on the N.W. Bourdary 19/9/1944.

23- Mesfein Wolde Mariam, op. cit., p.56.

24- Co/;847/24/7 Ethiopia: Gerenal Policy 1944.

25- Mesfin Wolde Mariam, op. cit ., p.48. and Drysdale 67.

26- CO/847/24/6 Scecond Report on the Committee on Policy in Eth iopia para. 3(ii) 26/10/1944.

27- CO/ 847/22/13 Memo. by: Administration of British Somaliland sep. 1939.

28- CO/847/22/31 Memo-by Hamilton and Erskine 19/4/1941.

29- CO/847/22/31 Lioyd to Makereh 11/8/1941.

30- CO/847/22/31 Memo by E.B Golder 8/8/1941.

31- Mahasin A.G.H. EL-Safi, "Sudanese Somali Relations", Sudan Foreign Relations: Arab and African Dimensions (Institute of African and Asian Studies, U of K, 1999) . Eds: Medani Ahmed and Hamid Osman, pp. 172-191.

32- CO/847/22/24 SA 47/15y/5N Secret, memo political officer. Nairobi 26/6/1942.

33- CO/847/22/20 Lioyd to Mackereth 3/12/1941.

34- Robert L.Hess. op. cit., pp.219 -220.

* * *

نظرية الشعر[١] في النقد العربي القديم

حسين جمعة*

سأكتب عن شيء كتب عنه الآخرون وتعددت فيه البحوث والدراسات الحديثة.

ستقول: لماذا إذن..؟

فأقول: من الخطأ الزعم القائل: «ليس بالإمكان أحسن مما كان». والواقع أنني لا أدعي بأنني أكتب أفضل أو أحسن وأوسع مما كتب الباحثون في تاريخ النقد الأدبي عند العرب.

(*) – حسين جمعة: أديب وباحث من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والنقد الأدبي.

(١) – أقصد بمصطلح النظرية، في كل موضع وردت فيه: وجهة النظر، لا الفرضية العلمية المحققة.

ولكني أزعم أنني سألفت النظر، في تضاعيف هذا البحث الموجز، إلى منعطفات نقدية لم يستوفها الباحثون.

سأكتب إذن، عن نظرية الشعر العربي عند القدماء، عن نشأتها وتطورها وعن المعايير النقدية التي تمحورت في فلكها.

(١)

إن اهتمام العرب، في العصر الجاهلي وصدر الاسلام، بالقيم اللغوية، وبدقة توظيف دلالاتها الصوتية في توليد المعاني والصور، والتفرد بأساليبهم الايجازية البليغة التي تمثل قولهم: «**خير الكلام ماقل ودل**»، ليرجح عندي أن هذه اللغة الفصحوية العريقة، كانت مقدسة عند العرب.

ثم جاء القرآن، بلغته البيانية، ليضفي على قدسيتها القومية قدسية دينية. وبهذا التكامل، القومي الديني، كانت اللغة عندهم، ومازالت، هي الوطن.

ويعجبني في هذا المدار قول أحد المستشرقين الفرنسيين: «**إن العرب كانوا كالفرنسيين يعدون لغتهم هي الوطن**».

على هذه المعايير اللغوية، تأصل الشعر العربي، وتأصلت عليها جذور النقد الأدبي.

ولعل من أبرز القيم النقدية اللغوية، في العصر الجاهلي، ماروي - إن صحت الرواية - عما حدث في **عكاظ** من تلك المداخلة النقدية المشهورة التي طرحها **النابغة الذبياني**، حول قول **حسان بن ثابت**، وكان يستمع إليه:

لنا الجفنات الغُر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال له النابغة:

«إنك لم تحسن الفخر، لأنك جعلت (الجفنات) في موضع (الجفان). وجعلت (الغر) في موضع (البيض). وقلت (يلمعن)

وكان ينبغي أن تقول (يشرقن) وقلت (أسيافنا) في موضع (سيوفنا) وقلت (يقطرن) في موضع (يجرين)..

فامتعض **حسان** وغادر الموسم.

وينفي **طه أحمد ابراهيم** هذه الرواية بقوله: ***«إن الجاهليين لم يكونوا يعرفون جمع التكسير وجمع التصحيح وجموع القلة والكثرة، إذ لم يتوفروا على الذهن العلمي الذي يفرق بين هذه المصطلحات الصرفية»***[٢].

إن نفي هذه الرواية، بهذا التعليل، مردود عليه، لان **النابغة** لم يستعمل أي مصطلح من هذه المصطلحات الصرفية العلمية، إنما قوّم ألفاظ الشاعر تقويماً لغوياً دلالياً، لتأدية المعاني بدقة كما هي مستعملة في لغة العرب. ونحن نعلم أن المدرسة العكاظية إنما كانت تعقد مواسمها الشعرية لاستماع القبائل إلى أشعار بعضها، لانتقاء أفصح وأجمل اللهجات القبلية وأدقها في تركيب المعاني الشعرية. وإذن فقد كانت العرب تستعمل مختلف الجموع، وإن لم تعرف مسمياتها العلمية وحتى لو كانت هذه الرواية قد وضعت في الاسلام، فإنها موشر إلى القيم اللغوية التي كان العرب يجلونها ويعنون بها عناية دلالية فقهية. وكانت هذه اللغة بقيمها الصوتية الدلالية، هي المحور الذي كان يستقطب خبراء الشعر، لتمييز الصحيح من الخطأ والألفاظ الرشيقة من الثقيلة والأحرف المتناغمة في إيقاعاتها الموسيقية من الرائشة أو المتنافرة.

هذا بالقياس إلى معاني المفردات اللغوية، أما بالقياس إلى نقد المعاني ذاتها، فهناك روايات جمة عن مواقف خبراء الشعر من المعاني. والطريف من مظاهر النقد الجاهلي للمعاني، ماروي عن خصومة وقعت بين أربعة من شعراء **تميم**، هم: **الزبرقان بن بدر، والمخبل السعدي، وعبدة بن الطيب، وعمرو بن الأهتم. اجتمع هؤلاء الشعراء الأربعة** في

(٢) طه أحمد ابراهيم: تاريخ النقد عند العرب- ص٣٤.

مجلس شراب وادعى كل منهم الأفضلية في شعره، فاختصموا واحتكموا إلى خبير بالشعر. فقال الخبير: «**أما عمرو فشعره برود يمانية تطوى وتنشر. وأما الزبرقان، فكأنه أتى جزوراً قد نحرت، فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره. وأما المخبل، فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء. وأما عبدة، فشعره كمزادة أحكم خرزها، فليس يقطر منها شيء**»[٣].

بهذه العبارات المجازية الموجزة، المنتزعة من البيئة البدوية البسيطة، وعلى طريقتهم المألوفة «**خير الكلام ماقل ودل**»، اختصر هذا الخبير أحكامه على المعاني التي تفرد بها كل واحد من أولئك الشعراء، فجاءت ترميزاً فطرياً لطبيعة كل واحد منهم.

وإذن، فقد كان في الجاهلية خبراء بالشعر يميزون الجيد من الرديء، ويستبرون خصائص الشعراء اللغوية والمعنوية.

(٢)

وفي صدر الإسلام والعصر الأموي، نزح الشعر من الحجاز ونجد إلى البيئات الجديدة الثلاث، إلى المدينة والعراق والشام. فكان لكل بيئة أثرها في معطيات الشعراء الثقافية والاجتماعية والسياسية. ففي المدينة، ظهر شعر الغزل وأبيح للشعراء الغزلين حرية التشبيب إلى حد بعيد، لأسباب سياسية، ونتيجة لحياة الترف، فنشأت المتديات السمرية كمنتدى **سكينة بنت الحسين** الذي تقاطر إليه الشعراء الغزلون والمغنون، وبالغ الشعراء في وصف المرأة وصفاً يكاد يكون عضوياً.

وكان من الطبيعي أن يواكب النقد هذا اللون الذي ملأ الحجاز. فظهر في المدينة رجل خبير بالشعر، يدعى: **ابن أبي عتيق**، أحد أحفاد **أبي**

---

(٣) المصدر السابق: ص٤٧.

بكر الصديق. وصف نفسه بقوله: «**أنا بالحسن عالم نظّار**»[٤] أي بحسن الشعر وحسن المرأة.

أولع هذا الخبير بشعر **عمر بن أبي ربيعة**، وفضله على سائر معاصريه من الشعراء الغزليين، معللاً هذا التفضيل بقوله: «**إن لشعره نوطة بالقلب وعلوقاً بالنفس ودركاً للحاجة ليست لغيره**»[٥].

وقال في وصف الشعر وتقييمه: «**أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه ومتن حشوه وأعرب عن حاجته**»[٦].

فأفضل شعراء قريش عنده، وهو يقصد **ابن أبي ربيعة**، من امتاز بدقة معانيه ووضوحها وقوة تراكيبه وجمالية اسلوبه.

وعلى هذا النحو كان معياره النقدي يتمركز حول هذين المحورين: اللغة والمعاني.

إلى جانب ذلك امتاز **ابن أبي عتيق** بتعلقاته النقدية الساخرة على بعض الشعراء. فقد سلم عليه مرة **قيس الرقيات**، فرد عليه السلام قائلاً: «**وعليك السلام يافارس العمياء**». فاستنكر الشاعر هذا الوصف..! فقال له:

«**أنت سميت نفسك هذا الاسم، حيث قلت في وصف ناقتك:**

سواء عليها ليلها ونهارها

فقال الشاعر: إنما عنيت التعب. فقال له: «**فبيتك يحتاج إلى ترجمان**». أي: إلى تفسير. وهذا عيب في الشعر مستكره.

في هذه التنويعات الطريفة نشأت بواكير النقد في الحجاز، وسوف تتبلور في هذه الأطر.

* * *

(٤) أحمد أمين: النقد الأدبي - ج٢ - ص٤١٧.
(٥) المصدر السابق: ص٤٢٢
(٦) المصدر نفسه: ص٤٢٣

أما في العراق والشام، فقد نحا الشعر، في لغته وأساليبه وفي موضوعاته، منحى الشعر الجاهلي، بداوة في اللغة والأساليب وقبلية في الموضوعات، لأسباب أملتها الحياة الاجتماعية والسياسية.

وكان أكبر شعراء هذين القطرين: **جرير والفرزدق والأخطل** الذي استشرت آفة الهجاء فيما بينهم. وأصبح لكل شاعر منهم حزب ينتصر له وآخر يتعصب عليه.

وبذلك عادت قبلية الشعر، فاستنفد **جرير والفرزدق** طاقاتهما الابداعية في تلك المعارك الهجائية التي جمعت، فيما بعد، بكتاب **«النقائض»**.

وكان من الطبيعي أن يواكب هذا اللون الجديد من الشعر، خبراء الشعر الذين حاولوا أن يفاضلوا بين الشعراء الثلاثة. ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفقوا على من منهم أشعر من الآخر، لأنهم في الحقيقة لم ينقدوا الشعر، إنما كانوا ينقدون النظم، ولأنهم لم يصدروا، في أحكامهم، عن رؤية موضوعية. إنما كانت تتحكم بهم الأذواق الشخصية.

وفي هذا الاطار كان الشعراء الثلاثة يتناوبون نقد بعضهم باطلاق أحكام غير معللة.

ففي المفاضلة بين شاعري النقائض، **جرير والفرزدق**، قال ثالث الأثافي **الأخطل**: **«جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر»** أي أن الأول مطبوع والثاني شاعر صنعة.

وكان **الأخطل التغلبي** يتعصب **للفرزدق على جرير**، فهجا **جريراً** وقبيلته بقصيدة جاء فيها بيته المشهور:

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهم

قالوا لأمهم بولي على النار

وكان البخل أشنع عار يلحق بالقبيلة.

فرد عليه **جرير** بقصيدة يهجو بها قبيلة التغلبي، وفيها بيته المشهور:

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى

حكَّ استه وتمثل الأمثالا

فقال النقد في هذين البيتين: «**بيت الأخطل أقوى وأشنع، وبيت جرير أسيَر**».

واعترف **الأخطل** للفرزدق بقوله: «**إنك وإياي لأشعر منه، ولكنه أوتي من سير الشعر مالم نؤته**»[٧].

لقد حكم **الأخطل لجرير** بسيرورة شعره، أو «**بالعالمية**» إن جاز التعبير، لأن شعره كان يبلغ الأسماع في كل البقاع فيتناشده الخاصة والعامة. وليس بخاف أن سيرورة بيت **جرير** السابق، مصدرها تلك الصورة «**الكاريكاتيرية**» التي رسمها للتغلبي، حيث الحركة التي نكاد نراها والصوت الذي نكاد نسمعه منه وهو يتشدق بافتعال الأمثال تنصلاً من قرى الأضياف. وفي هذا المنحى أيضاً، سئل ابن سلام **الجمحي**: أي البيتين أجود..؟

قول جرير في مدح بني أمية:

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل فيهم:

شُمسُ العداوة حتى يُستقاد لهم

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال الجمحي: «بيت جرير: أحلى وأسير، وبيت الأخطل أجزل وأرزن»[٨]. ولسنا نعرف ماهو المعيار الذي حكم به **للتغلبي** بالجزالة والرزانة..؟

والتقى **جرير** يوماً راوية **كثير عزة**، وكان لكل شاعر راويته، فسأله عن آخر ماقال صاحبه..؟ فأنشده قول **كثير**:

(٧) طه أحمد ابراهيم: تاريخ النقد عند العرب- ص٥١.

(٨) المصدر السابق: ص٥٦

وناديتني حتى إذا ماستبيتني
بقول يُحل العصم سهل الأباطح
توليت عني حيث لا لي حيلة
وغادرت ماغادرت بين الجوانح

فهتف جرير بانفعال: «والله لولا أنه لايَحسُن النخير بشيخ مثلي، لنخرت حتى يهتز هشام في سريره».

وحضر الفرزدق جماعة في «المربد» وكان أحدهم ينشد معلقة لبيد فلما وصل المنشد قوله:

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها
زُبُرٌ تُجِد متونَها أقلامُها

سجد الفرزدق. فقيل له: ماهذا ياأبا فراس..؟ إنما السجدة للقرآن..!
فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر».

سجدة الشعر..! نعم يعرف الشعراء الكبار والنقاد سجدة الشعر، يعرفون مواطن الجمال في جزئيات القصائد، في مفرداتها، ولكنهم لايملكون تعليلاً أو تفسيراً لهذه المعرفة. إنهم ينفعلون ويتأثرون، والذي يتأثر فيهم هو الحس الجمالي فيما يقع على الأشياء الجميلة، ولكنهم لم يتوفروا على توصيف هذا التأثر، لذلك بقي النقد ذاتياً تأثرياً وجزئياً.

* * *

وفي القرن الهجري الثاني انقسم خبراء الشعر حول أشعر الجاهليين والاسلاميين، فانشعبوا في العراق إلى بصريين وكوفيين. البصريون فضلوا من الجاهليين امرأ القيس، والكوفيون فضلوا الأعشى. وأهل البادية فضلوا زهيراً، والحجازيون هاموا في نسيب الجاهليين. ولكنهم لم يتفقوا على معايير موضوعية لتسويغ هذه المفاضلات.

وكان أبو عمرو بن العلاء أخطلياً، بينما كان يونس بن حبيب والمفضل الضبي فرزدقيين. وكان آخرون يفضلون جريراً على الفرزدق

والأخطل، بينما كان غيرهم يرى العكس، دون أن يأتي أحدهم بتفسير معلل لمذهبه لذلك بقي الخلاف قائماً. وهذا ماأكده **يونس** بقوله:

«ماشهدت مجلساً قط ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع الناس على أحدهما»(٩).

وكان **أبو عمرو** شديد التعصب للأخطل، حتى إنه قال: **«لو عاش الأخطل يوماً واحداً في الجاهلية، لما فضلت أحداً عليه»**.

هكذا كانت تتحكم بهم التأثرية الذاتية والعواطف الشخصية.

وكان للنحاة أيضاً دورهم العلمي في تقويم لغة الشعر، ولاسيما بعد أن فشا اللحن بين الشعراء المحدثين نتيجة لاختلاط الموالي بالعرب، فأخذ أولئك النحاة يقوّمون الأشعار وفقاً لمعاييرهم العلمية، بل أخذوا يحاسبون الشعراء على زلاتهم النحوية حساباً عسيراً.

وقد اعترض **الفرزدق** على تقويم سقطاته، وتحدى النحاة بالخروج على معاييرهم فأخفق.

وجاء **الخليل بن أحمد الفراهيدي**، فشدد القيود النحوية واللغوية على الشعراء، وأخذ يحتسب عليهم أخطاءهم ويحذرهم من التمادي في ارتكاب الأخطاء: **«إنما أنتم معشر الشعراء تبع لي، وأنا سكان السفينة. إن قرضتكم ورضيت قولكم نفقتم، وإلا كسدتم»**(١٠).

وعلى هذا النحو من النقد العلمي، تأصل النقد الأدبي على ثنائية اللغة والمعاني.

وكان للغويين دور آخر في تقييم الشعر. فقد رأينا **الأصمعي** يحاول أن ينحو في نقد الشعر نحواً موضوعياً بصرف النظر عن قيمة النظرية التي انتهى إليها. فقد أقام استدلاله على ضعف شعر **حسان بن ثابت**، في الاسلام، بعد أن كان قوياً جزلاً في الجاهلية، على أن الشعر، في نظره،

(٩) أحمد حسن الزيات: في أصول الأدب - ص٥٠

(١٠) المصدر السابق: ص٥٠

«إنما يقوم على الأهواء والشرور. فإذا دخل في الخير والموادعة، ضعف. كان الشعر، في نظره، صدى لحياة مليئة بالمنازعات القبلية التي هي دوافع لقوة الشعر، أما الاسلام فهو خير وإخاء، لذلك لان الشعر في الاسلام ولان معه شعر حسان».

ومع أن هذه الفرضية خطوة رائدة نحو النقد الموضوعي، لكونها نظرة شمولية إلى شعر **حسان**، فإنه من غير المحقق أن الشعر الجاهلي كله كان فخرياً قائماً على المنازعات القبلية. فلقد دخل **زهير بن أبي سلمى** في السلم والموادعة والحكمة دون أن يلين أو يضعف.

وعاصر الاسلام شاعر جاهلي كبير هو **الحطيئة**، فلم يلن شعره أو يضعف. ليس لأن الاسلام لم يدخل قلبه كما قيل، إنما لأنه في الحقيقة، لم يجاوز سن التطور كما جاوزه **حسان** في إسلامه، وكما جاوزه أيضاً **لبيد بن ربيعة**. فهذان الشاعران، وقد بلغا عتياً من العمر في الاسلام، كانا قد استنفدا طاقاتهما الابداعية وقدرتهما الحيوية.

ولقد أصاب **طه حسين** هذه الحقيقة حينما أرجع ظاهرة الضعف في شعر **حسان ولبيد** إلى عاملي الطبع والسن.

قال: **«فالشعراء الذين أرادوا أن يجددوا أنفسهم، بعد أن أسلموا، لم يوفقوا إلى ذلك، لأن الطبع لايستكره في الأدب والفن. وهؤلاء الشعراء قد جاوزوا سن التطور، فلم يكن من اليسير أن يرجعوا أدراجهم وأن يبتكروا لأنفسهم طبعاً جديداً، فكان تجديدهم تكلفاً»**(١١).

وبقي النقد العربي في خلال القرنين، الأول والثاني، تأثرياً ذاتياً، حتى جاء **ابن سلام الجمحي** المتوفى سنة ٢٣٢ بكتابه المنهجي الرائد: **«طبقات الشعراء»**، أول مدونة نقدية موضوعية، حيث اتبع فيه تقسيم

(١١) طه حسين، خصام ونقد «أدب الثورة وثورة الأدب» - ص١٥١.

الشعراء، الجاهليين والاسلاميين، إلى طبقات، حسب تسلسلهم التاريخي، أي حسب عصورهم، وحسب بيئاتهم وأثر هذه البيئات المختلفة في شاعرية كل طبقة، والروافد الثقافية عند كل شاعر في كل طبقة.

يضاف إلى ذلك أنه حقق نسبة الأشعار، إلى قائليها وميز الصحيح من المنحول تمييزاً علمياً. فكان هذا الكتاب من أهم المصادر العلمية التي عول عليها **طه حسين** في شكه بقيمة الشعر الجاهلي، ولاسيما قضايا النحل والانتحال التي كشف عنها النقاب **ابن سلام** وتوسع فيها وعمقها **طه حسين** في كتابه النقدي الرائد «**في الأدب الجاهلي**».

(٤)

في القرن الثالث ازدهرت الحياة الثقافية، العلمية والأدبية والنقدية، وتطور الشعر العربي، فنشأ ما سمي بشعر المحدثين الذين خرجوا عن عمودية الشعر القديم، أمثال **بشار بن برد** و**أبي نواس**، المجددين اللذين أحدثا بتجديدهما خصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، أو بين «**الكلاسيك**» و«**الكلاسيك الجديد**».

وفي معترك هذه الخصومة، أو الصراع بين المذهبين، اندفعت حركة التأليف في نقد الشعر، وظهر كتاب الفقيه الأديب **ابن قتيبة**: «**الشعر والشعراء**» في محاولة لحسم الصراع.

وكان **ابن قتيبة** متمكناً من علوم عصره الدينية واللغوية والنحوية والأدبية والتاريخية، لذلك دلا دلوه في نقد الشعر للتمييز بين الجيد والرديء، بمعياره العلمي الأخلاقي. وعلى أساس هذا المعيار، صنف الشعر في أربعة أضرب جدولية، على النحو التالي:

١- ماحسن لفظه وجاد معناه.

وتمثل له بقول **أبي ذؤيب**:

والنفس راغبة إذا رغبتَها ... وإذا تُرد إلى قليل تقنع

٢- ماحسن لفظه وحلا، فان فتشته لم تجد فائدة في معناه

وتمثل له بقول جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا

وشلاً بعينك مايزال معينا

٣- ماجاد معناه وقصرت ألفاظه، فهو متفاوت.

وتمثل له بقول لبيد:

ماعاتبت المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

٤- ماتأخر لفظه ومعناه معاً، وهو الرديء.

وتمثل له بقول **الأعشى**:

ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعني

شاوٍ مُشلٌ شَلول شَلشل شَوِل

بهذه المعايير الأربعة التي دارت في فلك الألفاظ والمعاني، وقامت على الانتقائية الذوقية الذاتية، بنى **ابن قتيبة** نظريته النقدية. هذه النظرية، التي انحسرت عنها القيم الفنية الجمالية على حساب القيم العلمية الأخلاقية، أخلت بالمعادل بين الفائدة والمتعة. فالصورة الجمالية في هذه اللوحة الفنية الحية في قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدّتْ على حُدْب المطايا رحالنا ولم يعرف الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

هذه اللوحة الفنية وأمثالها لم تستوف عند **ابن قتيبة** شروط الجودة لأنه لم ير فيها فائدة. وهذا دليل على عطالة الحس الجمالي عنده، وعلى أنه يملك الرؤية العلمية ولايملك الرؤيا الفنية. ولذلك أخل بالتوازن النقدي بين المتعة والفائدة، أو بين التأثرية الذاتية وبين الموضوعية.

على أن **لابن قتيبة** استبصارات موضوعية لافتة للنظر. ففي معرض كلامه عن معنى **التكلف** عند الشاعر، تطلع إلى ضرورة توفر القصيدة على الوحدة المعنوية، واللافت للنظر هنا، أنه نظر إلى القصيدة

ككل، إلى بنيتها الكلية، لاإلى مفرداتها الجزئية كما ذهب من قبل في تصنيفه الجدولي.

قال: «**وتتبين التكلف في الشعر بأن ترى البيت في القصيدة مقروناً بغير إلفه. ولذلك قال عمر بن لجأ لأحد الشعراء: أنا أشعر منك. فقال الشاعر: وبم..؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه**»(١٢).

ويستلفت النظر أيضاً إلى ضرورة التوازن بين أغراض القصيدة، فيوجب على الشاعر «**أن يعدل بين أقسامها، فلم يجعل واحداً من أقسامها يغلب على الاخر، ولم يطل فيمل السامع، ولم يقطع وفي النفس ظمأ إلى المزيد**»(١٣).

وفي تعليل «تارات» الشعر «دوافعه»، وأثر العصر والبيئة والعوامل النفسية، أجاد ابن قتيبة بالتنظير لهذه العوامل، وعبر عن موقف تقدمي من الصراع بين القديم والجديد.

قال: «**ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر، مختاراً له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولانظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت، بعين العدل، إلى الفريقين. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويرذل الشعر الرصين، ولاعيب فيه إلا أنه قيل في زمانه أو رأى قائله**»(١٤).

ثم إنه، بعد أن بدا لنا تقدمياً، مالبث أن ارتد إلى إلفه، فتمسك بعمودية القصيدة وبمنهجية القدماء، متنصلاً مما أكد عليه من أثر البيئة والعصر.

قال: «**وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب القدماء، فيقف على منزل عامر أو يبكي على مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، لا ان يرحل**

(١٢) ابن قتيبة: مقدمة الشعر والشعراء.

(١٣) المصدر السابق: المقدمة.

(١٤) مقدمة المصدر السابق.

على بغل أو حمار ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، لا أن يرد المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا الأواجن، ولا أن يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والعرارة..»[١٥].

بهذه الاملاءات الرجعية سقطت عند **ابن قتيبة** عوامل البيئة والعصر والتقدمية. فمن هو ذلك الشاعر الشقي، على حد تعبير **أبي نواس**، الذي سيعود، في القرن الثالث، بمرسوم **ابن قتيبة**، ليقطع إلى ممدوحه المفازات ويصف الشيح والقيصوم والعرار، ويستريح إلى الغدران الآنسة ويستمتع بها، كما قال **عنترة من قبل:**

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرداً كفعل الشارب المترنم

أم يقف على الأطلال ويبكيها في عصر القصور المشيّدة والأنهار الجارية والرياض الغناء. . ؟

أكان على **أبي الطيب**، فيما بعد، أن يعدل عن **«شعب بوان»** ليقطع إلى ممدوحه هجير البادية ومنابت الشيح وليستوقف الركب على الرسوم العافية فيصفها ويتذكر الأحبة فيبكيهم بموجب مرسوم ابن قتيبة. . ؟

لاشك في أن ابن قتيبة كان خبيراً بالشعر، ويتمتع باستبصارات نظرية بعيدة في عالم الشعر، ولكنه في الحقيقة لم يكن ناقداً للشعر، إنما كان خبيراً بأشعار العرب، أو كان أقرب إلى العلم بالنظم منه إلى النقد.

(٥)

وفي هذا القرن بالذات، الثالث الهجري، ظهر بعد **بشار وأبي نواس**، شاعران كبيران أيضاً: **أبو تمام والبحتري**. الأول جدد في المعاني والفن. أما الثاني فحذا حذو القدماء في المعاني والفن.

خرج **أبو تمام** عن طريقة الأوائل في توليد المعاني والصور. وبقي البحتري يسوق المعاني والصور على طريقة الأوائل.

---

(١٥) المصدر السابق.

فانقسم الناس حول هذين المذهبين، قسم أيد المذهب الجديد ودافع عنه، وقسم تعصب للمذهب القديم وناضل عنه. وقامت المعارك في المناظرات والمساجلات بين الفريقين. واستمرت سجالاً بين الفريقين دون أن يحقق أحدهما الفوز على الآخر، حتى جاء الأديب الناقد:

«**ابن بشر الآمدي** المتوفى سنة ٣٧١، فوضح كتابه النقدي المشهور: «**الموازنة بين الطائيين**» لحسم الخصومة بين الفريقين المتخاصمين.

بدأ **الآمدي** كتابه بتقديم صور عن المساجلات الحوارية التي كانت تعقد مجالسها بين الطرفين، سنقف معاً على أبرز محاورها، كما نقلها **الآمدي**، وإن كانت، في الواقع، تعبر عن استنكاره لمذهب **أبي تمام**، وميله إلى مذهب **البحتري**. مسوغاً استنكاره وميله بما أورده عن بعض علماء الشعر، وبما استبره شخصياً في أشعار الطائيين. وإليك أهم محاور هذه المناظرات الطويلة:

١- قال صاحب أبي تمام: «إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه. لقد فهمه العلماء والنقاد. وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته، لم يضره طعن من طعن عليه.

٢- وقال صاحب البحتري: «إن ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني وغيرهما، كانوا علماء بالشعر وكلام العرب. وقد علمتم ازدراءهم لشعر أبي تمام، حتى قال ابن الاعرابي: إن كان هذا شعراً، فكلام العرب باطل. وممن أسقط شعره من العلماء: أبو سعيد الضرير وأبو العميثل، صاحبا عبد الله بن طاهر الذي كان لايسمع من شاعر إلا بعد أن يمتحنه صاحباه ويرضيا عنه. فلما سمعا قصيدة أبي تمام التي أولها:

هن عوادي يوسف وصواحبه

فعَزْماً فقدْماً أدرك النجح طالبه

أعرضا عنه وأسقطا القصيدة، وقالا له:

- لمَ تقول مالا يفهم..؟

فقال:

- ولم لاتفهمان مايقال..؟

فلم يجيبا عن سؤاله.

٣- قال صاحب أبي تمام: «قد أتى أبو تمام بمعان فلسفية، فاذا سمع الأعرابي شعره، لم يفهمه. فإن فُسر له فهمه واستحسنه. ونحن ماأجمعنا معكم على أن صاحبكم لم يسيء، بل قد أساء ولحَنَ في قوله:

ضَحكات في إثرهن العطايا وبروق السحاب قبل رعوده

فأقام البرق مقام الضحك، والرعد مقام العطايا. وكان يجب أن يقيم الغيث لا الرعد مقام العطايا.. وله لحون في شعره معروفة».

٤- وقال صاحب البحتري: «مانعينا على أبي تمام اللحن، وهو كثير. ولو رمنا أن نخرج مافيه من اللحن لكثر واتسع. ولن يجد له المتأمل مخرجاً إلا بالتمحل الشديد».

هذه نماذج منتخبة من الأمثلة التي ساقها الآمدي عن محاورات الفريقين المتخاصمين، لينتهي منها إلى مداخلته الشخصية في الموازنة بين الشاعرين.

قال الآمدي: «وإن كثيراً مما أتى به أبو تمام من المعاني، لايعرف إلا بالحدس والظن، حتى لاتخلو له قصيدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئاً أو محيلاً أو عادلاً عن الغرض أو مبهماً أو مفسداً للمعنى، فلا يقوّم ولايكون له مخرج»[١٦].

وقال: «فالذين فضلوا أبا تمام هم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام، والذين

(١٦) الآمدي: الموازنة- ص١١.

فضلوا البحتري، فهم الأعراب والشعراء المطبوعون»[١٧]. أما البحتري: «فأعرابي مطبوع يتجنب وحشي الكلام والتعقيد، ويمتاز بحلاوة اللفظ وصحة المعنى وقرب المأتى وانكشاف المعاني»[١٨].

وقياساً على هذه الأبعاد الثلاثة، اللغة والمعاني والكلام الفلسفي، بنى **الآمدي** نظريته في شعر **أبي تمام**، وطبقها على أمثلة من شعره، فيما عقد من أبواب في أخطائه في الألفاظ والمعاني، وسوء النظم والركاكة والغموض وفي سرقاته واستعاراته القبيحة، وعقد في المقابل أبواباً مماثلة لأشعار البحتري.

فماذا رأى..؟

قال: ١- «أنكر **أبو العباس أحمد بن يحيى على أبي تمام قوله:**

رقيق حواشي الحلِم، لو أن حلمه

بكفيك، ما ماريت في أنه بُرْدُ

وقال: هذا هو الذي أضحك الناس، منذ سمعوه، إلى هذا الوقت».

قال الآمدي: ولم يزد على هذا شيئاً. يقصد أنه لم يعلل أو يفسر ماأضحك الناس.

فتولى الآمدي التعليل بقوله: «أما الخطأ الذي أضحك الناس، فهو أني ماعلمت أحداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف «الحلم» بالرقة، إنما يوصف بالثقل والرزانة. كقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة...

(١٧) المصدر السابق: ص١١

(١٨) المصدر نفسه: ص٤٩

ألا ترى أنهم إذا أرادوا ذم الحلم وصفوه بالخفة، كقول عياض:

تنابلة سود خفاف حلومهم...

ثم إن «البُــرد» لايوصف بالرقــة، إنما يوصف بالمتــانة والصفاقة. أما قوله: «لو أن حلمه بكفيك..» ففي غاية القبح والسخافة.

وهو لايجهل هذا من أمر الحلم، ولكنه أراد أن يبتدع فوقع في الخطأ»(١٩).

٢- وأنكر عليه أبو العباس أيضاً قوله:

من الهيف، لو أن الخلاخيل صُوِّرت
لها وشحاً، جالت عليها الخلاخل

ولم يذكر العيب فيه. وأنا أذكره فأقول:

«إن هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب، وهو أقبح ماوصف به النساء، لأن من شأن «الخلاخيل» أن تعض في السواعد والأعضاد وتضيق في الأسواق. فإذا جعل خلاخيلها وشحاً تجول عليها، فقد أخطأ الوصف. لأنه لايجوز أن يكون الخلخال وشاحاً جائلاً على جسدها، لأن الوشاح ماتتقلده المرأة متشحة به، فتطرحه على عاتقها فيستبطن الصدر والبطن، وينصب جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهي إلى العجز ويلتقي طرفاه على الكشح الأيسر؛ فيكون منها في موضع حمائل السيف. وإذا كانت هذه صورة الوشاح، فغير جائز أن يوصف بالسعة والطول ليدل على تمام المرأة وطولها، إنما يوصف بالقلق والحركة ليُستبدل بذلك على دقة الخصر. وإذا كان

(١٩) المصدر السابق: ص١٢٥.

الخلخال وشاحاً للمرأة فقد مسخت إلى غاية القماءة وصارت في هيئة الجُعَل. هذا من ناحية المعنى. أما اللفظ فهو أقبح وأشنع، لأنه إنما أخرجه مخرج الحقيقة.

والاحالة فيما مخرجه مخرج الحقيقة، أقبح من الاحالة فيما مخرجه مخرج التوسع»[٢٠].

٣- ومن استعاراته القبيحة جداً، فيما يرى الآمدي، قوله:

فلويت بالمعروف أعناق المنى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

«فحطَّم ظهر الموعد بالانجاز، استعارة قبيحة. والمعنى في غاية الرداءة، لأن إنجاز الموعد هو تحقيقه. وبذلك جرت العادة أن يقال: قد صح وعد فلان إذا أنجزه. فجعل في موضع صحة الموعد، حطم ظهره. وهذا إنما يكون إذا أخلف الموعد وكذب»[٢١].

كانت تلك أمثلة من تطبيقات الآمدي النقدية على بعض مفردات أبي تمام المنتخبة من قصائده، التي عبر فيها عن استهجانه طريقته في توظيف اللغة وتوليد المعاني والصور الفنية الخارجة عن المألوف فيما جرى عليه الشعراء الأوائل.

إن لغة أبي تمام ومعانيه وصوره الفنية التي عدها الآمدي إفساداً للشعر، إنما هي، في رأينا، عمل أدبي تقاصرت عن بلوغ سويته الفكرية والفنية أعناق علماء الشعر القدماء.

ويحضرني في هذا المدار، مدار الصراع بين القدماء والمحدثين، تلك الحوارية التي عقدها **أبو العلاء** في «**الكوميديا العلائية**» بين **ابن القارح وعنترة** حيث يقف **ابن القارح** على مشارف الجحيم فيرى **عنترة** يتلدد في السعير، فيقول له: مالك ياأخا عبس..؟ وإني إذا ذكرت قولك:

هل غادر الشعراء من متردم

(٢٠) المصدر السابق: ص٣٧٣.

(٢١) المصدر السابق نفسه: ص٣٧٧.

لأقول: إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ.. ولو سمعت ماقيل بعد مبعث النبي، لعتبت نفسك وعلمت أن الأمر كما قال **حبيب بن أوس:**

فلو كان يفنى الشعر أفناه ماقَرَت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صَوْب العقول إذا انجلت سحائب منه أُعقبت بسحائب

فيقول عنترة: وماحبيبكم هذا..؟

فيقول: شاعر ظهر في الاسلام، وينشده بعضاً من شعره.

فيقول عنترة: أما الأصل فعربي، وأما الفرع فنطق به غبي، وليس هذا على ماتعرفه قبائل العرب.

فيقول: إنما ينكر عليه المستعار، وقد جاءت العاربة بأشعار كثير من المتقدمين، إلا أنها لاتجتمع كاجتماعها فيما نظمه **حبيب بن أوس**.هذه الحوارية إنما هي من صنع أبي العلاء الذي أنطق بها سفيره إلى العالم الآخر **ابن القارح**.

وفي تعليق لأبي العلاء على شعر أبي تمام، قال: **«كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة، يستخرجها من غامض بحار ويغض عنها المستغلق من المحار».**

أليست هذه الطريقة المبتدعة التي سفه بعض أبياتها الآمدي، هي أصل من أصول **الحداثة** في الشعر العربي الجديد..؟

بلى. إنها فيما اعترض عليه الآمدي بشرحه لألفاظ أبي تمام ومعانيه وصوره الفنية، هي الحداثة التي أصلها أبو تمام.

ثم إن الآمدي، فيما اختار من شعر أبي تمام، وأطلق عليه أحكامه في الأخطاء والاحالة وفساد المعاني والصور، قد أغفل الأبيات المتألقة ليحقق نظريته في موقفه من شعر أبي تمام.

وكان مجرد انتقاء أبيات من قصائد هذا الشاعر المبدع، مظهراً للنظرة الجزئية التي لايمكن أن تقدم لنا الشاعر كما هو. إن الذي يقدم لنا الشاعر بوضوح إنما هو النظرة الشمولية لمجموعة من قصائده، أو على الأقل،

لقصيدة من قصائده، ويقارن بينها وبين قصيدة مماثلة من شعر البحتري.
ولقد قال الآمدي، في مستهل كتابه:

«سأوازن بين قصيدتين من أشعار الطائيين، إذا اتفقتا في الوزن والقافية والمعاني، وأقول أيهما الأشعر في تلك القصيدتين».

ولكنه، للأسف، لم يلتزم بما وعد به، لعلة لانعرفها. والأرجح أنه رأى نفسه قاصراً عن التحليل والمقارنة المتكاملة، لطغيان النزعة الجزئية على الرؤية الكلية.

ولهذا قال، في ختام تلك المدارات؛ «**ويبقى مالايمكن إخراجه إلى البيان ولا إظهاره إلى الاحتجاج**». أي: مالايخضع للتعليل، مستنداً إلى ماروي عن إسحق الموصلي قوله: «**قال لي المعتصم: «أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي». فقلت: «إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولاتؤديها الصفة»**.

وهذا هو معنى التأثرية الذاتية بالشعر، التي يدركها الحس، ولاسبيل للافصاح عنها موضوعياً.

ومع ذلك فقد أصل الآمدي، في مفردات القصائد، أو في الأبيات التي انتخبها، النقد الفقهي في الشعر العربي، وإن كان في الأطر الجزئية.

(٦)

على أن النقد الأدبي كالأدب ذاته، لم يكن سكونياً أو منزوياً عن الحركة الأدبية التي تتطور بتطور العصور، تبعاً لتطور الحياة الفكرية، العلمية والأدبية والإجتماعية.

لذلك ماإن هدأت المعركة النقدية حول الطائيين، حتى استجدت بظهور الشاعر العظيم **أبي الطيب المتنبي** الذي شغل الناس جميعاً، الأدباء واللغويين والنحاة وأصحاب المعاني والمتفلسفين، فأسفر هذا الانشغال عن معركة جديدة بين فئة تعصبت له وأخرى تعصبت عليه، وأخذ كل منهما يدلو دلوه، في الكتابات النقدية، أو في الحوارات الشخصية، كما فعل من قبل، أصحاب **أبي تمام وأصحاب البحتري**.

وكان **أبو الطيب** منشغلاً عن أولئك وهؤلاء بشعره وأسفاره.

وحين بلغ الصراع أوجه، نهض الفقيه الأديب **أبو الحسن، علي بن عبد العزيز الجرجاني**، أستاذ **عبد القاهر الجرجاني**، الذي سوف نستكمل هذا البحث بنقد نظريته: «**نظرية النظم**» في كتابه «**دلائل الإعجاز**».

نهض ذلك الفقيه الأديب فتوسط بين الفئتين المتخاصمتين برسالته النقدية المشهورة: «**الوساطة بين المتنبي وخصومه**». قدم **الجرجاني** لرسالته بمقدمة نقدية عامة، كما فعل من قبل **ابن قتيبة** في مقدمته النقدية لكتابه «**الشعر والشعراء**»، فلخص وجوه التفاوت في أشعار القدماء، الجاهليين والاسلاميين، ليؤكد على أن الخطأ والغلط واللحن وفتور الخاطر ليست ظواهر مقصورة على أشعار المحدثين، إنما هي ظواهر عامة في أشعار العرب، فالتقى بذلك سلفه **ابن قتيبة** في دفاعه عن أشعار المحدثين.

ولكنه، كسلفه، ما لبث أن اتخذ من الشعر القديم المثل الأعلى للشعر العربي، ونعى على المحدثين، كأبي نواس وأبي تمام وغيرهما، التفاوت في الطبع، خلافاً لما تمتع به الجاهليون من سوية في الطبع، قال: «**فبينما الجاهلي والاسلامي يتمتع بهذا الطبع السوي، فإن المحدث جزل حيناً ولين حيناً، ما إن يسترسل في طريقته ويجري على طبعه، حتى تلتوي عليه السبل، فيتوعر ويطمس المعاني**»[٢٢].

وتبعاً لهذه النظرية، فضل الطبع السليم على الصنعة، صنعة **أبي تمام والمتنبي**، وإن تكن جيدة.

ولو أردنا أن نترجم قولة **الجرجاني** إلى أساليبنا العصرية، لقلنا إن الفرق بين القديم والحديث، هو الفرق بين الأصالة والمعاصرة.

ويسترسل **الجرجاني** في تعميق نظرية الطبع، فيوثق الصلة بين الشاعر وشعره تبعاً لطبعه: «**فالطبع السليم الرقيق لايصدر إلا عن**

٢٢- الجرجاني علي بن عبد العزيز: الوساطة- ص ٢٦.

شعر سهل رقيق، والشعر، في حالتي الجودة والرداءة، إنما يصور شخصية الشاعر، حتى ليعكس،خلقته العضوية والنفسية. أما الألفاظ الكزة والكلام المعقد، فيصوران ذهناً معقداً ونفساً جافة. وتجد ذلك في أهل عصرك فترى الجاف الجلف وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صورته»[٢٣].

في هذه النظرية يلتقي **الجرجاني** نظرية التحليل النفسي الذي يعالج ويحلل معطيات الأدباء المبدعين وفقاً للأعراض النفسية، الصحية والمرضية.

وعن المناخ الذي يتأقلم فيه طبع الشاعر، أوضح ماللبيئة من أثر كبير في الشعر، وساق الأدلة على ماللبداوة من أثر في جفوة الطباع، وماللحضارة من أثر في رقتها وسهولتها.

وانتقد **الجرجاني** ظاهرتي الإفراط والإحالة في أشعار المحدثين، ورأى أنهما، وإن كانتا موجودتين في أشعار القدماء، إلا أن لها رسوماً يقف عندها الشاعر القديم فلا يتعداها، ليجمع بين القصد والاستيفاء، أو لتمثيل الواقع. فلا يأتي من المعاني والصور بما لايمكن تحققه في الواقع. وبذلك كان له السبق في وضع اللبنة الأولى للأدب الواقعي، الذي استشهد على انتفائه بقول الشاعر القديم:

ولو أن ماأبقيت مني معلق بعود ثُمـام، ماتأود عودها

وقول **أبي الطيب**:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فالصورتان في هذين المثالين، القديم والمحدث، وإن كانتا، عند **الجرجاني**، جيدتي التصنيع، إلا أن الغلو فيهما أخرجاها مخرج الإفراط والأحالة، أي أنهما غير واقعيتين.

وبصفة **الجرجاني** من رعيل المدرسة الجمالية التأثرية التي يعجز

(٢٣) المصدر السابق: ص٢٦.

أصحابها عن توصيف أسباب التأثر وتعليله، فإنه يسوغ التأثر تسويغاً ذاتياً: **«وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال وتذهب في النفس كل مذهب، ثم لاتعلم، وإن قاسيت ونظرت، سبباً لهذه المزية»**[٢٤].

ويستشهد على تسويغ هذه النظرية بما روي عن **الشافعي**، وقد سئل عن مسألة، فقال: **«إني لأجد بيانها في قلبي، ولكن ليس ينطق بها لساني»**[٢٥]. وهذا ماعبر عنه من قبلُ، **ابن سلام الجمحي** بقوله: **«إن من الجمال ماتدركه المعرفة ولاتحيط به الصفة»**. أو كما قال **الموصلي للمعتصم: «إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولاتؤديها الصفة»**.

وعول **الجرجاني**، في النقد على الذوق الرفيع وعلى استشهاد القرائح الصافية التي طالت ممارستها لنقد الشعر. واستبعد الحجاج العقلي والبراهين العلمية التي لايرى تحتها طائلاً في نقد الشعر:

«فالنقد باب يضيق مجال الحجة العقلية فيه، ويصعب وصول البرهان إليه»[٢٦].

كانت تلك محاور نظرية الشعر في مقدمة **«الوساطة»**. فماذا صنع **الجرجاني** في النقد التطبيقي..؟

لقد تسقط خصوم **أبي الطيب** عيوب أشعاره في أبيات متفرقة من قصائده، فأخذوا عليه استعاراته البعيدة، كما أخذ خصوم **أبي تمام** عليه من قبل، هذا النوع من الاستعارات، أي: الصور الفنية، وهي بنظرهم، في شعر **أبي الطيب**، الافراط في تشخيص الأشياء الجامدة تشخيصاً حياً بحيث يجعل لها الشاعر قلوباً نابضة وعقولاً مفكرة كما هي الحال في بعض

(٢٤) المصدر نفسه: ص٢٢
(٢٥) المصدر نفسه: ص٢٦
(٢٦) المصدر نفسه: ص١٨

صور الشعر الحداثي، في حين لاصلة ولا سبباً أو مناسبة بينها وبين الأحياء..

وادعوا عليه، في بعض أبياته اللحن والغلط، وفي بعضها الاختلال والاحالة، وفي بعضها التعسف والغثاثة، وفي بعضها الركاكة والضعف..

فكان رد **الجرجاني**، وهو في هذه الرسالة يدافع عن شعر **أبي الطيب**، أن استشهد على نقض رأيهم في استعارات **أبي الطيب**، بايراد أبيات من الشعر القديم، اتخذ أصحابها من الأشياء شخوصاً متكاملة الأعضاء والهيئات، كما هي الحال اليوم في أشعار الحداثيين.

ثم عاب على نقاد المتنبي: « **قد رأيتك، لما تصفحت ديوان المتنبي، واستعرضته بيتاً بيتاً، لم تزد على أحرف تلفظتها والفاظ تمحلتها، وادعيت في بعضها اللحن والغلط والاختلال والاحالة والغثاثة والتعسف والركاكة، ثم أسقطت القصيدة من أجل بيت، ونفيت الديوان من أجل قصيدة، وعجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة** »[٢٧].

وقرأ **الجرجاني** على مخاطبه[٢٨] في «**الوساطة**» قصائد **لأبي الطيب** ليقيم عليه الحجة فيما تسقطه من عيوب في المفردات، وليقرر أن الحكم الموضوعي إنما ينبغي أن يصدر عن الناقد بعد استبار لمعمار القصيدة في بنائها الكلي، إن لم يكن لمجموعة من قصائد الشاعر.

فكان هذا التوجيه مبشراً بقفزة نوعية ترفد النظرية بالتطبيق، أو الذاتية بالموضوعية ولكن **الجرجاني**، لم يحلل، للأسف، تلك القصائد، أو إحداها على الأقل التحليل الموضوعي المنتظر، إنما اكتفى بالاشارة إلى ماتوفرت عليه تلك القصائد من الجودة والاتقان، دونما تعليل.

---

(٢٧) المصدر نفسه: ص٨٢.

(٢٨) أظنه الحاتمي، أو الصاحب بن عباد.

وكذلك حينما استجود قصيدتين لشاعرين في موضوع واحد، إحداهما قصيدة **أبي الطيب** المشهورة في وصف **الحمّى**:

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

وثانيتهما قصيدة عبد الصمد بن المعذل في الموضوع ذاته:

وبنتُ المنية تنتابني هدواًوتطرقني سحرةْ

فحكم على قصيدة المتنبي بقوله: «لايعلم لأحد في معناها مثلها، اخترع أكثر معانيها، فجاءت «مطبوعة مصنوعة». وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس. وقد أحسن عبد الصمد وأجاد»[٢٩].

وهذا الحكم، في الحقيقة، حكم مجاني، لأنه غير معلل.

والأعجب من ذلك تعقيبه على هذا الحكم بقوله: «**وأنت إذا قست قصيدة المتنبي بقصيدة ابن المعذل، وقابلت اللفظ والمعنى بالمعنى، تبينت الفاضل من المفضول. فأما أنا فأكره أن أبت حكماً أو أدخل بين هذين الفاضلين، وكلاهما محسن مصيب.**.»[٣٠]

لقد وقع **الجرجاني** في الثغرة ذاتها التي وقع فيها **الآمدي**. ولسنا نعلم أيهما تأثر بالآخر أو قلده، لأننا لانعرف أيهما كان السابق في إصدار كتابه[٣١] ولكنا نعلم أي الشاعرين سبق الآخر في نظم قصيدته[٣٢] ومن منهما تأثر بالآخر.

لماذا ترك **الجرجاني** الحبل على الغارب، كما فعل الآمدي..؟

أكان مرد ذلك إلى قصور فكري عن استبار القصيدتين والمقارنة بينهما مقارنة تحليلية..؟أم كان ناشئاً عن انقطاع نفس الناقد..؟ إن خلاصة النظرية **الجرجانية**، المتعددة الجوانب والأبعاد، هي في الواقع كُنَيف موسع ومتطور لنظريات علماء الشعر والنقاد الذين سبقوه. ولقد قطع اولئك النقاد، ولا سيما نقاد القرنين الثالث والرابع، شوطاً بعيداً في التنظير

(٢٩) المصدر السابق نفسه - ص ١٨٣.

(٣٠) المصدر ذاته: ص - ٤٢٩.

(٣١) توفي الجرجاني سنة ٣٦٦ وتوفي الآمدي سنة ٣٧٠.

(٣٢) توفي عبد الصمد سنة ٢٤٠ وتوفي المتنبي سنة ٣٥٤. فبين عصريهما قرن كامل.

للشعر العربي، بما كانوا يملكون من ذائقة جمالية رفيعة فيما يقع عليه الحس الجمالي، وكانوا حاذقين في استبطان مواطن الجودة والرداءة في مفردات القصيدة، أو جزئياتها. ولكنهم ظلوا عاجزين، حتى نهاية القرن الرابع، عن تعليل تأثرهم بمواطن الجمال، وقاصرين فكرياً عن النظرة الكلية إلى القصيدة، وعن تحليلها تحليلاً موضوعياً. لقد قطعوا ذلك الشوط البعيد في التنظير، ولكنهم لم يبلغوا شيئاً في التطبيق. ولذلك أسفر النقد عندهم عن ومضات ذاتية جانبية لم تتجاوز نقد اللغة والمعاني والصور في جزئيات القصائد، في البيت أو الأبيات. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على قصورهم المنهجي في النقد الأدبي.

* * *

إن طبيعة الأدب، شكلاً ومضموناً، في كل أمة، بما لها من خصوصيات لغوية وفكرية، هي التي تملي على النقد، كمنفعل وفاعل، طبيعتة ووظيفته. وطبيعة الشعر العربي بما تميز به من خصائص لغوية ومعنوية قوامها الصورة الجمالية التي تتألق في أبيات معينة أو في بيت واحد أحياناً، هي التي كان علماء الشعر والنقاد يعولون عليها كمثل أعلى للجمال الفني. وكان من الطبيعي، والحياة الثقافية، في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام، لما تتجاوز البساطة البدوية، أن يتلمس العلماء والنقاد جودة الشعر، في اللغة وشرف المعاني، وأن يسلموا السبق لمن «**وصف فأصاب، وبدَهَ فأغزر، وشبه فقارب، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته**».

كذلك كانت معايير الشعر الجيد في الجاهلية والاسلام، وقلما تجاوزها الشعراء في العصور اللاحقة، ولاسيما في العصر العباسي، وقد تلقى الفكر العربي ألواناً جديدة من الثقافات العلمية والفلسفية التي كان من المفترض أن تؤثر في طبيعة الشعر ووظيفته، وأن يتطور، وتتطور معه وظيفة النقد. ولكن ذلك، للأسف، لم يحدث، لأنهم لم يوظفوا الثقافات الجديدة، العلمية والفلسفية، من أجل الأدب، إنما وظفوها من أجل الدين، فنشأ عن ذلك تياران مذهبيان، أحدهما إيجابي هو التطور الفقهي

التشريعي، وثانيهما سلبي هو الشقاق المذهبي الطائفي الذي أفسد جوهر الدين الاسلامي.

ولو اتجه نقاد القرنين، الثالث والرابع، كابن قتيبة والآمدي والجرجاني على الأخص، إلى توظيف الفلسفة في النقد الأدبي، كما فعل الأوربيون في توظيف الفلسفة اليونانية، التي أغنت الفكر والفن، لتطور النقد العربي إلى مناهج موضوعية تشمل النثر الفني أيضاً، كنثر **الجاحظ والهمذاني والتوحيدي** وغيرهم.

ولكن انشغال العرب في العصر العباسي «**بأحكام الوجوب، لا بأحكام الوجود**»[٣٣]، كما قال أستاذنا الدكتور حسام الخطيب، واستنكار الآمدي والجرجاني توظيف الفلسفة في النقد، أدى إلى توضعه فيما نشأ عليه من النظرة الجزئية ومن الشكلانية، على نحو ما لخصه ابن العميد، مثلا، في حواريته مع **الصاحب بن عباد** حول بيت أبي **تمام**:

كريم متى أمدحه، أمدحه والورى
معي، وإذا ما لمته لمته وحدي

سأل ابن العميد الصاحب عما يجد في هذا البيت من العيوب..؟

فأجاب الصاحب: ضعف الطباق بين المدح والذم.

فقال ابن العميد: لا.. إنما عيبه في عدم سلامة الحروف من الثقل، وفي تكرار «أمدحه» مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين وهما من أحرف الحلق، وذلك مرذول خارج عن الاعتدال.

فنقد البيت على هذا النحو اللغوي، إنما هو نقد لعيوب النظم، ولا لعيوب الشعر. وهذه هي البؤرة السكونية التي توضح فيها نقد الشعر العربي..؟

* * *

(٣٣) د. حسام الخطيب: الموقف الأدبي - العدد ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - عدد خاص.

ابــــــداع

شــــعر

قصيدة حب

عبد القادر الحصني*

للطالعة الآن كشمسٍ من فلك الأفلاك.. صلاةٌ

لخطاها، تخلع خفّيها الذهبيينِ
وتمشي بالقدمين العاريتينِ
على هدبيَّ ... صلاةٌ

لمعارجها
ومدارجها

---

* عبد القادر الحصني: شاعر من سوريا، عضو اتحاد الكتاب العرب، من دواوينه: «ماء الياقوت».

ومباهج ماتسحب من أذيال النور
على شرفات الروح ... صلاةْ

* * *

ماأجملها!
ماأحلى في شفتيها بُحَّةَ صوت العذراء!
وشَقشقةَ عصافير الفجرِ
وإيقاعاتِ صنوج نحاسٍ
ببحيرات الماء العذبة
تصخبُ، في رَهَقٍ
من صبيانٍ وبناتْ

ماأجمل عينيها!
ياأزرقُ.. ياأخضرُ
أين نهايات البحر؟
وأين بدايات الغاباتْ؟
ماأحلى ضحك أساورها في معصمها!
والأجراس القدّوسةَ
في أعلى أبراج كنيستها
تهبط في قطراتٍ
من حلمات الشمعِ
على صمغ الأيقوناتْ

ماأحسنها !

لاأحصي عدد جنوني بمحاسنه

هي أدرى بـ(النبأ)

وبالأحلام المكنونة في اللؤلؤ

مما يتناثر من أمواج الرغبات على الأصدافْ

لايعلمها إلاّ من جاوز تيه (الزخرفِ)

قبل طلوع الفجرِ

وأفضى من باب (الحجرات) إلى (الأعرافْ)

وأنا رجلٌ، لم تنحني بعدُ الأجملُ من بين الملكاتْ

إلاّ أن أرشف آلاف القبلات...

وصلاةْ

لحبيبي مشطي

لحبيبي شعري

لحبيبي القارورة

لحبيبي عطري

لحبيبي إبريقي

لحبيبي خمري

ثغري

نحري

سَحْري

صدري
ظهري
خصري
حِجْري
وأنا عند حبيبي
عنقي في عقدي
عسلي في شهدي
وردي في بردي
إلاّ خدّي
جيدي
زندي
نهدي
وحبيبي عندي

* * *

بالحق تحبكَ
وهي تنام على اسمكَ،
وتفيق على اسمكَ

حلمتْ ليلةَ أمسِ بسبعة أبراج، يتحدّر منها سبعُ نساءٍ يتحمّلن بسبعة أطباقٍ، في الطبق الواحد

سبعةُ أزواج خواتمَ، حاولن أصابعك العشر، فلم يفلحنَ،

وحين تراجعن، تقدّم قمرٌ كان نحيلاً جداً قبل اثني عشر نهاراً ... دوّر هالته بأهلّتها، فانزلق الخاتمُ من إصبعها في إصبعك .. تحبك

وتنامُ على اسمكَ،
وتفيق على اسمكَ

* * *

عندك أمشاط ومرايا وصناديق حليٍّ وثريّاتْ
عندك عطرٌ في جامات الفيروزِ
وخمرٌ في أحقاق العاجِ
وماءٌ ذهبيٌّ بين وريقات الورد الجوريِّ
وغيمُ بخورٍ أشقرُ في مقصورتك الحمراءِ
وقيثاراتٌ
ووصيفاتٌ حوريّاتْ

عندك مالم تسمعه الأذنُ
ولم تره العينُ
ولم يُنقش في ألواح الطينِ
ولم يرقم فوق البرديّاتْ

وأنا عندكِ
لكنّكِ أنتِ الملكةُ
تعتمرين التاجَ
وتقتعدين العرشَ
وتقضينَ سحابَ نهاركِ

فوق الناس المبهورين بأنوارك
لو أحكي عن أطيار الآفاق، لقالوا: أحكي عن أطيارك
لو أتنهّد بين الأحجار، إلى أن يتفجّر منها الماءُ، ويجري
في جنبات الأرض، لقالوا: أحكي عن أنهارك
لو حلّ ملاك الربّ عليَّ، ونزل ألواحاً بين يديَّ،
لقالوا عني أني خبرٌ من أخبارك
فمتى ستبوحين بأسرارك؟
ومتى ستفكين عُرى أزرارك؟
فأرى في مرآتك صدري المشقوقْ
وأرى ماء الكوثر يغسل قلبك من أسماء سوايَ،
ويرمي في أعماق اللجة مفتاح الصندوقْ
ومتى بسرير العشق يفيق العاشقُ والمعشوقْ؟

* * *

لرعاياي ضحاي وظُهري
ولهم نهيي، ولهم أمري
ولهم ما لابدّ لريحٍ أن تتنسّمهُ حين تمرُّ بقصري
وزرائي الأدنون اختلفوا في لون سيور حذائي،
فاحتكموا لأمينة سرّي.
والمجنون الهائمُ في الصحراء- (حبالتي)- كان كبير الكهّان،
امتحنته الآلهةُ،
فشاهد بكلة شعري

لرعاياي ضحاي وظهري
ويزحزحني عن قبّة عرشي أنّي أتشهّى عصري،
وذراعيك وأوجاعَ ضلوعي، إذ تخرجني من كيرك ثانيةً،
وتطرّقني بالمطرقة على سندانكَ، حتى أحمرَّ وأزرقَ،
وأخضرَّ، وتلقيني في مائك، يتصبّبُ منّي عرقٌ
تموزيٌّ، في أثوابٍ من أمطارٍ ورعودٍ وبروقْ

ساعدني لأعلّق قرطيَّ، وأرفع سحّاب قميصي، وألفَّ على
تدمر ساقيَّ إزاري، وتأمّلني مثل عروس في هذي
الأمسيّة، تمتد من الأنسام يداها الباردتان إليَّ
فيفجؤها تحت ثيابي وَهَجُ الذهب المحروقْ
أنت حبيبي
أنت فصولي الأربعةُ، وأنت الطبقات الأعمق من معبد روحي،
وكلامي اللامنطوقْ
أصغي الآن إلى أشعاركَ فيَّ، وأدنو منكَ،
وأدنو ...
أدنو ... حتى يلتبس الخالق بالمخلوقْ

***

ابـــداع

لاتسلني

عبدالله الصالح العثيمين*

هكذا دارت دواليب الفلك
واختفى النور بأستار الحلك
والمنى الخضـر التي رُفت على
شفة الأمس بها الدهر فتك
أيها الساري وأشواك الردّى
مـلأت كـل طريق قـد سلك

*عبـد الله الصالح العثيمين: شاعر من المملكة العربية السعودية . من دواوينه : «عودة الغائب»، «لاتسلني».

لاتسلني عن خفايا المي
إنما آلمني ما آلمك
الرؤى السوداء قَسْمٌ بيننا
والأسى المرُّ غذاء مشترك
والأحاسيس التي تغتالني
جُرِّدت أسيافها كي تقتلك
لاتسلني كل ما في أفقي
يزرع الدرب ملايين شَرك
لم أعد أدري إلى أين الخطى
حار منِّي الفهم والذهن ارتبك
أيُّ ربع لم يغلِّفه الدجى؟
أي حلم عاصف اليأس ترك؟
كل ما حولي طلاء زائفٌ
لدماء الطهر والصدق سفك
لبس العاصي جلابيب التقى
وبدا الشيطان في زيٍّ مَلَك

والمراؤون عـــــــلا سلطانهم

كـدّروا حوضي أغاضوا منهلك

كم يؤدّون لو اغتالوا الندى

إذ رأوا عطر الندى قد أثملك

عشقوا ذبح العصافير إذا

رنّحت بالشدو أعطاف الفلك

***

أيها الساري وكم في الدرب من

مفتر يرمي لمن سار الشبك

حقده المشبوب في مهجته

لو خبت جذوته فيها هلك

وفتى قد كان من مبدئه

حرمة التعبير أن لا تنتهك

حينما نال مكاناً بارزاً

إن تخالف رأيه فالويل لك

وبـــلــيــغ يــدّعــي الــزهــد وإن

غــــفلت عــــيناك عنه أكللك

* * *

لاتسلني أيهــا الســـاري فـــفي

عـــارضي تبـــدو جـــراح المعـــترك

لاتـــســـلـــنـــي أيـــن أخـــطـــو آن لـــي

في مـــتـــاهات الســـرى أن أســـألك

إن تكن تبـــصـــر ومـــضـــاً خـــافـــقـــاً

في جـــبـين الأفق فـــاحـــملني مـــعك

* * *

ابـــــداع

قصـــة

ملحمة الملاحم

أحمـد عمـر*

البدايـــة:

وضعت الناقلات البرية والبحرية والجوية حمولتها من المواد الأولية في قمة جبل قرداش المطل على مدينة تاطلي والمختار من قبل لجنة من الطبوغرافيين والجيولوجيين ولحظة وصول الدفعة الأولى من المهندسين والخبراء إلى الموقع، وكانت مساءً لم ينتظروا الصباح أو يستريحوا من وعثاء

(*) - أحمد عمر: قاص من سورية، ينشر أعماله في الدوريات المحلية والعربية.

السفر الجوي باشروا من فورهم بارتداء ملابس العمل وخوذات وأحذية الأمن الصناعي الواقية وشرعوا في الشغل وهم يهتدون بخرائط ومخططات. . . وهكذا صار ديدنهم: الاستيقاظ باكراً والاجتماع في الساعة السابعة صباحاً لإجراء تمرينات الصباح الرياضية على أنغام الموسيقى وتحت خفقات العلم الياباني بدائرته الحمراء القانية في المستطيل الأبيض. . بعدها يتجه كل واحد إلى موقعه في العمل. . وما هي إلا أيام معدودة حتى شيدت مخيمات إسمنتية أنيقة أشبه بالقصور مجهزة بأحدث الأجهزة والمرافق والخدمات: حمامات مياه ساخنة. . مكيفات تعمل بالتحكم عن بعد وصالات ترفيهية وملاعب. . كل هذا من أجل سنة عمل واحدة مدة تنفيذ العقد المقررة لتشييد منشأة تحويل الفصول التي قالت عنها الصحف أنها ستحول بلدنا من قط جبان إلى نمر آسيوي. . فأنعم وأكرم.

حضارتنا العريقة:

في أول عطلة أسبوعية جاء السيد ياما أوكي ياما، مدير المشروع الياباني في الموقع وقد سبق تعارفنا باعتباري مهندساً مسؤولاً بشكل مؤقت عن استلام المواد الأولية. . انحنى لي على الطريقة اليابانية محيياً. . ملأني الحبور والخجل على هذه التحية التكريمية التي لايستحقها سوى الأكابر في بلادنا. . كنا قد تواعدنا على القيام برحلة إلى أوابد الأناضول التاريخية العريقة لم أكن قد زرتها من قبل رغم قربها من محل إقامتي فالسياحة ترف لأمثالي من ذوي الدخل المحدود أركبني في سيارته- الطائرة، أو في طائرته الأرضية لنصل بالسلامة. . وقف يتأمل بخشوع وجلال الحجارة الكهلة والمسلات العالية والمحاريب العجيبة ويتلمس نقوشها وطلاسمها بتقديس. . باللغة الإنكليزية وهي لغة التفاهم بيننا، قال بحسد إن آثار بلاده لايتجاوز عمر أقدمها ٧٠٠ عام في حين أن آثار بلادي تمتد إلى عمق آلاف السنين. . . ترحمت على أرواح الأجداد العظام الذين تركوا لي ما أعتز به في الحاضر المقفر وأقنعت نفسي بأنني أستحق تحية الانحناءة الراكعة. . .

دخلنا القلعة وتوغلنا وهو يتحدث همساً وكأنه في معبد . . عند دخول أول محراب مظلم هبت علينا رائحة كريهة، تعجب صاحبي ووضع منديله على أنفه . . كانت زوايا المحاريب مليئة بالمخلفات البشرية الطازجة . . استغرب تحول هذه المقدسات إلى مراحيض؟؟ . . نكست رأسي من الخجل والعار . . حاولت أن أبحث عن تسويغ وتبرير مقنع .

فقلت : سيد ياماأوكي ياما . . تعرف أن لنا أعداء كثر . . إنهم يتسللون إلى مقدساتنا بهيئة عشاق آثار ليسيئوا إليها .

فقال : ولكن لماذا لاتنظفونها . . لما لاتضيؤون القلعة . . بعض المخلفات قديمة . . هذا يعني أنه لاتوجد عمليات تنظيف؟!!

قلت مبرراً : سيد ياماأوكي ياما . . كثيرون منا لايرحبون بالسياحة والسواح الفرنجة . . ربما كان مدير القلعة واحداً من هؤلاء وهو لاينظفها محاربة للسياحة . .

– أمر عجيب ولايصدق . . السياحة مطلب حضاري واقتصادي . . السياحة تدر عليكم المال وتعمل لقاحاً ثقافياً .

– لقاح ثقافي . . تقصد الإيدز يا سيد ياماأوكي ياما؟!

أفحمته . . لم يقتنع بوجهة نظري التي اعتبرها غريبة . . أثناء التجول علق في حذائه بعض (الكخ) فاضطر إلى خلع الحذاء وحمله ليغسله، هكذا قدرت، لكنه عند الخروج من القلعة تخلص من الفردتين في أقرب زاوية بعد أن يأس من العثور على سلات للمهملات أو حاويات للقمامة . . ومشى حافياً إلى سيارته!! توقفت ملياً أفكر في العودة إلى الحذاء لاغتنامه لولا تذكري للتحية الراكعة التي ثابرت على أن أكون جديراً بها حتى آخر الشوط، هذا الحذاء الفخم الذي سأندم أسبوعياً على التفريط فيه فبغسلة واحدة كان سيعود جديداً كما كان . .

عند الباب استغرب منع الحراس المواطنين من الدخول إلى القلعة مع أصدقائهم من السائحات الأجنبيات قلت بالطريقة المعتادة في التبرير :

السائحات الأجنبيات محرومات من الوقاع والوصال الجنسي.. وهن يأتين هنا خصيصاً للإيقاع بشبابنا وقضاء وطرهن في أحضان الأوابد المقدسة مستفيدين من العتمة والخلو وطقوس أقدم مهنة في التاريخ.. الضرورات الأخلاقية تدفع حراسنا إلى منع حصول هذه الموبقات.. انتهت الزيارة وأنا أحمد ربي أنه لم يسأل عن كثرة الزنازين والأبواب الحديدية في قلاع الأجداد..

علي بابا والألف حرامي:

بعد عدة أيام تم استخدام حوالي ٥٠٠ عامل وطني للخدمة في المشروع، دونما حاجة لجهودهم وخدماتهم، ويمكن إدراج ماحدث، في لغة الاقتصاد، بما يسمى بالبطالة المقنعة. اشتكى اليابانيون من كثرة العمال الذين يعيقون العمل باستلقائهم في ظلال الآلات. وتدخينهم الخطر للنراجيل بجانب خزانات الوقود.. وأكد ياماوكي أن المنشأة بعد إنجازها لن تحتاج لأكثر من ثلاثين مهندساً مدرباً.. في اليوم التالي اشتكى اليابانيون من اختفاء الكثير من الأجهزة والأدوات (مثاقب، أجهزة خام، أدوات قياس، كاميرات.) بدأ المشروع وكأنه قد تعرض لغزو تتري.. ما أن يجلس الياباني لحظة للتنهد أو ليجفف عرقه أو ليشرب عصيراً أو ماء من زجاجة، ولم يكونوا يشربون سوى المياه المعدنية، حتى يفقد شيئاً.. تصوروا في البداية أن القضية سببها دوار جغرافي مرده تغيير المكان.. إلى أن قبضوا على أحد عمالنا الميامين متلبساً بالجرم المشهود اقتادوه بكل احترام إلى معسكرنا.. سلموه يداً بيد لمدير شركتنا ولما سألوه عن العقوبة التي سينالها قال المدير بحزم: ستقطع يده؟!

صعق اليابانيون واستفظعوا العقوبة.. هون المدير عليهم الأمر وأكد أن هذه العقوبة ستنفذ لتكون رادعة لأمثاله من النشالين وخائني الأمانة.. حاولوا طلب الرحمة لكن المدير اعتذر فاللص سيسلم إلى القانون والقانون لايعلى على صوته صوت.

ما جرى وراء الكواليس أن اللص أبعد إلى دائرة حكومية أخرى، عقاباً نكالاً، بعد تدخل أقاربه ذوي النفوذ والواسطات لدعمه . . . وكثرت التعليقات حول الحادثة فمن قائل بأن اللص بطل قومي لأنه يسرق اليابانيين الذين قدموا لامتصاص خيرات البلاد في لبوس شركات تحديث وإنشاء والسارق من السارق كالوارث من أبيه . . ومن مفت أن سرقة اليابانيين الكفرة حلال زلال وقد غاب عن بال المفتي أن البضاعة مشتراة بحر أموالنا وعرق أبنائنا . .

تنفس اليابانيون بارتياح بعد أن قبض على علي بابا، وقد راق هنا اللقب لعمالنا واعتبروه اعترافاً، والاعتراف سيد الأدلة، من اليابانيين بلصوصيتهم فعلي بابا كان لصاً شريفاً مثل أرسين لوبين وروبن هود . . لكن السرقات لم تتوقف بل تفاقمت فاضطروا إلى استقدام حراس من الفليبين، لقلة الأجوز، وصناعة صناديق حديدية ثقيلة لأدواتهم حيث وضع لكل صندوق سبعة أقفال . وعلى كل صندوق سلسلة حديدية ذرعها سبعون ذراعاً لاتقدر الأفيال على قطعها . .

قال ياما أوكي مستنكراً : قطعتم يده ولا يزال يسرق ! !

– لا تنس أن له يداً ثانية . .

– أما كان من الأفضل له ولنا ، حبسه وسجنه

انكشفت عورتنا وبان المخبوء . . انفرط عقد الاحترام . . توقفوا عن الانحناء لنا عند التحية . . انعزلوا وتحصنوا في مخيمهم واقتصر الاتصال على الضروريات وتواقيع الاستلام والتسليم، ويعود الفضل لعلي بابا في تفسير الحرص المحلي الإداري على كثرة التواقيع، الأمر الذي لم يكونوا يستوعبوه، فسلمت يداه وطال عمره .

التركمان في اليابان:

حان أوان تدريب الكادر المحلي على استثمار المنشأة . العقد ينص على تدريبهم في بلد المنشأة وكان رئيس قسم الاستثمار الياباني (ميزاوا) قد

أعد قائمة بأسماء المهندسين المبرزين الذين توسم فيهم الذكاء والقدرة على القيام بهذه المهمة الحضارية . . رفع جدولاً بالأسماء إلى إدارة شركتنا ، أو ما يختصر في المراسلات البريدية ب (T. S. O. C) * (على شكل توصية . لكن إدارتنا حفظها الله وسدد خطاها . غير تابعة ومستقلة القرار ألقت بالتوصية في سلة المهملات وأعدت جدولاً بأسماء اختارتها هي . . إستغرب رئيس قسم الاستثمار الياباني أحد الأسماء وسألني عنها . قلت بصدق هذه المرة . . هذا ليس موظفاً في الشركة . .

اندهش وتساءل عن سبب حشر اسمه بين أسماء المرشحين للإيفاد فقلت : إنه رئيس بلدية العاصمة . . .

وما علاقته بالمنشأة . . هل سينتقل إليها . . . هل مهندس ميكانيكي أو خبير طاقة ! ! !

- . . . . .

ومن حسن حظي أنني كنت بين المرشحين السبعة ، وقد اخترت لسببين ، كفاءتي والسند الذي دعمني . . فالكفاءة وحدها لاتكفي . . قبل السفر . . نصحنا مديرنا ، باعتباره صاحب تجربة سابقة في زيارة اليابان ، لقيامه بإجراءات التوقيع على العقود هناك . بضرورة التزود بالمؤونة والغذاء . . فالأغذية والأطعمة هناك غالية فطوكيو أغلى مدينة في العالم ، والتوفير يقتضي هذا الإجراء الاقتصادي . . وهكذا أتخمنا حقائبنا بالأغذية والمعلبات المحلية والأغذية المجففة التي دفع اليابانيون أثمان زيادات الأوزان في المطار ، بعد ٣٢ ساعة سفر وصلنا إلى طوكيو التي تشبه المدن الخيالية في أفلام الخيال العلمي الكارتونيه ، جسور متراكبة من عدة طبقات معلقة في الفضاء ، أرتال من النمل البشري ، شاشات عملاقة للدعاية وبث الأخبار السريعة ، صبايا يقدن الدراجات النارية . كان بانتظارنا دليل الشركة التي أعدت كل شيء في جداول برامج المحاضرات وأماكنها ، الفندق ، المطعم المختار ليلائم أذواقنا ، جداول الزيارات السياحية والترفيهية . . إلخ .

سببنا لهم الكثير من وجع الرأس وكبدناهم خسائر اقتصادية، رغم كل تطورهم العلمي كانوا يقفون حائرين أمام أسئلتنا بعد كل محاضرة علمية التي كانت من هذا القبيل:

- ما هو اسم رئيس وزرائكم..؟

رغم عدم وجود علاقة ما بين السؤال والمحاضرة العلمية، كانوا يخجلون ويجهدون في الحصول على الإجابة بالاتصالات أو بالرجوع إلى الموسوعات والكمبيوتر.. اعتذر المحاضر عن تأخره المستمر في الحصول على أجوبة لأسئلتنا العويصة:

- رؤساء الوزراء يتغيرون بسرعة.. كل ستة أشهر تقريباً لدينا رئيس وزراء جديد.. لايسعنا الوقت لحفظ أسمائهم.

- إذاً ليست طريقة في تداول السلطة!

- لا... الفساد هو السبب.. غالباً أن يقال أو يستقيل أو ينتحر بعد فضيحة مالية..

- الحمد لله.. ليس لدينا فضائح مالية!.

طلبنا زيارة قصر الإمبراطور فأجابونا إلى طلبنا.. رأيناه رأي العين.. كان يتمشى في حديقة قصره دون حراسة تصوروا.. انتهت الدورة.. وعدنا إلى الوطن الحبيب محملين مثلما رحنا، رجعنا ونحن ننوء تحت أثقال حقائبنا المليئة بالبضائع الإلكترونية لبيعها في السوق المحلي مستفيدين من فروق الأسعار.. كان لدينا الكثير لنرويه ونحكيه.. استقبلنا الأهل والأصدقاء بالأحضان:

- كيف يعيش هؤلاء الكفرة؟

- كم وفرتم من أموال مصروف الجيب؟

- ألم تخافوا من ركوب الطائرة؟

- كم يابانية عاشرتم؟

سخرنا من الكفرة الذين يعبدون الأصنام من دون الواحد القهار، ومن حياتهم.. يعيشون كالنمل، يعملون ليل نهار.. رغم تقدمهم العلمي يجهلون اسم رئيس وزارئهم.. تصوروا يا شباب.. لايعرفون موقع تركيا الجغرافي.. لم يسمعوا بها.. احتلينا العالم ولايعرفوننا.. وتباهينا للأهل بسرقتنا السمك الوقف من سواقي المعابد والقلاع وشيه على الميكروويف انتقاماً من الصوم عن لحوم الخنزير (قبحه الله) ودبجنا للمديرين ورؤساء مخافر الجند رمة السرية تقارير كيدية وحاسدة عن صراعاتنا الحزبية والسياسية إلى درجة تلاكم اثنين بالأيدي في الشارع* ٣.

ملحمة الملاحم:

بسقت في قمة جبل قرداش خلايا ادخار الطاقة الشمسية على محاور برجية يصل طولها إلى ١٦٠ متراً وحدد يوم قص الشريط الحريري لتدشين المرحلة الأولى من منشأة تحويل الفصول: مرحلة تحويل الشتاء إلى صيف.. في يوم الافتتاح تأخر كثيراً موكب وزير الطاقة وتعليب الشمس (وزارة مستحدثة) عن موعد «السرموني».. وصل أخيراً تسبقه زمامير البوليس المولولة وزغاريد صبايا الكشافة وتصفيق المواطنين وإطلاق الرصاص في الهواء.. تحولت المنشأة إلى ساحة حرب (على التخلف) نزل الوزير واتجه إلى مكبر الصوت واستل أوراقاً وبدأ يتلو خطبة سرمدية تحدث فيها عن عظمة عقول أبنائنا وقوة سواعدهم التي أنجزت هذه المعجزة الاقتصادية (بالتعاون) مع اليابانيين ولأن لكل شيء نهاية فقد انتهت الخطبة التي بدت وكأنها لانهاية لها بالهجوم على كعكة السرموني الكبيرة.. كلمة مدير الفريق الياباني كانت برقية وقصيرة: نحن مسرورون بالتعاون معكم. وشكراً.. وهو يتبادل الأنخاب ويلتهم الكعك سأل السيد الوزير السيد ياماأوكي عن رأيه في الخطبة: وكانت بلغة إنكليزية ركيكة فرد بصراحة غير معهودة. ٤

- كانت طويلة قليلاً . . أنتم بارعون بالكلام . .

وسأله في إذا كانت له شكاوى على فريقنا فقص له قصص النشل والإهمال والتبول ٥ في غرف التحكم فاندهش السيد الوزير . . ووعده بأن يقلع عين المدير قلعاً ويشويه على الفحم ثم يطعمه للكلاب الضالة : وسط دهشة ياماأوكي من لغته العنيفة .

منشأة تحويل الفصول في الخدمة:

سلمونا المرحلة الأولى من المنشأة . . الشتاء على الأبواب . . فركنا أيدينا . . لن يبرد سكان تاطلي هذا العام . . لكن لم تكن لدينا خطط للاستثمار . . في أول مناوبة للمهندس تورغوت . . في الليلة الأولى رن جرس الهاتف . . فرفع السماعة

- ألو . . هنا منشأة تحويل الفصول

- ولاه . . أنت مهندس الاستثمار .

- نعم سيدي . . من حضرتكم .

- ألم تعرف صوتي ولاه . . ألاتسمع الإذاعة والتلفزيون . . أريد منك أن تحول ظلام ليلي البارد إلى نور نهار دافئ . . أريد أن أسبح الآن . . هيا أسرع .

- ولكن سيدي .

- انظر . . أنا أخيم في ضاحية الجندي الشجاع وإليك أحداثياتها . .

- سيدي المرايا الضوئية البائة في حالة BANK . . ادخار يعني . . لاأستطيع أن أحركها الآن . . التحويل يحتاج إلى إعداد الضغوط

- ولاه . . لاتسلبها علي . . هيا .

وأقفل الخط

بعد انتهاء المكالمة . . اتصل آخر

– أين مهندس الاستثمار

– إنه يتكلم معك يا سيدي

– ولاه– أنا الجنرال سيزكين باشا ألاتعرفني

– تشرفنا سيدي

– أريد منكم أن تسلطوا الخلايا الضوئية العاكسة على جبل أرارات . .

– سيدي . . الجبل أبعد من مدى المرايا المجدي

– ولاه . . قرأت عن المعجزة العلمية في الجرائد . . . السيد وزير الطاقة صديقي . . لاتحسبني مغفلاً . .

هيا أسرع

– ولكن سيدي

– هيا أنا لاأطلبها لتشميس مزارع البندورة والبطاطا مثل الباشوات الآخرين . . في وادي أزدشير يختبئ مخربون وإرهابيون . . إذا سلطت الشمس على الثلج يذوب ويغرق المخربين . . إنها قضية وطنية

– ولكن سيدي

– ولاه . . أنت متآمر على الوطن مع المخربين . . جهز نفسك للاعتقال

ملاحظات ختامية

لم تستثمر المرحلة الأولى من المنشأة سوى يومين بسبب أعطال سوء التشغيل والتحريك السريع والمفاجئ للمرايا فقد تصارعت قوى النفوذ على الاستثشار بالمنشأة العظيمة . . أخذت المرايا تلوب حول محاورها مثل الصحون اللاقطة لبث الأقمار الصناعية . . إلى أن تكسرت المحاور

وانفجرت مراجل الضغط القائد.. أما المرحلة الثانية (تحويل الصيف إلى شتاء) فقد أجلت لعدم إيفاء الفريق الثاني بالالتزامات المالية والعقدية.

- لم يخل المشروع من فوائد وطنية واقتصادية رغم تعطل المرايا.. العمال لايزالون يقبضون أجورهم (على قلتها) لقاء ما يقومون به من تدخين ونوم!!.. والصحافة لاتزال تتحدث عن المنشأة كإنجاز قومي لبلدنا المعطاء وهو يخطو إلى عتبة القرن الواحد والعشرين مرفوع الهامة..

- ازداد الشتاء في وطننا العظيم قسوة والصيف قيظاً وحرارة... آلتنا الشمساء وقفت مشلولة أمام ظاهرتي النينو والنينا وقد اعتبرت الصحافة المحافظة هذه الظواهر عقاباً عادلاً من السماء على فسق الرعية وفجورها داعين إلى العودة إلى جادة الأخلاق والدين القويم.

لم تخل المنشأة أثناء التشييد والتجهيز من الحوادث التالية:

- انتحار مهندس ياباني بطريقة الهاراكيري تكفيراً عن خطأ سوء تحميل بعض الأعمدة الحديدية على الرافعة (الكرين) وقد صار حديث المنتحر العجيب مجال تندر طوال أسبوعين سيما إذا عرفنا أن الخطأ لم يتسبب سوى بانحناء ثلاثة أعمدة، فقط لاغير.

- موت أحد عمالنا إثر سقوط دعامة حديدية من أحد الأبراج عليه وهونائم في ظل الآلة حالماً بشتاء دافئ وصيف بارد وقد اعتبر المرحوم شهيداً وسميت إحدى البرجيات باسمه، تكريماً لذكرى جهاده وحسن بلائه في العمل!! ألف رحمة عليه.

- قيام أحد عمالنا الفنيين الفحول بتحويل ربيع الخبيرة اليابانية وهي الأنثى اليابانية الوحيدة في المشروع إلى خريف في أحد المصاعد ويعتقد البعض أن الحادث من العوامل وراء توقف التعاون بيننا وبين اليابانيين فهم قوم ذوي شرف وناموس وعرض غال مثلنا.. ألا تقرؤون وتسمعون مايحدث في جزيرة أوكيناوا.. وقد نال هذا العامل عقوبة الرفس واللكم

ليس لعملية الاغتصاب كما يروي الشهود إنما لاغتصاب يابانية قبيحة وضيفة وقد نفى المغتصب أن تكون قبيحة وقال أن أنيابها مثيرة جنسياً، ولمعظم اليابانيات أنياب طويلة قياساً إلى أنياب بناتنا وقال المغتصب الفحل في معرض دفاعه عن نفسه إنه كانت الطريقة الوحيدة للانتقام من تفوقها العلمي عليه. ؟

الهوامش

(١) - أي الشركة التركية لتعليب الطاقة الشمسية.

(٢) - كبدناهم كميات هائلة من الخبز تكفي قرية كاملة، كما قال الدليل وتسببنا في حرق شراشف الفندق التي كنا ندخن فوقها غير آبهين بالتحذيرات الفندقية وأصول اللباقة. ومن حسن خلقنا وأمانتنا إن بعضنا احتفظ بمتاع الفندق مثل الكمونو والشبشب المخصص للنزلاء فترة الإقامة، عند المغادرة والعودة إلى الوطن الحبيب وأسأنا استخدام بعض هذا المتاع، الذي لم يكن بالإمكان الاحتفاظ به، مثل الترمس المخصص لغلي مياه الشاي الذي تحول على أيدينا إلى وعاء لسلق البيض والمعكرونة.

(٣) - الخلاف بين ياجين الرفاعي وبكر من الطريق القويم كان مستفحلاً، فبكر كان لايني يذكرنا برئاسته للوفد ويصدر الأوامر وكأنه جنرال حربي، طفح الكيل بصاحبنا ياجين ولكمه على فمه في أحد الاستفزازات، وسط الشارع الياباني ولولا تدخلنا لسال الدم التركي في الشارع الياباني.

(٤) - كان اليابانيون في غاية التهذيب، وحدث مرة أن استضافت مجموعة من عمالنا المهندس المدني كيزموتو على قدح شاي فاستطاب طعمه وطلب قدحاً آخر. . عندما أحضر الإبريق، وكان إبريقاً عجيباً أشبه ما يكون بقازان الحمام، مطعوج ومرضوض وكأنه خارج من الحرب العالمية الثانية، عند رؤيته لم يتمالك كيزوموتو نفسه، رمى القدح ووضع إصبعه في فمه واسترجع ماكان قد احتساه وركض إلى المغاسل. . في اليوم الثاني جاء واعتذر من الشباب بعلبة من الدخان الأمريكي. .

من قال إنّ اليابانيين بخلاء؟؟

(٥) - كان بعض عمالنا يتبولون في آنية ومجاري الكابلات لكثرة شربهم للشاي والزنجبيل أو ربما لبعد دورة المياه، لا. . ليس لهذا ولا لذاك. . بل لكسلهم الشديد. فلا يمكن أن نكذب على القارئ في الهامش كما كذبنا عليه في المتن!!.

(٦) - هامش إضافي ١: تعاقب على إدارة الشركة، في سنة واحدة، غير كبيسة، تسعة مديرين، أي بمعدل مدير لكل ٣، ١ شهراً. ويعود السبب في هذا إلى التسابق والتنافس الشديد على تولي إدارة، منشأة تحويل. . المديرين إلى حرامية للفوز بالغنائم ومنافسة علي بابا.

(٧) - هامش إضافي ٢ يمكن تبديل عنوان القصة إلى (يابانيون وكونغولويون أو يابانيون وباكستانيون أو يابانيون و. .) حسب الرغبة والشهية والطلب.

ابــــــداع

بهلوان وحبل

نجـــوى النابلـــسي

اعتدت الرقص على الحبال.. توازنت طويلاً عليها .. ظننت حياتي ستنتهي على الطرف الآخر لحبل السيرك الذي أمارس دوري فيه.. خطوات مهتزة نحو الأمام.. نحو الخلف.. وقفات حائرة.. هكذا كانت حيــاتي قبل أن ألتقيــك.. حفل سيرك صاخب ملون.. وأنا راقصة على الحبال معلقة دوماً في الهواء بين الأرض والســمـاء..

نجوى النابلسي: أديبة وقاصة من سورية، تنشر أعمالها القصصية في الدوريات المحلية والعربية.

فلا هويت محطمة ولا امتلكت أجنحة تعيد إليّ مهارة التحليق آمنة إلى السماء . . يمارس من حولي أدوارهم . . ويتجاهلونني . . باستثناء لحظات قد يشدهم فيها وقوفيالحائر . . بهلوان زاهي الألوان . . ينزع قناعاً بعد آخر ريثما ألاقيهم . . ومن ثم يتابعون حياتهم لاهين عني .

طال اهتزازي وحبال عمري تتقطع أمامي حبلاً وراء آخر ، وكلما تقطّع حبل استندت إلى غيره محاولة الحفاظ على توازني . . أرتجف بانتظار السقوط الأخير أو ربما أحلم بالسباحة في الأثير .

ارتدي قناع السعادة لكل زائر جديد ريثما أجتذب عينيه فيرفعهما إليّ لحظات . . ألعب دوراً حفظته جيداً . . تمثيلية صامتة أخلع بعدها قناع الفرح كأي بهلوان وأخفي بيديّ وجهي الحقيقي . . وجه الخنوع لنفسي .

التقيتك كماالتقيت سواك . . مالكي ومسير الحفل البهي . . قدمني إليك تماماً كما قدمت من قبل لغيرك . . تناولت يديّ مصافحاً -تباركت يدي- فابتسم وجهي خلف القناع . . اعتدت هزّ الآخرين لرؤوسهم مرحبين بالبهلوان الصغير فما بالك تصافحني . . ألا ترى أن هذا كان جزءاً مضافاً لا داع له في حفل التقديم المألوف . . في تمثيلية صغيرة ألعب فيها دوري برضى . . بدأت دوراني ورقصي الهزلي أستحثك على إنهاء الجولة سريعاً لكنك أطلت الحديث . . أكثرت الأسئلة . . بالغت بالاستفسار . . لم يبهرك رقصي . . أدهشتك إجاباتي الراقصة . . وبمكر هادىء رصين بدأت تنزع أقنعتي . . قناعاً تلو قناع . . راقني أن تهتم وتستمع . . وجدتك متلذذاً بسردي وقصصي . . ولا أدري كيف استطعت نزع القناع الأخير ، ووجدت صوتي يسرد عليك حكايتي . . وكنت أظن أنني فقدته . . لكنني وجدته معك عالياً وقوياً متلهفاً لأداء تمثيلية ناطقة بعد أن ملّ التمثيل الإيمائي .

فاتنة الجمال . . فائقة العذوبة . . رقيقة النفس . . حالمة الميول . . هكذا كنت يوم بدأ معي مشوار الارتباط الأبدي . . ما أملكه كان يستحق ثمناً باهظاً كما اقتنعت وتم العقد ككل العقود . . لديه المال وامتلك الجمال ، بدا العقدمتوافقاً في الأخذ والعطاء . . وكل حلمي كان ثوب زفاف لا ككل الثياب وزفة تليق بطموحي . . وبيت يزيد زينتي بهاء . خلعت ثوب العرس وانتهت زفة الأحلام والحفل الكبير

وبدأت طبول الوقائع قرعها المتصل.. تزفني كل يوم إلى أصدقاء الزوج الذين يقرعون باب غرفتي.. وسيدي يتابع درب النجاح ثمناً.

ما بالك.. ترفع حاجبيك مندهشاً.. ألا تعطي الحياة شيئاً مقابل أشياء؟ أقنعني بمنطقية المقايضة.. نقايض على مستقبلنا معاً بفترة مرحلية لن تطول.. منطقية لاقت استحساناً في ذاتي.. لابدّ أننا نتفق في بعض الأمور. وجدت في نفسي قدرة على التمثيل فراقني الدور حتى ذبت فيه.. اعتدته وبدا لي مسلياً قاتلاً للرتابة وموحياً بالهامات تتجدد كل يوم، شيء غريب كان يبعدني عنه فأرفضه هو.. من كان شرعياً وواجباً.. شيء في داخلي كان يتقزز.. يتكور.. يبتعد.. أكان استنكاراً لا واعياً.. أكانت تلك طريقتي في معاقبته.. أجعله يستشعر عجزه عن إرضائي.. عجزه عن امتلاكي فأطعن رجولته وثقته.. ألا أزال أخفي بعضاً من حنين إلى زمن الطهر.. ربما.

أنجبت طفلاً.. لم تكن أمومتي له تعني لي الكثير فأنا لا أدري لأي أب ينتمي.. تسلية جديدة أضفت على حياتي لوناً آخر.. أتملى وجوه الأصدقاء- أصدقاء زوجي- وأتساءل أيهم يشبه ولدي.. أيهم يمكن أن يكون له أباً.. تسلية أقضي على متنها ساعات متأرجحة كالعادة على حبال الشك واليقين.

تشربت اهتمامك.. أحببت إنصاتك وعينيك الممتلئتين دهشة كأنك تتابع عرضاً مستحيلاً.. رواية في مسرح اللامعقول.. وجدت صوتي معك.. صوتي الذي نسيته منذ سنين.. فجدار الصمت كان يرتفع كل يوم في حياتي.. جدار بارد يضيف حجرة منعزلة أخرى إلى فسحات قلبي.. وحدة صوت الحبال كان مسموعاً.. أوتاراً مهتزة.. لعلها بالصمت بدأت تتحول إلى مشنقة عالية الضجيج.

وأسمعك تردد محموماً.. أكملي.. فأضيف تفاصيل جديدة.. مزيداً من قصص صحاب زوجي.. أم صحابي.. أم آباء طفلي اليتيم.. المتعدد الإنتماء.. يلهبك سردي فتنهمر شلالا من نار وجمر يحرقني معك.. ربما أحببتك.. لكني على يقين أنني أحببت الاستماع لنفسي معك.. أحببت صوتي المكتشف، عشقت ذاتي المولودة منك.. روعتي القديمة المستجدة في عينيك توقاً لحديث أشتهيه فأهرع

إليك كلما ناداني صوتك لأرتمي بين ذراعيك وأغرقك بصوتي الذي كتمته زمناً وانطلق معك ماردا معبراً وطيراً يعشق التحليق.

أصبح البهلوان أميرة أسطورية والممثلة المحترفة بطلة لقصة حقيقية.. شوقي إليك يرتفع فوق مدّ وجزر عمري.. قمراً يحكم موجي وتقلباتي ويحدد وحده آفاق فكري واتجاهات أيامي.. يتنزه وحيداً في ليلي ويعلن نفسه سيداً مطلقاً العالم الظلمة.. ظلمة أغرقت نفسي في سراديبها فافترستني وطاويطها وابتلعت حنجرتي.

أنفاسك نفثت روحاً جديدة في جسدي.. ولادة جديدة.. تخلقت منك وتجسدت بك بشرية تنزع عن وجهها كل أقنعتها لتواجه السماء نادمة بعد أن تطهرت بحبك وتعمدت بقبلاتك.

أهديتني كتاباً.. وكنت روائياً ناشئاً.. تحلم بالشهرة والمجد.. فرحت به.. حملته معي.. وانزويت أطالع كلماتك.. مع السطور غرقت.. وعلى السطح طفوت جثة حية.. قصتي سطرت بقلمك حرفاً حرفاً.. بوحي.. ثقوب روحي.. جنون أيامي.. قسوتها.. ورقصي البهلواني على حبال عمري.. عشقي لجسدك وفكرك.. تحول تحت أناملك قصة يطالعها الآخرون.. مشاعري القدسية التي طهرتني التي جعلتني أحاول قص الماضي من حياتي.. ماكنت لك إلا إلهاماً لقصة تحصد منها نجاحك.. سقط قناعك كما سقطت من قبل أقنعتي.. قناعك كان ستراً لأنانيتك وترفعك عن ضعفي.. وأقنعتي كانت ستراً لبشريتي لإنسانيتي.

ورأيت نفسي من جديد بهلواناً على حبل أمجادك.. كما كنت من قبل راقصة على حبال أمجاده.. لم تختلفا كثيراً.. من سخّر مني الجسد.. ومن استغل مني الرّوح.

مزقت كتابك.. حبلاً آخر حول عنقي.. تناولت حبلاً لففته جيداً حول عنق طفلي وشددته.. حتى الموت.. كتابك وطفلي لم يكونا ثماراً ناضجة..

واتجهت إلى السجن.. هنا لن أرتدي أي قناع.. لن أسجن فوق الحبال.. لن أسجن بين دفتي كتاب.. هنا سأكون حرة.

* * *

بين المركز والمحيط: الأدب العربي في دائرة الأدب العالمي

د. عبد النبي اصطيف *

تقديم:

وضعت أوربة المتمركزة حول نفسها «الأدب الغربي» في المركز من دائرة الأدب العالمي، لتترك المحيط للآداب الأخرى ولاسيما آداب دول الجنوب -بما في ذلك الأدب العربي. ومضت إلى أكثر من هذا عندما جعلت «الأدب الغربي» المعيار الذي يقاس به تقدم أي أدب، وحولت عملية «التحديث» التي روّجت لها بين آداب الجنوب «التقليدية» إلى عملية «تغريب».

* د. عبد النبي اصطيف: أديب وباحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب. استاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق.

ولكن المفارقة تكمن في أن هذا الأدب الغربي مدين بنشأته ونموه وتطوّره لتلك الآداب التي دفعها إلى محيط دائرة الأدب العالمي، وأن هذه الآداب مؤهلة في الحقيقة أكثر منه لاحتلال مركز الدائرة.

المشابهة:

المركز والمحيط عنصران مهمان في أي دائرة. فدون المركز ليس ثمة من منطلق يُحدّد المرء به مسار القوس الذي يكتمل بالمضي قدماً في مساره المنحني إلى أن يلتقي من جديد بنقطة انطلاقه، ويغدو بذلك حلقة تامة؛ ودون المحيط ليس هناك من دائرة، بل مجرد نقطة تائهة في فسحة space لا سبيل إلى أسرها وتحديد موضعها، وبالتالي تقدير منزلتها وأهميتها. ومعنى هذا أن العلاقة بين المركز والمحيط في أية دائرة علاقة وثيقة، بل جد حميمة، ذلك أن المحيط، بمعنى ما، ليس غير مركز توسّع فبلغ ما بلغ وأصبح محيطاً، وأن المركز، بمعنى ما أيضاً، ليس غير محيط انكفأ على نفسه وانكمش ليغدو نقطة تجمع وارتداد إلى نقطة البدء. وللمرء أن يتخيّل هذه العلاقة عندما يتمثل حركة كاميرا التصوير السينمائية أو التلفزيونية بين أقصى نقاط أرضية الصورة background عمقاً، وبين أقرب اتساع لهذه النقطة في فسحتها الأمامية foreground، وهو ما يطلق عليه المختصون حركة الـ zoom صعوداً وهبوطاً، قرباً وبعداً، بين أرضية الفسحة التي تحتويها الصورة وبين أماميتها. ولا ينسى المرء بالطبع أن العلاقة بين المركز والمحيط في أية دائرة تنطوي على مفارقة مثيرة للانتباه وهي أنه كلما ابتعد المحيط عن المركز اتسعت الدائرة وتنامت فسحتها وأهميتها.

دائرة الأدب العالمي:

وإذا ما تمثل المرء مفهوم «الأدب العالمي» «Weltliteratur» أو «World Literature» دائرة واسعة تضم مجموعة كبيرة من الآداب القومية المختلفة، القديمة والوسيطة والحديثة، يتوضّع بعضها في المركز من هذه الدائرة، في حين يقبع بعضها الآخر في المحيط منها، ويشغل البعض الثالث مواضع

متفرقة فيما بين المركز والمحيط، فإنه لابد مسائل نفسه عن المعايير المعتمدة في توزيع مناطق، أو حلقات، هذه الدائرة على هذه الآداب القومية المختلفة وفي تحديد مدى قرب بعضها أو بعده عن المركز من جانب، أو عن المحيط من جانب آخر. وهو تساؤل مشروع لأن الإجابة عليه تنطوي على فهم معين لطبيعة الأدب ووظيفته وحدوده في المجتمع الإنساني. ومعنى هذا أن إطلاق التساؤل من ناحية والسعي إلى الإجابة عنه من ناحية أخرى يدخلان في صلب التفكير النقدي في المسألة الأدبية في المجتمع الإنساني. وأكثر من هذا، فإن انطلاق مسعى كهذا من منظور مقارن، يعني اتساع أفق استشراف عملية التفاعل بين الآداب القومية اتساعاً يمكنه من احتضان الغنى والتنوع اللذين تنطوي عليهما التجربة الإنسانية في الأدب.

مفهوم الأدب العالمي ونزعة التمركز حول الذات:

والناظر في حقيقة مفهوم «الأدب العالمي»، -هذا المصطلح الذي سكّه غوته عام ١٨٢٧-[١] كما يتصوّره منظرو الدراسات الأدبية المقارنة في الغرب يجد أنه ينطلق من تمركز مسرف حول الذات الأوربية يكاد يبلغ النرجسية. ذلك أن أوربة القرن التاسع عشر، التي اكتمل وعيها بذاتها بوصفها قوة عالمية مهيمنة على مقدرات العالم ولاسيما دول الجنوب، التي غدت مرتعاً خصباً لتحقيق الذات الأوربية على كل المستويات، وعلى حساب سائر الذوات في سائر العالم، وضعت أدبها الغربي في المركز من دائرة الأدب العالمي، وتركت المحيط للآداب الأخرى (القديمة كالأدب الصيني، والياباني، والفارسي، والهندي، والعربي؛ والحديثة كالإفريقي والآسيوي والأمريكي اللاتيني وغيرها)... بل إن أوربة مضت في هذا السبيل إلى أبعد من هذا فجعلت من «الأدب الغربي» «western lierture» بأجناسه الرئيسية والفرعية، وتقنياته الفنية، وحساسياته النفسية والاجتماعية، وقيمه الجمالية، ومشاغله الإنسانية، معياراً تقوّم به الآداب الأخرى، وتقيس من خلاله تقدّم أي أدب آخر، وحوّلت عملية «التحديث»

«modernization» التي روّجت لهـا بين آداب الجنوب -ومنهـا الأدب العربي- إلى عملية «تغريب» «westernization» أي أنها بعبارة أخرى جعلت من ذاتها المسطرة التي تمثل القيم الإيجابية على مختلف الأصعدة والتي ينبغي للآخر غير الأوروبي أن يقيس بها نفسه ويحكم عليها، وأن ينفق حياته جاهداً لتمثل هذه القيم واتخاذها المثال الذي يحتذى والمآل الذي يُسعى إليه.

والحقيقة أن مفهوم «الأدب العالمي»، مفهوم ينبغي أن يحمل في صلب دلالته كما يبدو للمرء، بعداً عبر قومي transnational، عبر إقليمي -transregional، عبر لغوي translingual، وبالتالي فإنه لا يسعه إلا أن يستغرب أشد الاستغراب أن يكون محكوماً بنزعة المركزية الأوروبية Eurocentrism. وسواء أقصد بهذا المفهوم هذا المزيج الغامض من آداب العالم كلها -على حدّ تعبير إدوارد سعيد- أم قصد به «الكتب العظيمة»[٢] «Great Books» أو «الروائع «Masterpieces» التي تتجاوز في تأثيرها الحدود السياسية واللغوية والقومية، فإنه مفهوم يُعنى بالأدب -بوصفه واحداً من الفنون الجميلة- عناية تتجاوز الحدود السياسية واللغوية والقومية والإقليمية الضيقة، وينظر إليه نظرة تتسم بالرحابة والشمول. ومعنى هذا أن أي موقف يجانب هذه النظرة الإنسانية الشاملة الرحبة سيكون مناقضاً لروح المفهوم ذاته، وسيكون بالتالي معيقاً لتطوره إلى حيثما يرجو له الباحثون من مواقع ترسخ قيم التعاون والمشاركة والتفاهم والاحترام المتبادل بين مختلف الشعوب والأمم، من خلال تثبيت هذه القيم عبر فنونها الجميلة بوصفها الوسيلة الأمثل لغرسها في النفوس والأرواح، والضمان الأمثل لبقائها في الفسحة الإنسانية التي طالما حرصت عليها سائر الأديان والعقائد والمذاهب والحضارات البشرية عبر العصور، في شرق العالم وغربه، وشماله وجنوبه، إعلاء لإنسانية الجنس البشري، وتحقيقاً لجوهر تساميه

ولكن النزعة المركزية الأوروبية ليست مرفوضة فقط على أساس من

تناقضها مع روح الأدب العالمي بأبعاده المتجاوزة للحدود السياسية واللغوية والقومية والإقليمية، وقيمه، التي تعلي من إنسانية الإنسان بصرف النظر عن لونه وجنسه وعرقه ولغته ودينه وسنه، بل هي مرفوضة أيضاً لمجافاتها الحقيقة العلمية الصريحة التي بدأت تتجلى بالتدريج لدارسي الأدب العالمي ومؤرخيه، وفحوى هذه الحقيقة يمكن تلخيصه على النحو التالي: «إن الأدب الغربي الذي استأثر بالمركز من دائرة الأدب العالمي، ودفع بسائر الآداب الأخرى إلى المحيط، مدين بنشأته ونموّه وتطوره في شقيه الشفوي والمكتوب، الشعبي والرسمي، وفي مختلف أجناسه لتلك الآداب التي ربما كانت مؤهلة أكثر منه لشغل مركز هذه الدائرة».

فأما الجزء الشفوي والشعبي من هذا الأدب فهو مدين للشرق وآدابه بالكثير من موضوعاته وأجناسه وتقنياته وصوره وقيمه، كما توضح ذلك الأبحاث المقارنة المنشورة حديثاً في شرق العالم وغربه. وحسب المرء أن يشير إلى كتاب إل. رانيلا . EL. Ranelagh الموسوم بـ «**الماضي المشترك: أصول الآداب الشعبية الغربية**»[٣]، التي ظهرت ترجمته في مطلع هذا العام (١٩٩٩)، عن سلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت، وقامت بها خبيرة الأدب الشعبي في الثقافة الحديثة الباحثة الدكتورة نبيلة إبراهيم، وراجعتها الباحثة الدكتورة فاطمة موسى الخبيرة العربية الأولى بعالم «**ألف ليلة وليلة**» وتأثيره الواسع في الآداب الأوربية.

يكتب رانيلا مقدماً كتابه المثير الذي صدر أول ما صدر عام ١٩٧٩:

«إن فكرة المصادر الثلاثة للثقافة الغربية، التي يعد الجانب العربي مصدراً مهماً، ربما لا تكون جديدة على الباحثين الأكاديميين، ولكنها مفاجئة لما عداهم..

وقد تعلمنا أن حضارتنا نشأت عن جذور كلاسيكية ومسيحية، أي يونانية، ثم مسيحية -يهودية، وأن العناصر الكلاسيكية ظلت مفقودة في معظمها، إلى أن أعيد اكتشافها فيما عرف بعصر النهضة، أما اليوم فبعد أن

أصبح العالم أصغر، ووسائل الاتصال فيه أيسر، والمؤسسات الدينية أكثر استرخاء، وتبادل المعلومات العلمية أكثر انتشاراً، فإننا قد اعترفنا بالأرض المشتركة بيننا وبين العرب، فثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية -لاتينية- عربية.

لقد وصل إلينا الأدب الإغريقي من خلال الرومان، أي أنه وصل إلينا باللغة اللاتينية، إلا أن الجانب الأكبر من المعارف الإغريقية التي تضمنت العلم والفلسفة، وصلنا عن طريق البيزنطيين من خلال الترجمة العربية عن الإغريقية، وقد نمّى العرب هذه المعارف، وانتقلت عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينية، لقد كانت إسبانيا وصقلية جسرين للمشروعات الضخمة للترجمة في القرن الثاني عشر التي انتقلت عبرها المعارف العلمية من العرب إلى غرب أوربا، التي كانت آنذاك في مرحلة بدائية(٤).

ويضيف مخصصاً الحديث عن موروث أوربة من العرب ولاسيما في ميدان الأدب الشفوي فيقول: «وأهم ما يعنينا هنا هو ما ورثناه عن العرب لأنه غير مألوف لدينا، وليس هذا بالأمر الهيّن، فالناس الذين سموا في العصور الوسطى بالعرب، أتوا من مجموعات إثنية مختلفة، من بينهم اليونانيون والفرس والهنود والقبط والأتراك والأرمن واليهود. وقد تم استيعاب الحضارة الغنية التي يمثلونها في الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، ولكن انتشار الإسلام في القرن السابع فرض عليهم ثقافة جديدة هي ثقافة الغزاة، وقد عبرت عن نفسها في أسلوب عربي جديد في الحياة.

وكانت الحقيقة الجوهرية لهذه الثقافة هي الإسلام، دينها الرسمي، كما أن وسيلتها في التعبير هي اللغة العربية: لغة القرآن الكريم. ومع ذلك ففي الأساس من هذه العوامل الجامعة، هناك التاريخ الفكري المركب الذي يعكسه الأدب العربي في العصور الوسطى، وكان التيار الهائل من القص الشعبي جزءاً من هذا الأدب. وكثيراً ما ظهر هذا القص مدوناً أولا في الهند أو في بلاد فارس، ومن ثم صنف بوصفه أدباً إلى جانب أنه فولكلور، إلا

أنه كان شفاهياً في المحل الأول، شارك فيه، المتحدثون باللغة العربية، ونقلوه معهم إلى أوروبا في أثناء توسعهم، وعلى الرغم من أن العصور الوسطى كانت هي الفترة الخصبة للتأثير العربي، فقد استمرت حركة تلاقي الحضارات بعد ذلك، ثم جاء عصر النهضة، وفي هذا العصر أدخلت المخطوطات الكلاسيكية للأدب الإغريقي إلى دائرة العلم الغربي حيث حلت اللغات العامية محل اللاتينية. ثم جاء العصر الحديث ومعه أشكال لا نهاية لها من المثاقفة، واليوم لا يشمل مصطلح «الأوروبي» على ما هو حاصل، على الأزمنة الإغريقية، والمسيحية اللاتينية مجتمعة فحسب، بل يشتمل كذلك على القوميات الحديثة، ولا يقتصر على القطاعين الإغريقي واللاتيني للتقسيم الثلاثي للعصور الوسطى، فخلال العصور الوسطى كانت هناك ثلاثة عوامل منفصلة، ولكننا بدءاً من عصر النهضة، يمكننا الحديث عن عاملين وهما أوروبا والشرق(٥).

وأما الجزء المدوّن من الأدب الغربي الرسمي فإنه بمكوّناته المختلفة جميعها مدين للشرق، ولاسيما الشرق العربي، فإذا ما كانت مكوّنات الأدب الغربي تشمل فيما تشمل:

آ - المكوّن الكلاسي المتمثل بالأدب اليوناني والأدب الروماني واللذين أدت اللغة اللاتينية دوراً مهماً جداً في حفظهما ونقلهما ونشرهما في كل أنحاء أوروبة.

ب - المكوّن الديني المتمثل بالديانتين اليهودية والمسيحية وأسفار العهدين القديم والجديد التي حُفظت وشُرِحت ودُرِّست وانتقلت وانتشرت الانتشار الواسع حتى مطلع عصر النهضة من خلال اللغة اللاتينية.

ج - الخبرة الناجمة عن تجارب الواقع المعيش بكل جوانبه، والتي أدت فيه الحروب الداخلية والخارجية، والمواجهات مع «الآخر» «Theother» في مختلف الفسح المنتشرة على التخوم الأوروبية شرقاً (في الشرق العربي في زمن الحروب الصليبية، وفي شرق أوربة وجنوبها

ولاسيما بلاد البلقان في زمن التوسع العثماني) وجنوباً (في صقلية في زمن الحكم العربي المباشر ثم في العصر النورماندي) وغرباً (في شبه الجزيرة الإيبرية وعلى مدى نحو من عشرة قرون)، وفي مختلف بقاع الوطن العربي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً (في زمن المدّ الاستعماري في القرنين الأخيرين).

فإن المرء يستطيع أن يتبين بسهولة حضور الشرق الواضح فيها جميعاً.

ففضلاً عما قام به العرب من دور حاسم في نقل التراث الكلاسي إلى أوربة عصر النهضة من خلال ترجمته وحفظه وتطويره والإضافة إليه، فإنه يمكن أن يشير إلى دور آداب الشرق القديم (في بلاد الرافدين والشام ومصر) في نشأة الأدب اليوناني ومن بعده الأدب الروماني ونموهما وتطورهما. وعلى الرغم من أن هذا الدين كان، حتى عهد قريب، موضع خلاف شديد بين الباحثين الغربيين، فإن ثمة ما يشبه الإجماع اليوم على الإقرار به، وبات الخلاف يدور حول مقداره وحجمه ونوعه وطبيعة التغيرات التي أحدثها في الأدب الكلاسيكي.

وأما المكوّن الديني فإن التذكير بأصوله الشرقية كاف للتدليل على أهمية مثول الشرق فيه، فعلى الرغم من أن التراث الديني اليهودي - المسيحي بات يُنظر إليه في الغرب على أنه مُحدّد مهم جداً من محددات الهوية الغربية، ولاسيما بعد استحواذه وترجمته بداية إلى اللاتينية، وبعدها إلى سائر اللغات الأوربية الحديثة، فإن إحداً لا يماري في أن الشرق العربي كان مهد هذا التراث، وأنه حاضر فيه جغرافية وتاريخاً وقيماً وطرائق حياة. ولعل الحنين الأبدي فيما يبدو، إلى الشرق الذي نجده قد تخلل الحياة الأوربية حتى الحديثة منها، والرغبة المستمرة في الحج إلى أرض التوراة، أو مهد المسيح في فلسطين التي تدعى في الكتابات الأوربية «بالأراضي المقدسة»، يعكسان شيئاً من الإقرار الضمني بهذا المثول الشرقي في التراث اليهودي-المسيحي الذي تبناه الغرب.

وأما تجارب الواقع المعيش في الغرب في عصور ما قبل الميلاد وبعده، فإن حضور الشرق فيها قديم ومستمر وشامل، ولا حاجة إلى حشد التفضيلات التاريخية للتدليل عليه، لأنه أوضح من أن يُشار إليه أولاً، ولأنه كان بالفعل العامل الأهم في تحديد هوية الغرب الأوربي، ولاسيما بعد ظهور الإسلام وانتشاره وتوسعه الشامل على حساب الغرب الأوربي الذي جعل المتوسط بكامله في يوم ما مجرد بحيرة داخلية فيه.

وإذا ما تجاوز المرء مكوّنات الأدب الغربي، التي تنطوي جميعها على حضور بيّن للشرق قديمه ووسيطه وحديثه، وأنعم النظر في أجناسه الرئيسية. فإنه واجد أن أقدمها وهو الملحمة Epic والمسرحية Drama، والشعر الغنائي Lyrical Poetry، مدينة للشرق القديم وآدابه المختلفة المتنوعة والغنية والعريقة بالكثير الكثير، بل إن جملة مهمة من الأساطير التي تتضمنها هذه الأجناس ليست غير نسخة يونانية عن أساطير الشرق القديم، والأدنى منه بشكل خاص.

وأما نثر القصصي «Prose Fiction» فحسب المرء الإشارة إلى البصمات التي تركتها آثار عربية من مثل «كليلة ودمنة» بترجمة عبد الله بن المقفع، و**«ألف ليلة وليلة»، أو «الليالي العربية»** «The Ar abian Nights» كما يحب الأوروبيون أن يدعوها، والمقامات وحكايا الشطار والعيارين وغيرها من مختلف آثار عصر النهضة وروائعه، وما تلاه بعد ذلك، ولاسيما فيما يسمى برواية الكدية أو البيكاريسك «Picaresque» وفي أعمال كبار الكتّاب الأوروبيين من أمثال تشوسر (**حكايات كانتربري**)، وبوكاتشيو (**ديكاميرون**) وثيربانتس (**دون كيخوته**) وغيرهم، وبالطبع فإن هذه الآثار العربية لم تكن إلا ذروة جبل جليدي ضخم ينبغي للغرب أن ينقب فيه عن أصل جنس الرواية كما تشير إلى ذلك الباحثة والروائية الأمريكية مارغريت آن دودي Margaret Anne Doodyفي كتابها الضخم «القصة الحقيقية للرواية»، الذي صدر عام

١٩٩٧ على شاطئ الأطلسي، والذي تستعين فيه بمصدر مهم جداً عن هذه القصة التي يرويها كتابها هو كتاب: Pierre-Daniel Huer الموسوم بـ «بحث في أصول الروايات» «Traié de l'origine de romans» لتُذكر على لسان هذا الأسقف بأن الرواية الأوربية لم تبدأ في فرنسة أو إسبانية (القريبتين بالطبع من الثقافة العربية الإسلامية)، وأن علينا أن نمضي أبعد منهما في الزمان والمكان بحثاً عن البدايات الأولى للرواية، بل ربما أبعد من الرومان واليونان لأننا بكل بساطة لن نجدها لديهما:

«وإنما لدى الشرقيين، أعني المصريين، والعرب، والهنود، والسوريين»... ذلك أن معظم الروائيين العظام في العصور القديمة قد جاؤوا من تلك الشعوب على حد قوله. «إنها الشعوب الشرقية، الشرقيون، الذين يظهرون، وإلى المدى الأتمّ، القدرات الإنسانية في سرعة البديهة، والخطاب، والخيال، وإنها هذه الخصائص التي استعملت على النحو الأفضل أول ما استعملت من جانب الشرقيين الذين منحونا روايتنا، التي كان أولَ ممارسيها السوريون، الفرس، والمصريون»(٦).

وأما شعره الغنائي، الذي سبق واستلهم آداب الشرق القديم، فإن إحياءه ونموه وازدهاره مجدداً في عصر النهضة، إنما يعود إلى تأثير الموشحات والأزجال العربية والأندلسية التي توسّط شعراء التروبادور في نقل ما تنطوي عليه من قيم فنية وجمالية واجتماعية، واهتمامات وموضوعات إنسانية، إلى الشعر الغنائي الأوروبي في مختلف بقاع القارة الأوربية. ولاريب أنه لولا التأثير العربي لما كان للأوروبيين على الأقل الجنس الشعري الفرعي المعروف لديهم بالسوناتا التي تألق شكلها البتراركي–نسبة إلى الشاعر الإيطالي بترارك– بفضل الشعراء العرب في الأندلس.

والحقيقة أن الكشوف الأخيرة المتصلة بدور الأدب العربي في حفز الكثير من تطورات الأدب الغربي بأجناسه المختلفة ولاسيما في عصر

النهضة، أو ما سمته الباحثة المقارنة ماريا روزامينوكال M.R.Menocal بـ «التراث المنسي»(٧)، «Forgotten Heritage» جعلت الناس يدعون بإلحاح إلى إعادة النظر في تاريخ الأدب العالمي ولاسيما في العصور الوسطى وعصر النهضة، بغرض نسبة الفضل إلى ذويه وبخاصة العرب الذين لم يكونوا أساتذة أوربة في الفكر والعلوم والمعارف المختلفة بل كانوا شيوخها أيضاً في فن القول الشعري والنثري أيضاً.

ومعنى هذا أن الأدب العربي مؤهل بعد اكتشاف دوره المهم في التاريخ الأدبي العالمي الوسيط على يد مينوكال ومن قبلها أليس، إي، لاستر Alice Elaster في كتابها ذي العنوان الموحي «**إسبانية إلى إنكلترة: دراسة مقارنة للأدب العربي والأوربي والإنكليزي في العصور الوسطى**»(٨)، لشغل موقع أقرب إلى المركز في دائرة «الأدب العالمي» لدوره الريادي في تطوير الأدب الغربي نفسه- والذي وضع في المركز زوراً وبهتاناً وربما بسلطان القوة أساساً، وليس عن جدارة مطلقة ومؤهلات ذاتية فيه، لا تتوفر لغيره من الآداب القومية الأخرى.

وبما يعزز موقع الأدب العربي المتنامي في دائرة الأدب العالمي حركة ترجمة الأدب العربي النشطة إلى مختلف لغات العالم الرئيسية ولاسيما اللغة الإنجليزية، التي تكاد تكون اليوم لغة عالمية، وازدهار مراكز دراسته في مختلف الجامعات الأوربية والأمريكية، بل وفي سائر العالم، وبخاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨.

وفضلاً عما تقدم فإن كتابات المؤلفين العرب المعاصرين باللغات الأجنبية تؤدي في هذه الأيام دوراً مهماً جداً في إعداد الحساسية النفسية والفنية والاجتماعية للقارىء الغربي وتهيئته على نحو أفضل لاستقبال الأدب العربي المترجم كما يليق به بوصفه أدباً، يتمتع بصفتين مهمتين جداً، ربما لا تتوافران لغيره من الآداب بالدرجة نفسها وهما العراقة والاستمرار. ذلك أن الأدب العربي يتميز بكونه أدباً عريقاً وحياً في آن معاً.

ويمكن للمرء هنا أن يشير إلى آثار كل من صلاح ستيتية، وألبير قصيري، وأمين معلوف، وأهداف سويف، وإبراهيم فوآل، وفاديا الفقير، والطاهر بن جلون، وإيتيل عدنان وغيرهم ... هذه الآثار التي تظفر باهتمام واسع ومتنام بين قراء الأدب الحديث، بل إن بعض هذه الأعمال بدأ يشق طريقه إلى قاعات الدرس والبحث ليندمج بمتن الأدب العالمي المعاصر.

والخلاصة أن المركزية الأوروبية التي دفعت بالأدب العربي إلى المحيط من دائرة الأدب العالمي، واستأثرت بالمركز لآدابها تجد نفسها مكرهة في العقود الأخيرة على التحول بهذا المركز ليقترب بذلك أكثر من الأدب العربي- والآداب الجنوبية الأخرى، (كالأدب الكاريبي) التي طالما هُمّشت- الأمر الذي يؤذن باستعادة أدبنا دوره المركزي في تطوير الأدب العالمي، وإلهامه الكثير من قيمه وموضوعاته وتقنياته وفنونه. ولعل ذلك يمنحنا ثقة أكبر بأدبنا وثقافتنا فنكف عن التطلع إلى الأدب الغربي على أنه المثال والمآل.

الحواشي

١ - انظر:

Claudio Guillen

The Challenge of Comparative Literature,Translated by Cola Franzen (Harvard university press,Campridge, Ma, and London, 1993), p.37.

٢ - انظر: ادوارد سعيد، **الثقافة والإمبريالية**، نقله إلى العربية وقدّم له كمال أبو ديب (دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧)، ص (١١٣).

٣ - انظر: أ.ل. رانيلا، **الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية**، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة، العدد٢٤١، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٩).

٤ - انظر المرجع السابق، ص (١١).

٥ - انظر المرجع نفسه، ص ص (١٢-١٣).

٦ - انظر:

Margaret Anne Doody, The True Story of The Novel (Harper Collins Publishers, London, 1997).P.17.

٧ - انظر كتابها:

Maria Rosa Minocal

The Arabic Role in Midieval Lierary History: A Forgotten Heritage (University of pennsy lvania press, philadphia, 1987).

٨ - و انظر كتابها:

Alice E. Laster,

Spain To England: AComparative Study of Arabic, European and English Literature , of the Middle Ages (University press of Mississipi, Jackson, Mississipi, 1974).

* * *

قبيلة القبلي في الحداثة الشعرية الليبية

أحمد الفيتوري *

في المسألة الشعرية الليبية

١

جففت رياح القبلي ماكان في ابار قبيلة البسلي من مياه، فتركتهم ولاماء لديهم بالمرة لأن ديارهم كانت كلها ضمن صحراء خليج سرت الكبير، ونتيجة لذلك انعقد مجلسهم وقرر بالإجماع إعلان الحرب على رياح القبلي، فساروا في الصحراء حيث عصفت بهم تلك الريح، ودفنتهم في الرمل.. كما ذكر هيردوت.

* أحمد الفيتوري: أديب وشاعر من ليبيا، له عدة مؤلفات أدبية. ينشر أعماله في الدوريات العربية.

٢

ان مسألة المنهجية فيما يخص الأدب، ليس لي عنها تصور واضح وثابت، لذا سأقول كما يقال عادة عند التواضع، إنني أبحث عن نفسي -عبد الفتاح كليطو- نبحث عن هذه الذات التي لانعرف أين توجد بالمعنى الصحيح للكلمة؛ هذه الذات التي تظهر متنكرة بأقنعة التاريخ -داريوش شايغان- أعني أفهم السر. وأفهم بالذات أن المرء أحياناً يخدع نفسه طائعاً ببعض الفلسفة ويهرب من "سوق الجمعة" بحثا عن الفردوس، يركب رأسه من باب الملل من نفسه ويعلق ذنوبه في عنق سوق الجمعة ويتخذ قراراً نهائياً جدا بالبحث عن جنته الضائعة ثم يجد المفتاح جاهزا على مقعد أول قطار متجها للغرب يصادفه، ويسارع بمد مخالبه قبل أن يذكر اسم الله ويفتح باب الجنة على مصراعيه.

إذ ذاك، إذ ذاك يرى بعيني رأسه أنه يفتقد سوق الجمعة -صادق النيهوم.

٣

كنت أتجول بدراجتي وما لبثت أن أخطأت الطريق.. توقفت عند دكان صغير وسألت صاحبه عن أقصر طريق إلى ونشستر، فما كان منه إلا أن سأل آخر لم أكن أراه

وإن كنت أسمع صوته:

-ما أقصر طريق إلى ونشستر؟.

-ونشستر؟

- نعم.

- أقصر طريق!

- نعم.

- لاأدري.

تلك هي الفلسفة .. أن تفهم السؤال والإجابة لاتهم فثمة من سوف يعنى بأمرها . برتراندرا سل– اغرس خطوتك في عتمة بيتك وأزح عن رأسك قتامة السقف الذي ظفرته سلطة نص شائع واستضيء بشمسك أنت–محمد عفيفي مطر .

إذا كانت الحداثة ليست أسلوباً بقدر ماهي بحث عن أسلوب بمعنى فردي موغل في الفرديةفإن الإيغال في الفردية ليس هو هوية حداثوية ولكن سمة من سمات هذه الحداثة التي هي على النقيض من أي إيغال في الوثقية . وعليه فالباحث الجاد هنا والآن باحث يبحث عن ذاته، عن معنى لهذه الذات أو معنى الكيان باستعارة لاصطلاح عبد الله القويري، ويكون المعطى الأول لمسألة البحث هذه أو بتعبير آخر مقدمة البحث هو الاغتراب الذي ينشا حينما يطرأ تغير في مفهوم شخص ماعن ذاته، انه ليس شيئاً يفعله المرء أو النتيجة المقصودة لتصرف صدر عن عمد، فالمرء يجد نفسه وقد حل هذا الوضع بساحته على حسب قول هيجل، أو كما قال إبراهيم الكوني: (كان هذا الحافز التعس هو الغربة!. لاأعلم عما إذا كانت غربة نفسية أم اجتماعية أو ثقافية، كل ما اكتشفته أنها غربة والسلام، الغربة التي تقتلني وتعذبني وتمسك بخناقي طوال سنوات الوعي دون أن أجد حيلة في مواجهتها غير الكتابة . انني أكتب كي أدفعها عني فحسب، لقد أمست الغربة جزءاً منى، تعيش في داخلي، وتتشبث بحذائي، وتختفي في جيوبي وبين طيات ملابسي، وتركض فوق أوراقي، وعملية محاصرتها لاتتم إلا بأداة عظيمة وحاسمة هي : الفن). وهذا كمايبدو لي مايجد الباحث الجاد نفسه فيه وهو ذات الوضع الذي جعل عبد الله القويري ملتبساً في سؤاله حول مفهوم الهوية في إطار الخاص، وتعين هذا المفهوم في خاص بعينه، ويعمل هذا الانشغال وهذا الاشتغال في النتيجة إلى نقض الخاص المعين لتظهر المقولة الأساسية حول مفهوم الهوية دون هوية؛ أي دون محددات .

وإن البحث عن هوية ثقافية ليس كلاما يمليه احتلال مباشر، أو تضاد

اثني في مكان واحد، بل يخص بناء الفرد لروحه ولذاته معا في أي ظرف أو أي مكان، وفي هذا البحث فإن الحداثة بسبب قدرتها تقلب فضاءنا الطبيعي، بلا رحمة ولاشفقة وتصنع قوالب عالمنا الادراكي، ومن هذا الادراك فإن الهوية الثقافية يمكن أن تتحول للأسف إلى وهم أو إذا شئنا، إلى صورة مزيفة للذات. وإذا كانت الحداثة وكانت الهوية كما يبدو على طرفي نقيض فإنهما أيضاً الأطروحة والمرفوع بالمعنى الجدلي وهذه العلاقة تكون كما القصيدة(لايجب أن تعنى بل أن تكون)، وإذا كان الشعر هوية الغموض فإن مانضرب فيه هو العتمة الواضحة والجلية والعارية من كل يقين، والواضح فيها أنها مسألة شائكة؛ أن يكون المرء وهو يبحث في الموضوع يكون يبحث في الذات هذه المسألة التي ترفض أن تمنح لأنفسنا المزيد من الحرية في التعبير عنا، وأن مانواجهه لايمنحنا أي امتياز ولاأيضاً بشكل عقبة تتميز بالخصوصية؛ فهذا الالتباس من أننا حين نتحدث عن الحداثة نتحدث عن الخصوصية يجيء من (أن الحداثة أمرٌ واقعٌ لايمكن نكرانه ولارده، وبشكل خاص، لايمكن الإحاطة به، فإن التقاليد في صورتها الراهنة، لم تعد التقاليد التي كانت، والالتباس أننا نحن الذين نتحدث عن أنفسنا لم نعد نحن الذين نعرف). فالتغير الذي طرأ حقيقة موضوعية تعنى الوجود وتعني الفاعلية أيا كانت نتائج هذه الفاعلية، فالحداثة في هذه الحالة تكمن في السؤال الذي يعني أنه لايكفي أن نقول الحقيقة بل ينبغي أن نكون في الحقيقة وأنه استشراف متطلع لتحقق الإمكان؛ فالمسألة الشعرية الليبية سواء كان ذلك في الحداثة أو في الهوية تفتقد لأوليات شروط البحث: توفر مادة البحث التي غيابها يتجلى عن أن منطلق الباحث هو افتراض ما؛ وهذا الافتراض حتى وإن تم فيه الحرص على جمع أكبر قدر من الدلائل فإنه مشوب بالخيال فهو يعتمد نقطة متخيلة ما، ركيزة للبحث، في هذا تقول فريال غزول: (ليس أصعب على ناقد من أن يبدأ دراسته بلاسوابق نقدية في موضوعه. الصمت أقسى على الناقد منه على الشاعر)، فكلما كان التحدي كبيراً كانت الجهود الكفيلة بالسيطرة عليه مضنية، ولايجب أن نعتقد أننا بهذا

نكون على الضفاف؛ فالحق ليس ثمة ضفافا ولكن ثمة لجة عميقة مضطربة لأن اللاسمات هي السمات التي يجب أن نخوض فيها، ولأن تحديد المفاهيم في هذه الحالة من أهم المهام، هذه المفاهيم التي لابد أن تتشح بالغموض مهما كانت فصيحة فالمفهوم حصيلة فكرته، حصيلة الموضوع الذي سلمنا بخفاه أو على الأقل عدم تجليه.

فإذا افترضنا أن البحث في الحداثة الشعرية الليبية بحث خال من المسلمات الأولى فإن هذا الافتراض نفسه بحاجة لبرهان وبذلك يتزايد حقل المجهول أو الخفي، وإذا افترضنا أنه ثمة حداثة شعرية ليبية فإن هذا الافتراض أيضاً يستند على عكازين أولهما المجهول حيث أن موضوع بحثنا بكر وثانيهما التباس هذا الموضوع في مجمله فيكون المعلوم ملتبساً وبه نستعين على مجهول.

وإن اعتبرنا مع " داريوش شايغان " أن الحداثة تشكل شئنا أم أبينا، خلفية وجودنا الأولى، والمحيط الذي نحيا فيه والفضاء الذي يغلفنا وفيه نتطور وننمو، والبنى الابستمولوجية اللازمة التي تشترط معرفتنا والتي تغير بيئة علاقتنا الاجتماعية، فإن الحداثة هكذا تكون وجوداً بالقوة الذي يؤسس حياتنا في هذا العصر المليء بالتناقضات وبالتالي أمكن لنا تعليل هيمنة غياب الدلالات، غياب المعنى من حياتنا التي تكشف عنه الكتابة الآن التي تنأى عن التفسير لأنها لا تمتلك العالم أيديولوجيا، وترى العالم مغلقاً غير قابل للإدراك، وانهياراً للمركزية هذا الانهيار الذي ليس حالة من حالات النص المفرد بل حالة من حالات عمل الفنان كله أو كما قال كمال أبو ديب.

غير أن هذه الحداثة ليست نصا مفارقا ومرجعية دوغمائية، مغلقة وخطاطة عامة نهائية، ولكنها تعين بالإمكان استقراء وقائعه ودراسة تعينها وهكذا يكون افتراض " داريوش " مدخلا معقولا أو مبدئيا لدراسة هذه الظاهرة أو هذا النص الذي يبدو لنا مبدئيا هو المعلوم للبحث في المجهول

ومن هذا فإن عزو الكثير لعامل الصدفة وللاتصالات العابرة والميول الشخصية يبدو في عصر التفسيرات العلمية هذا أقرب إلى الهرطقة والغيبيات، وبحث ميتافيزيقي في دفاتر التاريخ لايصوغه أي مصوغ إلاوسواس الأصول التي يتميز بها الفكر التقليدي ذي النزعة الوثوقية العدمية وهذا ليس توصيفاً أخلاقياً؛ فهذا الفكر المرجعي لايدرس الظاهرة بهكذا منهج بقدر ماهو يستبعدها أو يعيد تشكيلها لمقتضى الحال في أحسن الأحوال.

وإن التشوش الذي يتبدى في ثنايا البحث يصوغه أن نهج الريبة هو شبكية عين الحداثة أي الظاهرة التي يتم البحث فيها والتي تصوغ النهج وهو أن مسألة المنهجية فيما يخص الأدب، ليس لها تصور واضح وثابت، ففي الأدب لكل قارئ قرأة.

وهكذا فإن قارئ الحداثة الشعرية الليبية سيجد بدءاً أن ليبيا حدث حديث، وهيرودت يقول من ليبيا يأتي الجديد لكن الجديد هنا ليبيا الحديثة ذاتها التي ظهرت على الخارطة إثر مرسوم ملكي إيطالي قبيل بدء الغزو والاحتلال. لهذا فإن هذا الظهور المفاجيء يحمل في طياته مفارقة، فالوجود يعين لحظة الدمج والإلغاء، وقد اعتبر المرسوم البلاد الشاطيء الرابع للإمبراطورية الرومانية الحديثة، واعتبر نفسه امتداداً للحضارة الرومانية ومن ثم الإغريقية- الليبية- التي استمرت لمدة ثمانية قرون، معتبرا الوجود العربي الإسلامي الذي تجاوز العشرة قرون مجرد دين اخر وتقاليد شعبية أخرى، أي اثنية الإمبراطورية الرومانية الحديثة!.

في هكذا خضم ولدت المقاومة المسلحة- التي استمرت منذ الاحتلال في أكتوبر 1911م وحتى زواله عقب الحرب العالمية الثانية- لذلك المرسوم، ولدت ليبيا الحديثة. وبقدر ما كان المرسوم يتجلى في الأسطول الذي دك قلعة دايات طرابلس (السراي الحمراء)، وفي ظهور الطائرة لأول مرة في

الحرب وبالتالي إسقاط أول طائرة حربية في التاريخ في صحارى طرابلس- ، فإنه- أيضا- دانتي الذي ترجمت له (الكوميديا الإلهية) لأول مرة للعربية غب الاحتلال ونشرت هذه الترجمة في الصحافة الليبية التي تأسست عام 1866 م ، وماركوني نبي حضارة الاتصالات الذي دشن مجتمع ما بعد الحداثة في نهاية القرن التاسع عشر ، وافتتحت الإذاعة الليبية وسميت محطة طرابلس الماركونية .

في هذا وبه بدأ حدث ظهور ليبيا الحديثة وبالتالي ظهر السؤال سؤال هويه : (هذا السؤال بل هذه الكلمة هي النهضة rinascimento ، وإذا ما نسبناها إلى هذا الفرد العظيم والقطر الكبير بجميع أناسه وكل محتوياته إلى هذا القطر الذي دعوه ليبيا فليس يكون إلا هذا السؤال وهو : هل لليبيا نهضة؟ . .) كما جاء في دراسة محمد زيتون : (النهضة الليبية : هل هي موجودة؟ . .) ؛ ومن تيارات هذا السؤال من تمسك بسم إيالة طرابلس الغرب في مواجهة ليبيا؛ الاسم الذي أطلقه المرسوم الإيطالي على البلاد، ومنها من واصل البحث في الأصول الإسلامية ونشر بحوثه ومقالته وأحاديثه في الصحف والإذاعة الإيطالية، ومنها من ترجم لويجي بيرنديللو وكتب في عصر النهضة الإيطالي، وقبيل هذا كان قد نشر أول ديوان شعر مطبوع 1892 م للشاعر بن زكرى مستعيدا فيه التوشيح والطرز الاندلسية للبلاغة العربية، فيما أخذ شاعر الوطن أحمد رفيق المهدوي على عاتقه مقاومة الاحتلال، والمدرسة الكلاسيكية الحديثة منهجا وأسلوبا :

رفيق حداثة هوية أم هوية حداثة؟

في هذا الخضم ولد من يكنى بـ (شاعر الوطن)، في وطن لم يكن وطنا في زمن الوطن فيه هو الكون . . في يناير 1898م

حين ولد (أحمد رفيق المهدي) تقول أوراقه إنه مواطن عثماني، وإن والده قائم مقام بلدة (فساطو) في إيالة طرابلس التي سوف يكون فيها شاعر الهوية، الهوية/ الوطن الذي سوف تخرطه المدافع ويسميه المرسوم الملكي الإيطالي / صاحب المدافع : (ليبيا)!

أين هو (أحمد) هذا من يناير ١٨٩٨ م إلى يوليو ١٩٦١ م «تاريخ وفاته»، أين هو من سجل مولده العثماني إلى جنسيته- القسرية- الإيطالية إلى لسانه العربي إلى شعريته الوطنية التي عرف بها؟؟!!. هل هو المواطن الكوزموبولتي والشاعر المحلي؟ وهل حقا (إنه لاتوجد سيره ذاتية إنسانية مقنعة وسط الصحراء)؟.

وإذا ماكانت السيرة الذاتية إشكال فهل يكون الشعر هو الهوية حيث إن الهوية وهم لابد منه؟ وإن (أحمد رفيق المهدوي) هو (شاعر الوطن) حيث الوطن يكمن في الشعرية أي مشروع مخيلة وفي اللسان حيث الشعر لغة؟ أم أن (الشاعر هو الذي لايكون في العالم رغم أنه موجود فيه، هو الذي يكشف لنا أكثر الحقائق قوة دون أن يكون متأكدا منها)؟. إذا ماذهبنا من هذا إلى غير هذا، من نظرة الريبة بحسب منهج (الدكتور نجيب الحصادي)، من السؤال في الوجود أو في معنى الكيان بحسب (عبد الله القويري) إلى المنهج الاستقرائي، بحس الانطباعي (خليفة التليسي) الذي يعد كتابه (شاعر الوطن) النقدي أهم كتاب في الثقافة العربية- في ليبيا-، سنجده يبحث في الوقائع لهذه الأشكال: من هو (أحمد رفيق المهدوي، شاعر الوطن- وكما منحه الناقد كنية! منحه هوية، على الأقل، على غلاف الكتاب) ونحن نقفل القوس لأن سيمياء الكلام أفصح: إنها علامة الاستفهام التي يطرحها الكتاب بين غلافيه حيث نجد أن الناقد خليفة التليسي ضمن حدود منهجه ومدرسته وفترة عمله؛ المتصف الأول من هذا القرن الغارب، وكأنه يكشف عن شعرية لرفيق عارية من معطف عصرها، وإذا ماكان الشاعر ليس في الزمان فكيف يكون في المكان؟ وفي هذا أيضا لا يألو الناقد التليسي جهدا بالكشف عن غياب لأنه ويجهد القارىء النصوص يكشف عن عريها أيضا من الشعر فهي في المحصلة تناصات مع شعر كلاسيكي حديث ومشرقي وفي هذا الشعر تناص مع أضعف الشعر فيه.

فهل هو تناقض الناقد الذي يجمع بين منهج استقرائي وحس إنطباعي

أم أن الأعمال النقدي الموضوعي هو الذي أتى بهذه المحصلة، أم أن إفتراض الغلاف: (شاعر الوطن) ينقضه المتن، أم أن أحمد رفيق المهدوي هوية للالتباس وبالتالي الشعرية هنا ضرورة للموضوع، بشكل أوضح الشعر عند رفيق؛ رفيق سفر أو سيرة ذاتية مستحيلة؟ وعلى ذلك فإن (خليفة التليسي)- كما أنا وربما أنت- يخلق إلهه من عجين ليأكله حين يجوع، أي يفترض (الوطن) وبالضرورة (الشاعر)، ومدرسته ومدرسة كل الوطنيين والقوميين الرومانسية التي تفترض الشاعر نبياً، هي ذاتها التي تعلي من شأن الذات وهي صاحبة دعاوي الفطرة الأولى التي شعارها - أو الكوجيتو -: جيل بلا ريادة! (لم تكن هناك تلمذة لهذا الجيل على ذلك الذي تقدمه) كما يقول خليفة التليسي عن جيل ما (بعد الحرب) جيله

هكذا يبدو احمد رفيق المهدوي عمودا ووجدانا لكيان يبحث عن معنى في عالم تكشفت فيه نسبية كل شيء فصار الوجدان- بهذا- (البصلة)، وإن هذا الوجدان- الذي يبدي استعداداً لبيع نفسه لأية عاطفة يتأتى بلغة(بيرنديللو) لغة العصر ولغة الحداثة!.

ويبدو أننا لن نبعد كثيراً في حيرتنا حول: من هو أحمد رفيق المهدوي؟ فرفيق يكمن في البرزخ في اللحظة، اللحظة التي هي عند(أرسطو) الزمن، ورفيق عند يوسف القويري هو(شاعر اللحظة البسيطة): ((ينتمي رفيق المهدوي- في وقت واحد-إلى صفين مختلفين دون أن يفقده هذا الانتماء المزدوج صفته الأساسية كفنان له موقف. والحق أن هذا الإزدواج هو ميزة رفيق وربما كانت هذه الميزة هي التي دفعت به ليحتل مكان الصدارة في الشعر الليبي كله)).

ماهذه المميزة المقرونة باللحظة البسيطة التي يمسك بها بالمحبة وبتدقيق الناقد يوسف القويري، وباقتضاب أليست هي ماهوية(رفيق) التي تكمن في شعريته والتي تبدو كما نتبين من قراءة يوسف القويري مقتضبة أيضاً وفي الهامش أي في تهاميش متن رفيق، أو الديوان فبدأ الهامش يطل بعناد الشعرية(التي تكشف عن أكثر الحقائق قوة دون أن تكون متأكدة منها) التي

هي صدق الشاعر في أنه(أقرب مايكون من الأخرين وهو فريسة شياطينة الحميمة ويبدو لنا غارقا كل الغرق في مكافحته لها) أو أنه كما يقول يوسف القويري

((الفنان، هذا الطفل العميق، النزق القوي الملاحظة، القادر على النفاذ إلى باطن الأشياء، الذي لايكف لحظة عن خلق العالم من جديد، هذا الفنان القابع في نفس رفيق اندفع بكليته نحو المياه الجديدة ليسبح فيها، وبرغم ذلك الالتحام والغوص فإن رفيقا لم يولد مرة ثانية، لقد ظل الجدار..)) هو آخر كلام رفيق. وأن هذا الجدار يبرز جليا في: ان التناقض الذي يكثفه(رفيق) الشاعر ويكشفه(التليسي) الناقد هو مايلمسه الكاتب (القويري)، هو طاقة العصر التي تبدو للشاعر طاقية إخفاء لاتطال!!: حلم مبدد وطاقة مهدورة هو روح دانونزيو، روح رفيق الشاعر البوهيمي الذي عنده الوطن مسألة من مسائله اليومية، ولم يكن الشعر عنده شغلا يبحث فيه بل كان يلتقطه كما يلتقط القزوة على الشاطىء أو في جولة عابرةأو في اتكاءة في مقهى(العرودي)[٥]

لهذا كان رفيق يتلقف الكلام، الكلام العابر والقضايا اليومية، وكان يشارك في القضايا العامة في شعره وبشعره وهو يلاعب (النرد)، ولهذا تحول الوطن عنده إلى معنى من معاني الذات أو حالة معايشة يومية. وصار الشعر وجدانه الفصيح وكان وجدانه عاميا شعبيا يعيش اللحظة، فكان الوجود عنده حسيا يعيش الشاعر فيه على اليومي سواء كان هذا اليومي لحظة شكر أو موقفا وطنيا أو ثقافة مشاعة تمثلت في شعر شعبي، أو فيما هو منتشر من أشعار الزهاوي وحافظ إبراهيم الشاعرين اللذين يردد الناس أشعارهما، حيث الأول صاحب مفاهيم والثاني لسان الناس.

وبهذا يجد رفيق روحه-هذه الروح المتطلعة-في ارتشاف الحياة والاستمتاع بها، فالوطن هوسويعات على شاطىء(جليانة) أو الشاب الذي يلاعب النرد، فالشعر عنده مايستمتع به في هذه السويعات أو مايرتشفه هذا

الشباب، ولذا لم ينشغل رفيق بقضايا الشعر بقدر ماأتخذ الشعر مطيته، فرسه! الذي دربه على أن يركبه بطريقته بأسلوبه وبنزواته، فالشعر وسيلته، وسيلته التحريرية في التعبير عن الشفوي، فكان الشاعر الشعبي الذي عاميته الفصحى، والذي مشاعره حسية وسهلة وسلسه وقريبة قرب نفسه إلى لسانه ومايرتشفه هذا اللسان، نواسي عنده الحياة مذاق وليس معنى، وهو صياد الشاطئ ولم يكن يتوغل في أعماق النفس لأن نفسه هي هذا الشاطئ، وحتى أنه وهو يناجي روح(دانونزيو) الشاعر النيتشوى كان يناجي روحه المتطلعة إلى مايوحي به هذا الشاعر من معاني الانطلاق والتحرر، وإن كان(رفيق)لا يعرف (دانونزيو) حق المعرفة فهو كان يعرفه كما كان يعرف القضايا العامة أو كما يعرف نفسه!، فما يهمه هو الدلالة النفسانية وماېثيره عنده هذا الاسم، وقد كان رفيق يعيش في مجتمعه الثقافي الذي فيه من تابع ويتابع وعايش الثقافة الإيطالية إن لم يعش روحها، ومايرمزه دانونزيو في هذه الثقافة التي حتى وإن كانت ثقافة الآخر المستعمر فإنها في نفس الوقت ثقافة مجتمع حديث متطور متحرر وقومي وغالب في الغالب مأرب لنفس المغلوب، ثقافة العصر/ الحداثة. ونقرأ شعرية رفيق في هذه القصيدة، رفيق الذي لم يرث شيخ الشهداء البطل الوطني(عمر المختار)!، ورثى دانونزيو؛ رثى نفسه، النفس الشعر، وإذا كان من رثاه يمجد القوة والروح القومية فإن رفيقا ماثله حيث مجد وطنه؛ وطن الروح، وروح المقاومة روحه، وإذا كان دانونزيو- حتى من خلال المعلومات الأولية- شاعر الحس أو كما أورد الأستاذ خليفة التليسي عن الناقد(فلورا): ((أن دانتزيو صوت الإنسانية التي تعني الجنس والمادة)) فإن رفيقا حسيا حد التصوف والصوفية هذه صوفية جسدانية فليس عنده ثنائية تضادية بين الروح والجسد بل إنها تظل صوفية جسدية تشتمل على الحواس جميعا هي صوفية لاتنفى الجسد بل ترمي بجذورها في الجسد ببعدها الشبقي وبغيره وكأن رفيق يقول أن في كل شعر صوفية ما- فابن الفارض هو أبو نواس، والروح هي الجسد - وأن المعاناة

الشعرية والصوفية هما نفس المعاناة من كل وجه، ولهذا ففي هذه المرثية يمدح هذه الصوفية التي تمزق الستر. وإن هذه الروح- الجسد- الكبيرة صاحبة نزوات، رفرفة، مرح، وهي روح تجعل الموت وسيلة ومآرب لهذه النزوات حيث شهداء الحب والشعراء.

هكذا يبدو دانتزيو عكازا، عكازا التقطه رفيق من الشائع ليسبغ روحه بالدلالة! فما دانتزيو إلا الروح الوثابة التي تمتطي- أيضا- حصان الموت لتحقيق نزوتها. ووطن رفيق هو هذه الروح؛ روحه الشاردة الشاذة وروحه الشعرية التي تعيش كل ماهو معطىً جاهز والذي يتغذى عليه فيكون هو لاأحد غيره. وبهذا برز وهو الشاعر مشغولا عن الشعر بشعرية الحياة، من حيث أن الشعرية هي القدرة علي الاستمتاع باللذة((ربما لذ عذاب لنفوس الشعراء)) أو كما قال، لذة المفرد فم الجماعة، شيطان اللحظة المنغمس حد التلاشي في لذائذه وكأنه متشيع لأدري، مذهبه قورينائي و((لقد بنى أعضاء المدرسة القورينائية، أصحاب مذهب اللذة، مذهبهم على نظرية المعرفة والأخلاق، وهي تقوم على الحكم داخل نطاق الانفعالات الباطنية ومايتصل بسلوك الإنسان، وعلى كل مايتعلق بما هو جميل. وكان فيلسوفها البارز (أرسطيفوس) وقف على مستوى يضارع ماوصل إليه(أفلاطون)، واحتدمت بينهما المنافسة. وألف هذا الفيلسوف ثلاثة كتب في تاريخ ليبيا، هذا بالاضافة إلى كتب أخرى مثل(في فسق القدماء) . .)) او كما قال عبد الرحمن بدوي. وإن رفيقا الخارج بنفسه عن كل شيء، عن كل قيد يراه، هكذا حدث.

عش الحمامة .. حلم الجماعة.

لكن هذا النهج الرفيقي قوبل مبكرا ومنذ البداية- العقد الثاني للقرن العشرين- بالجبرانيين الذين يقول عنهم رفيق نفسه: "أسلوب جبران جديد ولكن هناك أساليب جديدة كثيرة إذا قسناها بها - وليعلموا أني ان كنت متحاملا فعلى تقليدهم(أسلوب جبران)- ظهر لنا قصوره عنها وشذوذه عن

جميعها فهو أسلوب إلى الفرنجية أقرب منه إلى العربية ويتبين ذلك للمدقق من تركيبة الجمل وترتيبه الكلام على الطريقة الغربية وبالأخص استعماله الاستعارات وهو كثير الاستعمال للاستعارة أكثرها نافرة لاتلائم الذوق العربي وسبب ذلك على ماأرى تشبعه بالأفكار الغربية وترجمته الكثير من آرائهم في كل كتاباته" . وقوبل هذا بالرومانتيكية فم الذات ولسان حال المكلومين في عصر الغلبة فيه للفرد، والذات عش الحمامة وحلم الجماعة.

ولهذا كان لابد مما ليس منه بد، فلقد انتهت الكلاسيكية الحديثة على يد أهم مبدعيها؛ لقد انتهت على يد أحمد رفيق إلى تكرار منطقها الصوري فصارت محكاة إنشائية نثرية يغلب عليها العقل ويغلبها، وكان أحمد رفيق في أواخر أيامه ناظما وباحثا عن القوافي، عن المعقول فمات الشاعر قبل أن يموت رفيق. حينها كان تلاميذه قد أخذوا عنه بالشعر كأغنية للحياة، حيث ضرورة اختيار مواضيع الشعر من حياة العامة اليومية لكي تأتي معبرة عن بساطة حياتهم ورقة إحساسهم فتأتي مباشرة مفعمة بمشاعر فياضة، وضرورة أن يستعمل الشاعر الكلمات التي يستعملها الإنسان العادي، كما ينبغي على الشاعر أن يكون "متعبد في محراب الطبيعة"، وأن لاينسى مجتمعه ومشاكله وأن لايتنكر لقوميته وبلده؛ أو هكذا حدث بيان الرومانتيكية. بذا بدأ الشاعر رجب الماجري، يخرج عن معطف رفيق وعن المدرسة الكلاسيكية الحديثة إلى آفاق الرومانتيكية، حيث الروح أكثر أهمية من الشكل، فالرومانتيكية(عاطفة أكثر منها عقل، القلب في مواجهة الرأس) كما تقول جورج صاند.

هذه الرومانتيكية التي كانت بواكيرها الأولى عند الشاعر قد وضعها شاعر من مدينته(درنة)، هو الشاعر ابراهيم الأسطى عمر، والذي يقول في قصيدته(الطائر السجين) في بداية الأربعينات:

أيها المسجون في ضيق القفص
صادحا من لوعة طول النهار
ردد الألحـــان منْ مـر الغصص
وبكى في لحنـه بعد الديـار
ذكـــر الغصـــن تثنــــى
واليفــــا يتغنـــــى
وهـــو في الســــجن معنــى
فبكــى وجــدا وانــا وتغنّى

وقد كانت الرومانتيكية لسان حال الحركة الوطنية ومن ثم القومية منذ عشرينات القرن العشريني التي تعينت في الثقافة في ليبيا باعتبارها تعبيرا عن وجود الفرد فم الجماعة الذي يعيش في عزلة، عزلة النبي الذي يعاني الغربة والاغتراب والذي أقصى نفسه متمردا على الجماعة التي يعتبر نفسه فمها!، وبهذا فقد كان المبدع فرداً يشتغل بتأصيل نفسه وجدراته في أن يكون وأن يكون الكيان الذي ينتمي له ولهذا كان يتلبس ملامحه الحزن وأطواره الغرابة(٤)، وإلى جانب الانشغال بقضايا فنية تقنية فإنه يطرح موضوعات تجد الصدى في نفسه لأنها تجعله صوت المجموع وعلى ذلك كان هناك اعتناء خاص بالشابي الذى (يقف شاعرا، متفردابخصائصه الذاتية، معروفا بسماته الخاصة، واضحا بعواطفه وأفكاره. انه صوت عميق، بقية من تلك القلة الخالدة من الشعراء والفنانين الذين يغمسون أقلامهم وريشهم في الدماء، ويرسمون بدم قلوبهم قبل أن يرسموا بالألفاظ والألوان. وماأقل الأصوات التي تنطلق من الأعماق، كما ينطلق صوته الخافت الهامس في قصائد الحب، والعاصف الثائر في قصائد الوطنية) وبكروتشه وجبران وأبي العلاء المعري والاهتمام بنيتشة- وعلى الخصوص من خلال جبران-ومن هذه الأخلاط بدأت النزعة الليبية الرومانتيكية بحثا في الذات وعنها وتلمسا للكيان ومعناه ونظرية في الشعر. وتجلى هذا في فكر عبد الله القويري- مفكر الكيانية مرادف الخصوصية عنده-في إطار الفلسفة المثالية الألمانية؛

فمفهوم الهوية عنده ديالكتيكي ثالوثه: ***الذات المركز*** التي هي الجوهر- جوهر الوطن-الخلاق والمبدع والمفارق فهي تنتج الوطن خالقها، والذات في هذه الحالة هي الصيرورة فيما الوطن هو الكينونة؛ ***الوطن الأزلي*** الذي توطنت عليه النفس لابالميلاد أو باللغة ولكن بالتوارث، بالطبيعة؛ فالمرء يرث وطنه أينما كان وكيفما كان حتى أن القويري يحلل لعنة(أوديب) بأنها لعنة الوطن التي تطارد كل من يعبث بقدره(وطنه)، ويحاول الفرار من ظله أو يظلل عن هذا الظل، وكذا(عطيل) المجرم الذي بدأت جريمته الحقيقية ساعة ناء عن(مغربيته) وطنه و***الكلمة*** التي هي الوجود الإنساني؛ الإنسان هو صاحب الكلمة التي ليست هي اللغة الأم وحسب، بل الكلمة الكينونة ووجدان الوجود الحي والفاعل؛ دم العرق، وإن الكلمة خيمة الكيان التي تقيه رياح الآخر، وسلاحه لمحاربة رياح القبلي، فالكلمة قطر الدائرة/ الهوية التي مركزها الذات ومحيطها الوطن.

تجلى في الشعر باعتباره قصيدة البيت الواحد عند الناقد خليفة التليسي فالشعر صوت الفطرة والأصل(وهو البيت الواحد. وعندما كان الشاعر العربي القديم، يرسل البيت الواحد، ليعبر عن لحظته الشعرية، لم يكن يواجه أية مشكلة تعبيرية. فقد كان البيت الواحد، يعبر عن حاجته، ويستوعب اللحظة الشعرية التي يعانيها بكل أبعادها)، ثم كرومانتيكي أصيل، لم يفته أن يسند نظريته الشعرية إلى مسند أولي في النظرة الرومانتيكية: الآداب الشعبية؛ ففي أدبنا الشعبي(مثال هام ورائع على قصيدة البيت الواحد. هو أغنية[العلم]-الحديث هنا عن الشعر الشعبي الليبي- التي تعتمد على بيت واحد يعبر عن اللحظة الشعرية بكل أبعادها وهو قصيدة الشاعر ومقصده دون زيادة أو نقصان. وهو يقدم بهذا التكثيف والتركيز دليلا على تحكم هذا المفهوم الفطري للشعر الذي لم يفسده التكلف والتصنع، وإنما يجري سمحا هينا لينا موافقا لطبع الشاعر ولحظته النفسية) ويعرف قصيدة البيت الواحد بأنها ليس بيت القصيد، بيت الحكمة المجردة ولكنها التي تتضمن جوهرا شعريا سواء تمثل في صورة فنية رائعة أو بيت

شعري يحمل ذات الشاعر ومعاناته، وحتى الحكمة تكون من هكذا شعرية إذا احتوت ذات الشاعر وتجربته في الحياة.

ان النزعة الرومانتيكية بهذا بدأت وكأنها أنفاس أشباح يهيمون في الكون كالومضة التائهة أو أنها الفكرة تشع عن بعد حيث كل شيء، فالشعر استعادة لتلك الومضة للروح وهي أثير وكذا أن تكون ليبيا؛ وبذا بدا أن روح الجمال تهبط على الشاعر فكانت الرومانتيكية الليبية في النهاية عبادة للبداية ووسواساً للأصول. ولأن الرومانتيكي يضع على لوحته ألوانا خالصة متجاورة بدل أن يمزجها فقد ظهر أن هذه اللوحة استنفدت هذه الخاصية فما كان جليا بدا أكثر غموضا، والحال أن هذه الأفكار الجذابة الشديدة الإغراء، بانت استعادة مقنعة للمثل العليا التي صاغتها التقاليد الشعرية الاصولية. ولقد مزقت الحرب العالمية الثانية هذا القناع كما مزقت كل شيء في ليبيا، وكما أنها في نفس الوقت منحت هذه البلاد: دولة وعلم ودستور، استقلال وبطاقة هوية أظهرت التمزق أشد بهذه الوحدة: تناقض هذه الرومانتيكية لكن هذا التناقض الظاهر بين الخصوصية باعتبارها بحث في معنى الكيان وبين اعتبارها بحث في معنى الوجود هو تناقض في الأساس كامن في المنهج والرؤية المثالية التي تبحث في الجوهر باعتباره معطى أولي وكلي، وإذا كان غائبا عن الذات فهو غياب بالفعل وليس بالقوة، ولهذا فإنه سرعان مايظهر حين تتوحد الذات بموضوعها، حين يصير الكيان وطنا والشعر لغة لهذا الكيان، حينها تكون اللغة العربية والقومية العربية وسيلة وليست غاية، من هذا فالقصيدة الرومانتيكية الليبية قصيدة البيت الواحد، المفرد المكتفي بذاته اللاتاريخية وإن كانت تتجلى في المستقبل فإن هذا المستقبل غد الأمس، لكن هذا المستقبل بدأ للرومانتيكيين-أولا- مقلقا ومتوترا وتضيق به مرآة الحاضر الذي هو واقع يتحرك ويمور ويتصدع فبدا وكأن ثورة تدق الباب الموصد على لاشيء أو على خلأ مترامي الأطراف هو أشبه بالصحاري الليبية؛ الصحراء التي تتصل بالبحر، حيث اللاشيء

وحيث لا حركة غير قبائل القبلي المتعددة لكنها في نفس الوقت الثابتة وغير الحقيقية ؛ بذا فإن قصيدة لاتذوب في هواء العصر لايمكن أن تكون قصيدة، وأن الشعر ليس تعبيرا عن ذات الشاعر الخاصة إلا بمقدار ماترتبط هذه الذات باللاوعي الجمعي للعرق، ومن ورائه بالتجارب الإنسانية جمعاء.

تفعيلة الواقع وفصاحة المجهول.

وإذا كان الشاعر(لايلعب النرد فحسب، ولكنه في بعض الأحيان يلقيه حيثما لايرى) فإن الشعر العربي الذي بدأ يتآكل بفعل التكرار صار يضرب في المجهول وكأنه حية أنكيدو فلقد(انتهت الطريق القديمة لكتابة الشعر وعلى القارئ لكي يتأثر بالقصيدة الحديثة ويفهمها أن يتعب في إدراك المعاني والانفعالات التي تتناولها عن طريق التعبير بالصور والإيحاء وعن طرق الوسائل الحديثة للفن والأدب التي أصبحت من أكبر خصائص الشعر العربي المعاصر لقد أصبح الشاعر المحدث يتأثر بجميع الثقافات العالمية، ورفض أن يكون مجففا في صناديق ليمنع عن قلبه وعقله وثقافات العالم والشعوب لمجرد الإدعاء الأجوف الذي ينادي بعدم التأثر بثقافات الغرب). -على الرقيعي.

ولم تكن قصيدة التفعيلة التي كتبت في بداية الخمسينات إلا تجلي الرومانتيكية الأخير، فإذا كانت هذه القصيدة قد تجلت عربيا في (كوليرا) نازك الملائكة؛ أنثوية وحيية فإنها في ليبيا كانت(موكب الجفاف) المرثية التي هي لسان حال الرمق الأخير للرومانتيكي الذي ظهرله أن الاستقلالية : دولة للعشائر الوطنية وأن العلم الوطني تسييج للمدن بأكواخ الصفيح وأن المحتل الإيطالي قد غير بحارس أنجلو أميركي. كانت حركة التحرر العربي بقيادة العسكر قد احتلت ساحة التحرر والتقدم الذي صار الشاعر بوقه، وبدا أن الشاعر بشير وصاحب رسالة وأن مشروع التحرر والتقدم مشروعه؛ في هذا وجد الشاعر الليبي الواقع كيانه ومن هنا اعتبر أن إنجاز القصيدة انعكاس

للواقع الذي صار تيمة هذه القصيدة، وأيقونتها مديح النضال وغزل التحول. أما البنية الايقاعية الجديدة فهي للتحرر: استبدال إيقاع الخليل بضابط للإيقاع أي أن هذا التحوير الذي تم للإيقاع الخليلي هو مفتاح الحديث ومواكبة لبنية إيقاع التحرر ومشروع التحديث فـ(الأديب الواقعي هو الذي ينسجم مع المجتمع، ويعيش في جوفه ويتفاعل بانسجامه مع المجتمع والأديب غير الواقعي الذي ينتج الفن للفن هو الذي فقد الانسجام، فقد المنابع الحقيقية للفن والحياة. والرؤيا الشعرية تأخذ مجالها، فالشاعر في مشاهدته للبؤس البشري، لايمر عليه مر الكرام، ولكنه يستوقفه محولا معايشته، والغوص في أغواره. وفي هذه الثنايا يعمق إحساسه به، ويجد فيه انعكاسا لثوريته الفكرية التي تنكر القهر والظلم، ويعكس هذه التجربة في أبياته الشعرية/ ويخرج منها أشد حماسا لثقافته الانسانية التي وجدت مصادرها في الواقع الحي المتحرك أمامه، وبقدار مايعمق هذه الثقافة بالتجربة الحية، بمقدار ماينفر، ويسخط على الأفكار الغيبية من بقايا "الميتافزيك"*.)- مفتاح السيد الشريف. وبالتالي فالشعرية تكمن في الواقع، وظهر في نص المرحلة أن الشعر ليس من اهتماماته فالشاعر لسان حال الخطاب الاجتماعي السياسي للمرحلة ولهذا تحول البشير إلى أداة السياسي وبانشغاله هذا تحول لخوض المعارك الثقافية وبخاصة ضد فلول الرومانتيكية والفلسفة الوجودية التي ظهرت وكأنها معقل الليبراليين والقوميين التقليديين وخطاب الفلسفة المثالية في مواجهة الجدلية المادية فقد حاول بعض الأدباء الجدد استيراد مذاهب لاتستقيم مع تطور الإنسان.. فنادى البعض بوجودية سافرة فيها تحد لقيم شعبنا واستفزاز لمكاسبنا الوطنية التي أتت نتيجة اندماج الفرد مع مجتمعه لانعزاله عنه في حرية غير محدودة ونادى البعض الآخر بمفاهيم ضيقة تشكل العالم إلى أقسام وتتعصب للأجناس وانساق البعض نحو أديب شرقي أو غربي ينقل عنه ويستمدمنه ثقافته، ويقلده.. وكان الشابي بالذات محوراً للكثير من التقليد والكثير من الدراسات. وكان هناك قلة تشرف على العالم بمفهوم إنساني صادق، غير

واع في بعض الأحيان، واع في أحيان أخرى، قلة تمسك خيوط الوجود الإنساني كظل، وتؤمن به، وتكافح في سبيله. ومن هذه القلة برز علي الرقيعي وخالد زغيبة كشاعرين يستمدان كل قوتهما وشاعريتهما من هذا المفهوم.)-كامل المقهور. ولم يكن الأمر في ذلك مجرد انعكاس لمعركة التحرر الوطني بل كان ذلك تعبيراً عن أزمة وبحث استكاني لمعنى الكيان، فقد تجلت الذات أخيرا في الأنضواء تحت المشروع الانسانوي والذي بدا أنه يدق الأبواب ويفتح الآفاق ولهذا كان النص مرثية لباتريس لومبا ومعتيقية شهيدة الإمبريالية: يا أبي آه ماأروع دفء الكلمات الطيبة، صرت أفهم روعة الحرف الذي يصنع للانسان سلماً. لقد اتضح أن زحزحة البنية العمودية هي تحول في الشكل وليس في الخطاب، فالمشروع النهضوي غير صيغة فصار التحديث لغة ثنائية الأصالة والمعاصرة؛ حيث أن الأصالة بحث عن الذات والمعاصرة انتماء للمستقبل، ولهذا فالشعر يمتاز (بالتكثيف. وهو ميزة حاسمة في التعبير عن نفسية إنساننا اليوم وأزمته. فإنسان اليوم يداوم على ترديد الشعر عندما يضيق به خناق المنفى وتجتاحه عواصف الغربة والتغرب، فالشعر-كأداة تكثيفية لمضامين الرفض والثورة، يعزى كثيرا.- إبراهيم الكوني، ولهذا كانت الغنائية سمة هذه الشعرية المتوترة التي تغطي نبرتها العالية ومباشرتها عن عجز الشاعر أمام السياسي، وتشف المواجهة هذا العجز فيكون الشاعر المناضل المتصوف؛ الذي يلهج تحت وطأة القمع الذي يواجهه بالقضية العامة باعتبارها النهج ويكون نصه الإنجيل الجديد الذي يردده الجمهور بإيمان ديني، وفي هذا النص يخبئ ذاته أو يستبعدها به. ولذا تحول نص الواقعية شعريا إلى منشور يتغنى بالوعي لكنه الوعي الشقي: الانقسام والتحيز ومخالطة النفس؛ فالتغيير في النص والنص ميتافيزيقيا جديدة تحول الواقع الى مرادفات: الثورة، التطور، الحرية(الديمقراطية)، ويتم تكرار المفردة حتى التصدع وحتى تبهت وتكل المخيلة بهكذا مكرور.

وأنها(قصيدة الخيش) لاالغامضة حيث الوضوح" يحجبنا عن اكتشاف الجديد، فالوضوح حين يستحوذ علينا فإنه يجعل وأد براعم الفكر

الحي في مهدها أمرا جد محتمل . ونلاحظ أن الوضوح ليس بأي حال معيارا لصحة الواضح فكرة كان أم سبيلا للإفصاح ، فكون الفكرة واضحة تمام الوضوح لايضمن بذاته تطابق ماتقرره مع مايقره الواقع " ، فهذه القصيدة الواقعية كانت تجنح إلى الوضوح ومن هنا تأت غموضها بمعنى أنها بهذا شفت عن مأزقها الفلسفي فهي في انفصام مع هذا الواقع الذي تتغياه ، وفي انفصام مع الشعرى في هذا الواقع لأنها لبوس غيرها : السياسي الذي صاغت شعاراته وهي تهدف إلى نقضه ؛ نقض تعسفه . ولهذا فهي(قصيدة الخيش)-حسب اصطلاح خليفة التليسي-في أنها ارتكنت إلى الجاهزية لافي أنها سبرت غور الواقع الذي تتسربل به وبالتالي غمضت! . وتحليل الظاهرة يبين الخطوط البيانية لها ، وبالتالي فإن استقراء هذه الخطوط هو هذه النتائج الملتبسة بمقدماتها ، لكن هذا-أيضا- يعني أن لكل ظاهرة استثنائيتها التي تجلت في قصيدة الغنائية الواقعية الليبية في شعرية على الرقيعي كما بينا في دراسة منفصلة حول هذه الشعرية .

ان المشروع التحرري الذي كان لسان حال القصيدة الواقعية الغنائية العربية تكشف عن أوهام ، وأوهام كبرى كان الشعري يكمن فيها وفي ولسان حالها : وضع الشعر في سلة السياسي فغدت القصيدة عارية . وهذه الأوهام هي الزلزال الذي هز بنية القصيدة ورؤية الشاعر ، وبدا وكأن العقلانية مرادف لهذه الشعرية التي تختزل الإنسان في أنه أداة لمشاريعه المادية ولأيديولوجيا هي محمول هذا المشروع ، هذه العقلانية التي تبين أنها مقولات مغلقة تغيب في الأخير العقل وتستبعد النقد الذي نهج العقلانية مما " شكل خطرا ساحقا على الفن الذي يرصد ممارسات الإنسان الأخرى فالإنسان ليس عقلا فحسب . انه مشاعر أيضا وهنا تكمن عظمة الفن لأنه يرى الإنسان كلا واحدا . . ولذلك فإن الفن فوق الفلسفة وفوق الأيدوجيا كفلسفة بالتالي إبراهيم الكوني .

هكذا بدأ نقد هذه الشعرية ! ببيان الحداثة الشعرية الليبية في عقدي

السبعينات والثمانينات، حيث ظهر تعدد وتقاطع لهذه النقدية. لم يعد ثمة صوت غالب؛ وبدا أن هناك خطابا شعريا جديدا وشعرية جديدة تحل محل هذه الأغلوطة؛ التي أجلت الأيدلوجيا محل الشعر وصوغت المقولات الفكرية التحررية بديلا، فتم وأد لثورة الشعر باسم الثورة.

بيان الحداثة..

مرة ثانية لابد أن نذكر بأن الحداثة لاتزال في كثير من ملامحها أدبا، ولاتزال مشوبة بالنزعة إلى الخصام ومن الصعب أن ينأى المرء عنها بتجرد، ومن العسير أيضا أن يتحدث عنها. ومن الملامح التعريفية للحداثة هو هدم الحدود الوطنية التقليدية في مسائل ذات هموم أدبية ثقافية، وهي ليست انقلابا بقدر ماهي انقطاع، تحول وانتقال، وقد يقول قائل، تحللا. لكن قبل هذا وذاك لابد أن نؤكد أن الحداثة كلمة حاسمة بالنسبة لنا، لكنها مربوطة بتعاريف لحالتنا عرضة للتغيير، ففكرة(الحديث أو المحدث) يعتريها انتقال دلالي أسرع بكثير من مصطلحات مماثلة تشابهها في الوظيفة مثل(رومانتيكي) أو (الكلاسيكية الحديثة) وقد غدت هذه الحداثة شغلنا الشاغل غدت أسلوبا مشاعا على نحو خفي في العمارة، والتصميم، ووسائل الأعلام كالأفلام والتلفزيون. ولهذا فالحداثة موجودة بالفعل، ولايمكن حجب الاعتراف بها على نحو معقول كما أن كتابات كتاب الحداثة قد تصدرت الاهتمام الفني، وإن الصدمة، وانتهاك الاستمراريات المتوقعة، وعنصر انعدام الخلق والازمة من تجليات هذه الكتابة.

وعلى ذلك ففكرة الحداثة في شكلها الأعظم طموحا كانت التأكيد أن الإنسان هو مايصنعه(وأنها لاترتكز على مبدأ وحيد، وأقل من ذلك على مجرد هدم العوائق أمام سيادة العقل؛ إنها مصنوعة من الحوار بين العقل والذات. الذات دون العقل تبدو حبيسة وسواس هويتها؛ والعقل دون الذات يغدو أداة القوة.) أو كما قال آلان تورين في "نقد الحداثة-الحداثة المظفرة"

لقد بدا أن الحداثة بيان العقل وفصاحة الذات في اللحظة وتجلت في

الآداب التي تتقدم بخطوات أسبق من خطوات المجتمع وأقوى فغدى بيان الشعر–أولا–أن(يبلغ عنفوانه الأقصى حينما يكون احتفالا هائلا بالحياة والكون، رقصا صاعقا ومهرجانا لولادة الأشياء وهي تتفتق وتتشكل وتعلن عن تكتماتها الداخلية، ويبلغ الشعر أيضا عنفوانه الأقصى إذ يتلبس الصرخات البدائية وزخمها الانفعالي، مشحونا بالاحتجاج، ومنتهكا بجرح لايغالب.

وفي الحالتين الكليتين هنا–أو في تداخلهما واندفاعهما العجيب؛ موقف إزاء العالم. أحدهما تتخذ فيها ذات الشاعر في لحظة أليفة محببة، وتنسحب الى الوراء بعيدا عن مشاعر الغربة والعتمة والوحشة، وفي الأخرى يبرز موقف التنافر والخصومة، فيشتد السخط والرفض، ولايبقى أمام الشاعر إلا أن يواجه العالم بخصوبة الانفعال الشعري وشموليته.

يكاد ذلك أن يكون قانونا عاما للرؤية الجمالية في التعبير عندما تتوغل صوب بؤرة الشعر. أعني عندما تكون الشحنة الفنية، حارة، متوهجة، بحيث تقبض على اللحظة الشعرية التي هي مركب غني مذهل، شديد التعقيد بين الذات والعالم. هكذا يمارس الجدل لعبته الشائكة، ويضفي لعبته على القصيدة شموليتها وخصوصيتها.)–محمد الفقيه صالح.

في السبعينات الليبية غدت هذه المفهومية الجديدة للشعر تغزو الثقافة والصحافة وتتصدر النتاج الشعرى وظهرت فيما بعد في صفحة ثقافية بجريدة الفجر الجديد(آفاق ثقافية– كتابات شابة) وكانت كتابات محمد الفقيه صالح وعاشور الطويبي وعلى الرحيبي وعمر الككلي وعبد السلام شهاب وفاطمة محمود وفوزية شلابي.. وغيرهم هي التعبير القلق عن روحية جديدة وشعرية شائكة تجعل الجمالية بؤرة الشعر في نظرة لتعقيد العلاقة بين الذات والموضوع وبالتالي اللاواقعية الواقع ففي ليبيا أن " تقرأ عن السريالية شيء، وأن تحياها شيء آخر "لقد غدت الحياة أكثر سريالية مما تذهب مخيلة الشاعر، لهذا التبس الامر على البعض فعدوا الشعرية الجديدة

هي تنويعه للنص الواقعي الذي هيمن في فترة الستينات ويجيء مثل هذا الالتباس من اعتبار بعض البيانات الشعرية التي ظهرت في مرحلة الاقتتال العربي؛ مرحلة بيروت هي المقياس الشعري باعتبار أن النظرة الشعرية تقع تحت طائلة وهيمنة المرحلة السياسية تلك ومثل ذلك ما جاء في كتابة لفوزية شلابي من أن الشعر (الذي لا تفوح منه رائحة الوطن، جثة هامدة ميتة/ جيفة كلامية مكانها الطبيعي أقرب محرقة للقمامة اليومية حيث تضع البورجوازية قاذوراتها، وتصرف البيروقراطية فضلاتها، وتخفي السلطة جرائمها الاقتصادية والسياسية، وتموت كل الاحتمالات الوضاءة والاحلام والامنيات)!!، وهذا الالتباس يتجلى في قراءة مفتاح العماري للممارسة الشعرية في السبعينات حين يكتب (في عشرية السبعينات، استطراداً، برزت بقوة قصيدة الحس القومي والنضالي -مقاومة العدو الذي كان عدواً مشتركا- القصيدة المنشور السياسي، الخاضعة لتوترات مقولات الالتزام والانتماء للجماهير والثورة). وأنه في هذا (يتجلى بؤس الحداثة الشعرية [عاطفياً]، فعلى الرغم من التواشج الحميم مع متطلبات التجديد بمفاهيمها المجردة غالباً [فعل الرؤيا]، التمرد، الخروج، الكشف.. إلا أنه وبالمقابل كانت تخضع لترسبات سلفية تجعلها مشدودة إلى ذاكرتها الشعرية).

هوامش

١- بصلة إحدى شخصيات المسرحي النرويجي (ابسن)، التي لا لب لها بطبيعة الحال وليس بمقتضاه.

٢- بيرنديللو هذا الذي كان من أول مترجميه الليبيون حيث ترجم له مبكراً رائد القصة الليبية القصيرة وهبي البوري قصة، ثم أخذ الاستاذ خليفة التليسي في ترجمته والكتابة فيه.

٣- مثل «مسعودة» عكاز رفيق رفيقة حياته والتي يضمها ركن رفيق في مكتبة جامعة قاريونس-بنغازي.

٤- (وفي الخامسة والعشرين من عمري عندما أخفقت -في حبي الأول- تحطمت

آمالي، وتحطم معها شعري، وميلي للأدب. وكان لي صديق يعطف علي، ويعلم أنني كالرجل الذي قضى عليه سوء حظه فشرب الكأس الأول، ثم اندفع في الكؤوس الأخرى ما يستفيق منها حتى ينقلب الى غيرها ليواصل نهاره بليله شارباً ثملاً. فقدم لي مؤلفاً عن «فريديناندو» فتبين لي العالم هائلا، وظهر لي العالم على حقيقته، غيره في الكتب، ومنذ ذلك الحين، انقطعت صلتي بالشعر والشعراء»!!.

(*) راسم قدري (قاسم فكري)، كتب القصة والشعر والمقالة منذ العشرينات، وهو من الجبرانيين بل أهم من هاجمهم رفيق في مقالته المشار إليها. كان رئيس تحرير مجلة (أفكار) التي أصدرتها عام ١٩٥٥م الجمعية الليبية التركية.

* * *

فرانز كافكا
جرافة الادب الغامض

حسن حميد *

(١)

قبل فترة من الزمن كنت في أحد الصالونات الأدبية في دمشق،وعادة مايعلو النقاش فيها حتى ينفذ من السقف، وأحياناً يهبط إلى حد لانستطيع، إن بحثنا عنه، أن نقبض عليه داخل الغرفة التي تلفّنا ! وعلى الرغم من ترداد الكلام واصطخابه، يحسّ المرء أن حالة من الصمت (اللامَرضي) تسيطر على الأجواء، وهذه فيها منفعة وجمالية أكثر من هيجان الحكي لا الكلام.

(*): حسن حميد: أديب وباحث من فلسطين. عضو اتحاد الكتاب العرب، أمين تحرير جريدة الأسبوع الأدبي.

المهم أنه أثيرت في هذا الصالون الأدبي (الذي ضمّ نخبة من العارفين بالشأن الثقافي) أسئلة توزعت إلى حلقتين، الأولى: أننا نحن العرب قدّمنا إلى أوربا كل ما أوصلها إلى حضارتها الراهنة اليوم، وأن لا فضل لأوربا علينا في وقتنا الحالي إن قدمت لنا التكنولوجيا، وأشكال التطور المتعددة، لأننا قدمنا لها الكثير من قبل، وكنا وقودها الذي حرك حضارتها البادية اليوم، والحلقة الثانية قالت: إننا لا نساوي شيئاً دون أوربا وحضارتها، وإننا مدينون لها بكل شيء قبلاً، وراهناً، ومستقبلاً، وهكذا. . علت وتيرة النقاش، وانفض الناس وارفضّوا دون الوصول إلى موافقات مشتركة، وهذه طبعاً حال صحية لأن الأسئلة الكبرى بحاجة إلى إجابات لا تستولدها الحوارات السريعة، وإنما تستولدها السنوات، والخبرات، والتجارب الطويلة.

قلتُ كل هذا لكي أسحب الحديث القادم نحو (كافكا)، وقد كان طرفاً أساسياً في ذلك الحوار الذي اشتعل. والحديث حول هذا الرجل (وهو يهودي، تشيكي الجنسية، ألماني اللغة، تربى وعاش في بلدان عديدة منها النمسا التي كانت حاضرة أوربا الثقافية آنذاك، كتب العديد من القصص والروايات، وترك بعض الخواطر والرسائل، والمرويات عنه)، قلت الحديث حول (كافكا) انقسم ليس في تلك الجلسة، وإنما انقسم دائماً على صفحات الصحف والمجلات والكتب باعتباره كاتباً إشكالياً، ويستطيع المرء أن يبوب ذلك الإنقسام إلى ثلاث فرق: الأولى تتهمه بيهوديته، وأن كتابته ذات مرجعية يهودية، والثانية تقول: إن لا علاقة لها باليهودية لا كشخص ولا ككاتب أيضاً، والثالثة قالت بحيادية (أمقتها لأنها محشوة بالانتهازية، ولأن لها علاقة بالفتور الذي لم يحبه معلمنا السيد المسيح)، ورأت أن نأخذ كتابة (كافكا) ونترك دينه وحياته، ونشاطاته الفكرية، والسياسية، والاجتماعية (وأنا ههنا لا أدري كيف سأعرف مرجعية الكاتب - أي كاتب - ورؤاه دون العودة إلى حياته كلها، فأنا لست سائحاً في قراءاتي ومعارفي التي أطلبها،

كما أنني لست باحثاً عن البهجة والمتعة الكتابية وحسب، لأن هذه ليست إلا زراً في معطف المقاصد الكلية للقراءة والمعرفة).

وعن (كافكا) أقول، بداية، إنني لست من أنصار العقليات التآمرية التي (لأسباب كثيرة، وقرصات كثيرة أيضاً) لاترى في الغرب إلا الشرّ المطلق ذلك لأنني من أنصار التروي ودراسة الأمور بتفاصيلها لقول مايقارب الحقيقة أو ما يؤشر نحوها، ولهذا كنتُ، ولا أزال، أدعو مع الداعين إلى النهوض بمراجعات شخصية للأدباء والمفكرين وأصحاب الآثار المهمة (في جميع مناحي المعرفة والفنون) انطلاقاً من رؤى شخصية، وباجتهاد شخصي بعيداً عن الأهواء والنزوعات والمشاغبات، والأماديح، والنعوت الغاضبة، وبعيداً عن الترويج للمذاهب والتيارات.. إلخ للوصول إلى هذه القناعات وإعلانها حتى ولو أغضبت الآخرين والشعور العام، وأرى أنه لابدّ من الوقوف عند هذه القناعات لأنها تابعة من محرقة البحث عن الحقيقة بأدوات ورؤى موضوعية. بعد هذا أقول، لقد قمت مؤخراً بإعادة قراءة (كافكا) في نصوصه الإبداعية، وفي المؤلفات النقدية التي كتبت عنه، وفي المراجعات المكتوبة عن سيرته الذاتية ونشاطاته المختلفة؛ فماذا وجدت؟!.

أعتقد أنني على حق إن قلت: إن (كافكا) أديب لايقرأ دون الإمساك بمفاتيح خاصة به لفهم أدبه الذي تركه (مثله مثل أي أديب آخر)، أي دون أن نعرف سيرورة حياته، وعلاقته بالمجتمع الذي عاش فيه وتفاعل معه (المدرسة، والزملاء، والأصدقاء، والأسرة) وخصوصاً علاقته مع أبيه؛ هذا الأب الذي سيغدو في (رسالة إلى الوالد - أحد نصوصه) أباً من لحم ودم، وتاريخاً لمرحلة، وديناً، وعُرفاً، وخائناً للدين اليهودي لأنه لم يعلم (كافكا) الابن إلا أساسيات هذا الدين، ولأنه لم يوافقه في رؤاه فقد كان الأب من القائلين بالاندماج اليهودي داخل المجتمعات الأوربية، بينما كان (كافكا) من القائلين بضرورة [الزحف إلى مكان صغير نقي على الأرض

تضيئه الشمس أحياناً ويمنح بعض الدفء] ، وهذا المكان الذي يريده (كافكا) لم يكن الغيتو بأية حال من الأحوال. أنني الآن أتفكر متأملاً لأقول لماذا أنكر بعض نقادنا وأدبائنا يهودية (كافكا)، وعلى أية أسس استندوا فأقاموا رأيهم هذا به! والمفترض أنهم قرأوا (رسالة إلى الوالد) وفحصوا سطورها وقولاتها، فـ(كافكا) يقرّ صراحة بأنه يعاتب والده لأنه لم يرتق بيهوديته، وأنه لم يقبض منها إلا على (السفاسف)، وأنها لم تكن ركناً أساسياً في حياته، كما أنه يقرّ بالتزامه بيهوديته التي تعلمها من زملائه في الثانوية، ومن الكتب، ومن الأصدقاء الذين تعرف إليهم في الجامعة والحياة، والمرجعيات أيضاً، بعيداً عن تأثير والده. إنه يقول: [كلانا كان من الممكن أن يجد نفسه في اليهودية أو حتى أن ننطلق من هناك متحدين]، و[في هذا أيضاً كان يكمن يهودية كافية]، [فلو كانت يهوديتك أكثر رسوخاً لكان مثالك أكثر إقناعاً]، و[قد حصلت فيما بعد على تأكيد ما لهذا الرأي بيهوديتك المهتمة بالسفاسف فقط نتيجة تصرفاتك في الأعوام الأخيرة عندما بدا لك أنني أشغل نفسي أكثر بأمور يهودية]، [بواسطتي أصبحت اليهودية بغيضة لديك والكتابات اليهودية لاتقرأها لأنها أثارت القرف في نفسك، وأمكن لهذا أن يعني أنك كنت تصرّ على أن اليهودية التي كنت قد قدمتها لي في طفولتي هي وحدها الشيء الصحيح]، [وللمناسبة كان تقديرك السلبي ليهوديتي الجديدة مبالغاً فيه كل المبالغة]. هذه بعض الاستشهادات، أنقلها هنا من (رسالة إلى الوالد) المكتظة بها، وقد ترجمها باقتدار الاستاذ ابراهيم وطفي، ولعلها تشير إلى أن (كافكا) لم يكن متنكراً ليهوديته كما قال نقادنا المجتهدون في كتابة الوصفات التقييمية للآخرين، فما (مسخه)، و(صرصاره) إلا صورة من صور مقاومة اليهودية للغيتو الأوربي من أجل النفاذ إلى (أرض الميعاد) التي (وعد) بها اليهود كما زعموا.

- ٢ -

إذن، إنني مع القائلين بأننا لكي نفهم كتابات بعض الأدباء الذين ولّدوا حواراً طويلاً حول حياتهم الأدبية ومؤلفاتهم معاً، علينا أن نبحث عن المفاتيح الأساسية التي تجلو هذه الكتابات وتفك رموزها ومغاليقها؛ فدوستويفسكي - على سبيل المثال - مفتاح كتاباته الرئيس هو موضوعة (الظلم المؤدي إلى الجريمة)، وجوزيف كونراد (البحر وأسراره، وتبريره لسياسات الاحتلال)، وألبر تومورافيا (العطش إلى الجنس)، وهمنغواي (الصيد والإيمان بالأمل) وغراهام غرين (البوليسية والجريمة). . إلخ أما (كافكا)، فأعتقد أن المفتاح الأساسي لفهم كتابته يتمثل في (الخوف)، . وبالتالي فهم علاقته مع والده، ومعرفة نصه (رسالة إلى الوالد) معرفة دقيقة، فموضوعة (الخوف) عند (كافكا) هي محور أعماله، فهو خائف من (الأب)، و(المدرسة) و(المجتمع)، و(الأصدقاء)، و(الزواج)، و(الخطيبة)، و(المرض)، و(الموت). . إلى آخر القائمة. ونص (رسالة إلى الوالد) يُقرأ على أكثر من مستوى، ومن حق النقاد أن يروا فيه مستويات عديدة، فمنهم من يضعه في مستواه الواقعي البيّن، أي مستوى علاقة الابن (المسحوق) مع والده (الظالم)، وجرأة الابن (المتأخرة جداً) في مصارحة الأب بأنه قاسٍ، يضغط على أنفاسه في كل صغيرة وكبيرة، وعندي أن الإقرار بهذا المستوى يجعل نص (رسالة إلى الوالد) دون أهمية لأن الأبناء المظلومين (ليس في أوربا وإنما في جميع بلدان العالم تقريباً) من قبل آبائهم كثيرون إذ أن ظلال هذا الظلم قد تصيبهم هنا أكثر أو هناك أقل، ولكن الإصابة في الحالين واقعة، ولعل الابن الشرقي يشعر بمثل هذا الظلم الأبوي الطاحن أكثر من غيره، وهذا الأمر معروف ومدرك، بل يكاد يكون أساسياً في العلاقة الرابطة مابين الابن والأب، لهذا فإن نص (كافكا) المعنون بـ(رسالة إلى الوالد) لايقدم جديداً إذا ما أردنا فهمه على صعيد المستوى الواقعي وحسب. أما تقليب هذا النص على وجوه عديدة، وفهمه على مستويات أخرى فهو يوصلنا إلى تلمس الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولى: الأب تاجر، يريد أن يفك انغلاق الغيتو (كما يريد كافكا الابن تماماً)، وذلك من أجل الاندماج في المجتمع الأوربي (وهذه نزعة يهودية كان وراءها مناصرون يهود كثيرون، أما (كافكا الابن) فهو يريد فك مغاليق الغيتو اليهودي أيضاً، ولكن من أجل الانطلاق نحو (أرض الميعاد) المحلومة لاسيما وأن كتاب هرتزل (الدولةاليهودية) كان قد شاع انتشاره وتداوله وتأثيره، وقد كانت رؤية (كافكا الابن) وثقافته في حالة تقدم وتفوق على رؤية كافكا الأب وثقافته بعدما عد الأب ابنه مغالياً في يهوديته الجديدة، في حين اتهم الابن أباه بأنه مشدود إلى التعاليم اليهودية التي تلقاها في طفولته وحسب. وفي هذا مفارقة تبديها المقارنة بين أفكار جيل قديم وجيل جديد في مناخ يهودية واحدة.

الحقيقة الثانية: يشدد النص (رسالة إلى الوالد) على توق كافكا الابن إلى الزواج من أجل أن يتحرر من (كماشة) ظلم الأب؛ أي لكي يصير نداً له وحراً بالمفهوم العام، لكن المؤسف أن المرأة التي يريدها كافكا الابن خلاصاً له من قسوة أبيه ليست إلا وسيلة للنجاة من ظروف أبيه، ولم تكن خلاصاً، أي لم تكن المرأة غاية بكليتها عند كافكا، وإنما كانت وسيلة، ولهذا تعثرت علاقاته النسائية كلها وأخفقت، ومات كافكا الابن ولم يتزوج. إن فهم هذه العلاقة على مستوى آخر يشير إلى روح الاستقلالية التي ينشدها اليهود ذوو الأفكار الجديدة آنذاك بعيداً عن ماضيهم في أوربا (والأب هنا رمز ومعادل)، هذا الماضي الذي يهدف في طروحاته إلى الاندماج في المجتمعات الأوربية، فالاستقلالية هنا هي موضوعة غايتها الوصول إلى الندية / الحرية عن طريق المرأة كوسيلة. وهذه الرؤية للمرأة لم تتغير في أعمال كافكا الأدبية كلها؛ فالمرأة في قصة (الحكم) جسر عبور ليس أكثر باعتبارها شيطاناً غاوياً، و(فريدا) في (القلعة) ليست أكثر من وسيلة دفاع ضد إدارة القلعة للوصول إلى داخل الإدارة نفسها، وشخصيات كافكا - على الأغلب - هي شخصيات ذكورية وعالمه الأساسي عالم ذكوري بحت،

أما ماهو أنثوي فليس أكثر من حواش ووسائل للوصول، وقد كان دور المرأة اليهودية عبر تاريخ اليهود كله وسيلة للوصول إلى الغايات المهدوفة، وبذلك كانت المرأة اليهودية ضحية منذ أن صار لأخبارها مدونات، وذواكر.

الحقيقة الثالثة: ليس صحيحاً أن كافكا كان يكتب الكوابيس، أو يسّجل حالات التضييق إحساساً منه بما يحدث في العالم بأجمعه لأنه في كل كتاباته يقسم العالم إلى قسمين، الأول: ظالم ومعادله (الأب المنحرف في رؤيته وأحلامه وطموحاته)، والثاني: مظلوم ومعادله (الابن المتنور) الصادق بإحساسه وتوجهاته، والمتطلع نحو (مكان تضيئه الشمس - أرض الميعاد)؛ أي أن هناك طرفين، الأول: قديم سيغيب في قدمه ويغور في ماضيه. والثاني: حديث ذاهب إلى بناءات وغايات يطمح إليها خارج المكان المقيد والمحجم بالغيتو؛ هذا المكان الذي يولد الضيق، والظلم، والوحشة، والقسوة، والوقوع تحت مهوى قبضة الأب، أي الانطلاق نحو (أرض الميعاد).

إن قناعتي أكيدة، بأن قراءة (كافكا) خارج نطاق فهم معاني (الخوف) بكل دلالاتها، وفهم نصه الأساسي الذي هو الحكاية الإطارية لكل أعماله (أعني نصه رسالة إلى الوالد) ستكون قراءة تضليلية عبثية، غاياتها لاتقصد فهم كتاباته قدر قصدها الترويج السرمدي لكاتب كانت الدعاية له أكبر من كل أعماله، تلك الدعاية التي حجبت أعماله أولاً، كما حجبت توليد قناعات جديدة من خارج روحها ثانياً، هذا الكاتب الذي لم يقرأ بعد وفق مفاتيح تقود فعلاً إلى لبّ رؤياه وأهدافه من أجل استخلاص ماحوته نصوصه لا الأقوال المشيعة لها أو المكرزّة في آن معاً. إن الموضوعية تدعونا إلى التحلل من كل نظرة سابقة، أو هوى قصدي أياً كان غرضه، والدخول إلى أعماق نصوصه لجلو مافيها، واستخلاص الغايات المضمرة منها والمكشوفة، والإيجابية والسلبية معاً، وذلك من أجل طيّ كل التحليلات والمراجعات الكذوب التي كتبت عنه بالنقل إما بدوافع انفعالية أو بدوافع الغرور والوهم بالقدرة على الكتابة في كل الموضوعات والشؤون.

- ٣ -

والحقيقة التي لامراء فيها، هي أننا سمعنا بـ (كافكا) قبل أن نقرأ له، وأننا جميعاً أصبنا بلوثة الإخبار، والتعميم، والتشوش، والمذهبيات المسبقة قبل أن نقرأ للرجل حرفاً واحداً، وأنا واحد من الناس الذي قرؤوا لـ (كافكا) بعد معرفة خارجية، بعيدة عن نصوصه، معرفة شفهية، وأخرى بصرية مستجلبة من مراجعات ونقدات مكتوبة عنه وعن نصوصه. فقد سمعت عنه كلاماً لايليق إلا بالندى، أو رأد الضحى، أو نثيثاً من الثلج المشتهى الذي يدنو ولايدنو، وقلت: طيب! تحزّمت وطاردت أخبار الرجل بحثاً عن كل ماهو مكتوب عنه، فاقتنيت كتبه، والدراسات النقدية المكتوبة حولها؛ كنت في العمر الذي لايبحث فيه المرء إلا عن مضامين القصص للوقوف على أحداثها ورؤاها، قرأت له ترجمات عن لغات وسيطة (فرنسية وانكليزية) وأخرى عن لغته التي كتب بها (الألمانية)، وكانت في غالبها الأعم ترجمات متحدرة عن طريقين هما مصر ولبنان، ولم أخرج من قراءاتي تلك بشيء سوى أنه كاتب عظيم وخطير ومهم لأنني لم أقدر على فهمه واستيعاب الدلالات والرؤى التي قصدها، وقد وجدت أن بعض كتاباته منشورة تحت اسم القصةالقصيرة مرة، ومنشورة تحت اسم رواية مرة أخرى، ومنشورة تحت اسم فصل من رواية مرة ثالثة، كما وجدت أن النص نفسه منشور تحت اسماء عديدة مثل رواية (القصر) فيصير اسمها (المفقود) أو (الوقّاد) ثم تصير (المفقود) (أمريكا) وهكذا... ودارت الأيام دورتها، وصار من المعيب أن يكتفي المرء بقراءة العمل الأدبي من أجل معرفة أحداثه فقط، وإنما صار هاجسهاالأساسي هو البحث عن الروح الفنية، وطرائق الشغل والنسج الإبداعي الظاهرة منها وغير الظاهرة للقبض على الأسرار والمعاني والرؤى، لهذا رحت أبحث عن المرجعيات الأساسية، والمصادر والينابيع الأولى لهذا الرجل بحدود ما أملك من معرفة وأدوات، ولم أنح ماعرفته عنه سابقاً، كما لم أمحُ الأماديح الكثيرة التي قيلت في حقه أديباً وأدباً، ولم آخذ

بفحوى الأحاديث التي أراد أصحابها حرفي عنه باعتباره يهودياً أو قل صهيونياً كما أحبوا أن يصفوه. قرأت للرجل جلّ ماهو متوافر في مكتباتنا، واستعرت بعض مؤلفاته من الأجاويد، وظللت ملحاحاً في أسئلتي لعارفيه عن كل صغيرة وكبيرة من أجل تكوين فكرة أقرب إلى الشمولية عنه كإنسان وأديب، ووصلت إلى الآتي: عاش (كافكا) إحدى وأربعين سنة (١٨٨٣-١٩٢٤) قضى منها تسعة وعشرين سنة (أي إلى العام ١٩١٢) لم ينشر خلالها أي كتاب، وفي العام نفسه (١٩١٢) نشر كتابه (تأملات) الذي يضم (٢٣) ثلاثاً وعشرين صفحة فقط بعدما وافق على شروط ناشره الذي رضي بهذه المغامرة غير المضمونة النتائج (وهذا مايحدث مع الجميع وليس مع كافكا وحده)، ولم يبع هذا الكتاب سوى (٦٩) تسع وستين نسخة في سنته الأولى، كما لم يبع منه سوى (٤٠٠) أربعمائة نسخة طوال حياته (أي طوال اثنتي عشرة سنة)، ولم يقبض مكافأة عنه سوى (٢٥,٨٨) خمسة وعشرين ماركاً وثمانية وثمانين فرنكاً، وفي عام كامل (١٩٢٢-١٩٢٣) أي قبل وفاته بسنة واحدة لم تبع كتبه التالية (تأملات، الحكم، الوقّاد، المسخ، مستعمرة العقاب، طبيب ريفي) سوى (٢٧) سبع وعشرين نسخة، أقول هذا كله ليس لأدلل على عدم أهمية (كافكا)، وإنما لأقول إن عجلة الدعاية، والظروف المؤاتية، والتكريس والتركيز له.. كلها لم تبدأ بعد لأن كتبه نفسها باعت بعد هزيمة حزيران (١٩٦٧) في ألمانيا وحدها ستة ملايين نسخة من كتب الجيب فقط، و(٤٠٠) أربعمائة ألف نسخة من مجموعة الآثار المطبوعة طباعة فاخرة، وذلك باعتباره كان (أكبر محلل لظاهرة القلق عند اليهود، وأحد المبشرين بفك طوق الغيتو باتجاه الوطن التاريخي الموعود) كما قال أحد نقاده، وقد تضاعفت طباعة مؤلفات (كافكا) وزادت معدلات نشرها لاحقاً وعلى نحو محموم باعتبارها تدرّ (مبالغ مدوخة) للناشرين، ولهذا تسابقوا على نشرها في حلل جديدة مقرونة بالدراسات النقدية الشارحة لها مرة على أرضية (علم النفس واتجاهاته المختلفة)، ومرة وفقاً (للفلسفات الإنسانية وتياراتها)، وثالثة من وجهة نظر الأسطورة

العبرية (لاحظوا الأسطورة العبرية وليس الأسطورة الشرقية كما هو معروف)، ورابعة تبعاً لمناهج (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا)، وخامسة حسب تفهمها وتعمقها في (الموسيقى)و(الرسم) و(الدراما). . . إلخ، والعجيب أن (كافكا)الذي عرف بأنه لايفهم إطلاقاً بالموسيقى لامعرفة ولاتذوقاً صارت تقام تحت اسمه، وبوحي من كتاباته، مهرجانات موسيقية!! كما أنه لم يبد أي اهتمام بالسينما والرسم، ومع ذلك تقرأ أعماله وتحلل تحت تأثير أطيافها السحرية!.

بعد هذا كله يجد المرء، وهو يقرأ مؤلفات الرجل أن لاتسلسل منطقياً ينتظمه، ولهذا يخمن ـ للوهلة الأولى ـ أن أسلوب الرجل هو كذلك، أي أنه يتعمد الانقطاعات للتورية والتشويش أو التعليق للمساءلة والبحث؛ لكن المرء يكتشف بعد العودة إلى المراجعات النقدية، والتصويبات، والمقارنة بين النصوص المسبوقة في الطباعة واللاحقة عليها أن خللاً فادحاً ارتكبته دور النشر (وهي في حمّى نشر أي شيء نسب إلى كافكا)يتمثل في تداخل الصفحات فيما بينها لأنها وجدت بعد رحيل (كافكا) على هيئة (حزم من الورق) وهي غير مرتبة، ولهذا رقمت وفقاً لهوى وفهم وغايات أصحاب دور النشر، وبذلك ضاعت حقيقة الترتيب والتأليف، ولهذا اختلطت المعاني وتشوهت، وذبلت جمالية الأسلوب وانطفأت، غير أن الأفكار القصدية ظلت هي هي، ومن الأمثلة التي أسوقها هنا، أن رواية (القلعة) أرفقت بـ (٣٧٤) صفحة من الملاحظات والشروح والتصويبات. والأمر نفسه ينطبق على رواية (أمريكا) أو (المفقود) أيضاً، بل إن (رسالة إلى الوالد) نشرت مرات عديدة ناقصة ومتداخلة، وفي مرات أخرى مختلفة ومنسوبة إلى (كافكا) وهي حقيقة ليست له.

- ٤ -

وهكذا. . ، فقد عملت على قراءة أعمال (كافكا) وأخباره، والدراسات التي انعقدت حوله كمن يعمل في مقلع ليس لصعوبة كتابته

فـقـط، وإنما للأفكار السـوداوية، وحـالات خـراب الذات والمجـتـمع، والعلاقات الشائعة داخل نصوصه، فهو لاينتهي من حديث حول عزلته ووحدته حتى يدخل إلى عالم الإحباط الذي ولّده والده في نفسه، والذي ظل رفيقاً له إلى وقت مماته سنة (١٩٢٤) وهو لايزال في الحادية والأربعين من عمره، وليست نصوص (كافكا) وحدها الملأى بالعزلة والوحدة والكآبة والظلم والحزن والتأفف والضيق والمحو والانطفاء، وإنما هي كذلك أيضاً الدراسات التي تحدثت عن أعماله، والتي جاءت بتأويلات وشروح على غاية من الغمّ والجفافية والقسوة والحزن، وهي تفصل الحديث في كل كلمة كتبها أو فكرة شاقها، ولم يقتصر الأمر هذا على النصوص والدراسات وإنما لفّ أخبار حياته وسيرورة معيشته مع أسرته، وأصدقائه، وصديقاته (اللواتي دخلن دائرة الخطوبة على وجه التحديد مثل فيليبس باور، ويولي فورتيسك)، وقناعتي الأكيدة، بعد اطلاعي على أعمال (كافكا)- وهو اطلاع محدود- أن الأثر الكبير الذي ترسب في كتاباته، وبات حديثاً للناس تمثل في إسقاطه لطبيعة علاقاته وروحها مع هذه الأطراف جميعاً (الوالدان، الأخوات، الأصدقاء، الصديقات، الأمكنة، الزمن) ومقابلته الفذة مابين هذه المفردات المشخصة والأفكار التي يودّ طرحها مقابلة ذات توحد فريد ونادر، إلى الحد الذي يجعل المرء قادراً على نحو ما أن يفسر جميع أعمال (كافكا) انطلاقاً من هذه العلاقات الشخصية، ووضعها في إطارها الواقعي وحسب دونما إسقاطات أو تأويلات، وأن يكون قادراً أيضاً على إسقاطها على طبيعة المجتمع اليهودي (الذي تمثله أسرة كافكا وصداقاتها وتطلعاتها الاجتماعية وغير الاجتماعية) في تلك الظروف الدولية، خصوصاً مع ظهور الكتابات المبشرةبالدولةاليهودية، وتحديد مواقعها ومرجعياتها الدينية والتاريخية. وبروز ما سمي بالصهيونية الناظمة لتوجهات وخطط وغايات راحت تظهر رويداً رويداً عبر تأثيرات أفكارها وصداها في الحوارات والكتابات اللاحقة، والتي صارت بالنسبة لليهودي الموافق عليها أو الرافض لها هاجساً من أجل بلورة الرؤية النهائية، ولهذا ظهرت الخلافات مابين

الفرق اليهودية واضحة أشد مايكون الوضوح في بدايات هذا القرن، وذلك مع ظهور التحزبات الداعية للاندماج في المجتمع الأوربي أو الرافضة له في الوقت نفسه، ففي خضم هذه الصراعات والتناقضات المترجحة مابين التفاؤل واليأس ظهرت كتابات (كافكا).

وقد بدأ (كافكا) منذطفولته (وهو الذكر الوحيد في أسرة الأب التاجر هرمان كافكا صاحب الأملاك الكبيرة، والبيوت المؤجرة، ومحلات الألبسة الفاخرة، له ثلاث أخوات كلهن أصغر عمراً منه، وأسماؤهن هي: إلي، وفالي، وأوتلا، وهذه الأخيرة الصغيرة كانت الأقرب إلى نفسه، وقد أشرفت عليه في آخر أيامه كما تشرف الأم على ابنها) المقارنة بينه وبين والده باعتباره بكراً، فالصورة النموذج في الحياة هي الولد، وحدود المقارنة كانت مفتوحة على جميع أملائها الجسدية، والفكرية، والروحية، والسلوكية، وهي مترجحة مابين القبول والرفض أو الصمت والامتعاض.

أبدى (كافكا) عدم اهتمام بالعلوم المدرسية، واجتاز المدرستين الابتدائية والثانوية بصعوبة بالغة، وكانت تقديرات نجاحه لاتتجاوز درجة (المقبول)، وانتهى بصعوبة بالغة من دراسته الجامعية (الحقوق، وحاز على شهادةالدكتوراه، وعمل في مؤسسة للتأمين الاجتماعي، استطاع من خلال عمله هذا أن يراقب حياة العمال، ويرى البؤس الذي يلفّ حياتهم لاسيما وأنه عمل على تقدير المبالغ المالية التي تخصص للعمال المعطوبين باصابات العمل من أجل إحالتهم إلى التقاعد (وهذا العمل تحديداً هو الذي جعل بعض نقاده يحسبونه على الاتجاهات الماركسية، فكر زواله باعتباره كاتباً ماركسياً)، وكان العمل النهاري المرهق هو أكثر مايثقل كاهل (كافكا) لاسيما وأنه لايمتلك إلا جسداً ناحلاً (طوله ١,٨٢ سم، ووزنه ٦١ كغ)، كما أن النظرة المحبطة الساخرة من والده هي أشد مافتت عزيمته، وقلل من طموحاته التي أراد تحقيقها في الكتابة، ولهذا حاول التحرر من الأمرين معاً: العمل المرهق، والأب الظالم.

وإن كان قد استطاع التقاعد في سنوات عمره الأخيرة على نحو مبكر نسبياً ليتفرغ للكتابة ويعيش منها، فإنه لم يستطع التحرر من سطوة والده التي يسميها (السلطة العليا).

حتى عام (١٩١٢) لم ينشر كافكا إلا كتابه الأول (تأملات) وقد لاقى - كما قلت - إخفاقاً ذريعاً، لأنه كان من التواضع وضآلة الحجم مايجعل أي مهتم بالكتابة يزورّ عنه، وكان عمره آنذاك تسعاً وعشرين سنة، وبعدئذ حاول بكل ما أوتي من قوة أن يعوض هذا الكتاب برواية تروّج لاسمه وتقنع والده (الكاره للكتابة والتأليف) بأهميته، فشرع في كتابة رواية (المحاكمة) و(المفقود) لكنهما أخفقتا معاً إخفاقاً محبطاً، ولهذا قال في وقت لاحق إن الكتابة تأبى عليّ، ولهذا تحوّل إلى كتابة اليوميات على نحو مبكر جداً (أي في عام ١٩٠٩، وعمره آنذاك ستة وعشرين عاماً فقط)، كما استنزف طاقته الإبداعية بكتابة الرسائل لصديقاته وأصدقائه وقد نشر في هذه الرسائل واليوميات الكثير من موضوعات قصصه ورواياته والآراء النقدية القادحة لها لا المادحة، فلقد كان قاسياً في أحكامه على كتابته، ولكنه تشبث بها لأنها هي وحدها القادرة على تبليغ رأيه ونظرته نحو الحياة، فعن طريق الكتابة، وليس عن طريق أخرى، يستطيع قول كلمته في هذه الحياة، كما آمن.

ولعل أبرز ما أراد أن يقوله (كافكا) في مؤلفاته كلها هو هذه الجملة الصغيرة الواردة في رسالته الطويلة إلى والده «إن الحياة أكثر من لعبة صبر»، بالطبع ماكان (كافكا) يقصد حياته هو أو حياة أسرته، وإنما حياة اليهود بعامة في المجتمع الأوربي، أو بقولة أخرى، حياة اليهود في المجتمع المسيحي، وما أراد الوصول إليه يقرره في الرسالة أيضاً، والذي يتلخص بالآتي، وحسب ماجاء في الرسالة: «الاستقلالية، الثقة، تنفس الصعداء، الأمان، الإنقاذ، التهدئة، الحقيقة». وهذه التراتبية ليست مجانية، ومقصدها الأساسي ليس الفرد (الابن) للخلاص من ظلم (الأب)، وإن كان المقصود كذلك فهو ليس إلا مستوى أولياً لفهم مايرمي إليه (كافكا).

لقد قال عنه صديقه اليهودي، ناشر أعماله ماكس برود الذي هاجر إلى فلسطين سنة١٩٣٥، وعاش في تل أبيب ومات فيها سنة ١٩٦٨: «إن قصص (كافكا) هي وثائق يهودية من عصرنا»!!

– ٥ –

بعد هذا، أود أن أقف عند بعض أعمال (كافكا) لجلو دواخلها، والوقوف على أغراضها وتوجهاتها، ومن هذه الأعمال روايته (القلعة). قرأت هذا العمل تحت عناوين ثلاثة (القصر)، و(البرج)، و(القلعة)، وكلها مترجمة إلى العربية، وعرفت فيما بعد أن كلمة (القلعة)هي العنوان المناسب تماماً لما قصده (كافكا). كتبت هذه الرواية سنة (١٩٢٢) أو سنة (١٩٢٣)، وقد أخذت من وقته حوالي تسعة أشهر، تخللها كتابات قصصية أخرى مثل (فنان جوع) و(أبحاث كلب)، وبعض الرسائل، وهي لم تنشر في حياته لأنه توفي سنة (١٩٢٤) وتركها مع غيرها من أعماله لدى صديقه ماكس برود الذي أوصاه أن يحرقها جميعاً كمخطوطات عديمة الفائدة، وهو لم ينشر في حياته سوى ستة كتب، منها أربع قصص طويلة، ومجموعتان قصصيتان لاتزيد حجم صفحاتها مجموعة عن مائتي صفحة.

و(القلعة) قصة طويلة تبحث في هوية السيد (ك) الذي يصل البلدة ليلاً وسط الضباب والظلام، فلا يتعرف شوارعها وممراتهاأو بيوتها، ولكنه يدخل إلى أحد حاناتها ليبيت فيه ليلته، وسط غفلة الناس من حوله، وحين يجد مكاناً للنوم يكون مكانه في الطبقة السفلية من الأسرة المرتبة فوق بعضها بعضاً، وبذلك يكون الإنسان الأقرب لمكان الأحذية ومبيتها، ومع دخوله إلى الخان تبدأ الأسئلة عنه (باعتباره غريباً). والسيد (ك) بلا ماض تقريباً، لأن الرواية لاتتحدث عن ماضيه، وإنما تتحدث عن المأزق الذي وقع فيه حين يقال له ما من أحد يبيت هنا إلا بإذن من (الكونت) سيد القلعة، وبذلك يصير (ك) داخل منظومة وآلية عمل القلعة (التي هي ليست أكثر من وهم لأننا لاندرك أشياء كثيرة عنها سوى أن لديها أجهزة تعمل على مراقبة

الآخرين بغية تسخيرهم لمصلحتها وشؤونها السرية . ولايتم الخروج من هذا المأزق إلا بإجابة السيد (ك) الغامضة(أنا مهندس المساحة الذي استحضره الكونت)، وهو بذلك يربط نفسه بأعلى سلطة موجودة في (القلعة)، وحين يسأل الكونت عنه تكون إجابته غامضةأيضاً (مهندس مساحة؟!)، وبذلك الاستنكار ترفض هوية السيد (ك)، ولكن بعد السؤال مرة ثانية، وإصرار (ك) على أنه مهندس المساحة المجلوب يُعترف به داخل مجتمع القلعة بأنه مهندس المساحة فعلاً، وأن الكونت هو من استحضره، وتفيدنا الرواية أن رجال القلعة (حراس أخبارها وأحداثها ومستقبلها) كانوا يعرفون كل شيء عن السيد (ك) وبذلك يعين (ك) في مهمة (مهندس المساحة)، وقد خاضوا في سبيل أخذ قرار التعيين نزاعاً حامياً هدفه الرئيسي الاعتراف بهوية السيدة (ك) تحديداً، وتقدم الرواية أفكاراً عديدة تدور حول ما إذا كان الواجب يقتضي من السيد (ك) التعريف بذاته، أم أنه واجب يقتصر على الآخرين للبحث عن، هويته وإيجادها، والآخرون هنا يمثلون قرون الاستشعار داخل سلطةالقلعة، وبذلك تصير هذه المشكلة الاعتراف بالسيد (ك) محور الرواية وقضيتها، ويتبادل الجانبان الأسئلة والأجوبة والحوار فيما إذا كان الاعتراف بالهويةسيأتي من الآخرين ويرضى به السيد (ك) كتوصيف، أم أنه سيأتي عن طريقه هو وبحرية مطلقة، وخلال هذه الحوارات يتعرض السيد (ك) إلى الكثير من الإهانات والإذلال ليس من قبل الناس (الذين هم مغيبون تماماً ليس في رواية القلعة وحسب وإنما في أغلب قصص كافكا وأعماله الأخرى)، وإنما من قبل السلطة العليا في القلعة، وقرين هذا الإذلال هو (الذنب) المرافق كموضوعة أساسية في كل أعمال (كافكا)، فوضع السيد (ك) في دائرة المذنب أو المقترف للخطأ يؤدي إلى الإذلال والخلاص المراد معاً، أي الخروج المرغوب به والذي لايأتي بجهود فردية في الغالب الأعم.

في كل أعمال (كافكا)، ومنها القلعة، ثمةطرفان: الأول هو البطل، والثاني هو السلطة، والمواجهة لابد منها كفاحاً للخروج من المأزق.

وثمة حوار متواز أيضاً في ثنائية متوارثة عند شخصيات (كافكا) يتمثل في حوار الذات مع الذات، ففي (القلعة) يكون حوار السيد (ك) على صعيدين، الأول مع ذاته (هل هو، حقيقة، مهندس مساحة، ولماذا، وكيف، ومتى كان؟! . . . الخ)، والثاني هو السلطة العليا في القلعة (لتعترف هي به كرجل له اعتباره ومكانته وقدراته الاستثنائية)!.

ويدرك السيد (ك) أن مامن قوى خارجية ستساعده على الوصول إلى غاياته، وأن عليه أن يكافح وحيداً في محيط ممتلئ بالغموض والأعداء، والظلام، والضباب، ولهذا قيل إن (كافكا) يكتب عن مجتمع لارحمة فيه ولا أخلاق، وبعد هذا، فالرواية (القلعة) من حيث البنية المكانية مكانان الأول: بيوت القرية وهي بيوت بسيطة لكنها صلدة بتقاربها من بعضهابعضاً، والثاني: القلعة وهي بناء متداع، يلفّه البلى كأنه موشك على التداعي والسقوط، وقد رأى النقاد الماركسيون في هذا الجانب أن (كافكا) يشير إلى بداية سقوط النظام الرأسمالي، أما المتاهات الكثيرة، والأبواب المتعددة، والجدران العالية داخل القلعة، فكلها تؤكد على الأساليب الملتوية التي تعمل عليها السلطة العليا في القلعة، وصعوبة الوصول إلى معرفة حقيقتها كاملة داخل هذا الكائن المكاني المتشعب.

أما الزمان فلا يهتم به (كافكا)، لأنه يكتب عن اللحظةالمعيشة فقط دونما الالتفات إلى الماضي، ونادراً ما نجد مسافات بادية مابين الأزمنة المستخدمة مثل (الآن) و(آنذاك) و(سوف). إنه يريد تكثيف جميع اللحظات الزمنية في اللحظة الراهنة لكي يشير إلى ضغط الحياة المتأتي عن طريق هذه اللحظةنفسها دون الرجوع إلى مكوناتها السابقة، ودون استحضار مابعدها لأن إنقاذ اللحظةالراهنة من مطب الإذلال والشيئية هو إنقاذ للمستقبل، وهذا ما أراده (كافكا) بالضبط.

وأرى أن ما أراد (كافكا) قوله في روايته (القلعة) وباختصار شديد هو ذلك الشيء الذي شرحه مطولاً في رسائله لصديقته (ميلينا)، والمتمثل في

مواجهته لوالده الذي لايريد الاعتراف بهويته ككاتب، وهو يود التميز بهذه الهوية أو الصفة في مجتمع سلطوي يقوده الأب منفرداً؛ هذا الأب الذي رسم له خطاً آخر للحياة، ورأى أن على (كافكا) أن يتبعه وإلا واجهته نقمته الشرسة، ولكن هذا التأويل ليس إلا وجهاً أولياً بادياً للنظرة النقدية، لأن ماكس برود (صديقه) قام بشرح هذه المواجهة على النحو التالي: (الابن) هو المجتمع اليهودي المظلوم في أوربا و(الأب) هو المجتمع الأوربي الذي كان، وحسب وجهة نظر (كافكا) و(ماكس برود) كابوساً، وما من حل لهذه المشكلة / الكابوس إلا باعتراف (الأب) بهوية (ابنه) ودوره في الحياة، عفواً، دوره الهام في الحياة. طبعاً بمقدورنا أن نقول إن هذا التفسير يخصّ (ماكس برود) وحده الذي شيّع كثيراً ليهودية (كافكا) وحضورها في جميع كتاباته، وقد وضّح (ماكس برود) ذلك كتاباته الغزيرة عن (كافكا) والتي لم يوقفها سوى موته سنة ١٩٦٨ في تل أبيب، مع ذلك يظلّ هذا التفسير وجيهاً يؤخذ بالاعتبار والحسبان كقرينة ذات دلالة تضاف إلى قرائن أخرى رأت أن (كافكا) كان طموحاً لأن يكون الأديب المعادل في أثره وحضوره لما تركه هرتزل من أثر وحضور في أوربا كلها، وفي الوسط اليهودي الذي كان متمركزاً في النمسا، وفيينا تحديداً، هذه المدينة التي كانت عاصمة العالم الثقافية والفنية خلال خمسين سنة من الحضور والتميّز مابين (١٨٦٠ و١٩١٠). فقد كان (كافكا) يريد حقيقة أن يجد اليهود مكانتهم في العالم، وأن يحددوا موقعهم الجغرافي بوضوح ووفق مرجعيات ظاهرة، وقد رأى في كتابات هرتزل ودوره في إنشاء البيوت اليهودية في (براغ) و(برلين) و(فيينا) البوصلة والحلم فهو يقول لصديقته (ميلينا) في رسالة لها سنة (١٩٢٣) أي قبل وفاته بأشهر فقط (كنت أريد السفر في تشرين الأول إلى فلسطين)، وتاريخ الرسالة هو تشرين الثاني ١٩٢٣؛ كما يقول هرتزل في رسالة مرسلة إليه «لقد وضعت يدك على حلمي»! هذه العبارة تجلو لنا الكثير من غموض كتابات (كافكا) وتؤكد على عدم حياديته التي أراد بعض النقاد العرب أن يثبتوها خلال أكثر من خمسين سنة من تناقل المعرفة والثقافة

والتراشق بالآراء، وفي هذه الرسالة - وهي رسالة قصيرة - يسأل (كافكا) هرتزل: ماهو الوطن، ومن يسكنه الآن، وماهي عقيدة أهله ولغتهم، وكم هو عددهم . . . إلخ.

إذن، كانت فلسطين في بال (كافكا) باعتبارها حلماً لايراوده هو وحده، وإنما يراود الكثير من اليهود ومثقفيهم أمثاله، ومع ذلك عوتب (كافكا) من متابعي كتاباته بأنه لايكتب عن أحلام اليهود في العودة إلى (أرض الميعاد) التي حددها هرتزل بوضوح، وفي معرض إجابته قال إنني آنفر اليهود من هذه الحضارة التي ليست لنا، وأنه لابد من فطام اليهودي على ثدي الأوربي لكي يحقق تجربته القادمة، أي حلمه القادم الذي أشار إليه هرتزل، وهذا دليل آخر نسوقه من أجل التوكيد على أن (كافكا) كان في صلب العمل اليهودي آنذاك ولعل الأحاديث والأخبار والمرويات التي تناقلها أصدقاء (كافكا) أمثال: ماكس برود، وأوسكار بارم، وفيليكس فلتش، وصديقاته: فيليس باور، ويولي فوريتسك، ودرا ديامانت، وميلينا . . إلخ والتي دارت حول قصة (المسخ) القصة الأكمل والأنضج عند (كافكا) والمسببة لكل شهرته تقريباً، تؤكد - هذه الأحاديث - حقيقة أمرين اثنين، الأول: أن تتم مصالحة حقيقية مابين الواقع واليهود، والثاني: أن يذهب اليهود إلى مكان آخر لايصبحون فيه غرباء، والجوهر في هذا الافتراض في الأمرين أن اليهود جميعاً حسموا خياراتهم عليهما معاً، فمنهم من أراد أن يظل في ظلال الحضارة الأوربية سواء اندمجوا في المجتمع أم ظلوا على عيشتهم في الغيتوات، ومنهم من إراد أن يلبي الحاجات والرغبات الدينية والركض خلف الوعود السياسية والمالية والاعتبارية التي وعدوا بها من قبل الزعماء اليهود آنذاك، ولهذا أرى أن قصة (المسخ) هي واحدة من أبرز قصص (كافكا) التي تمثل رأيه في المجتمع الأوربي من جهة، ونظرته الواقعية/ الراهنة والمستقبلية في آن معاً نحو اليهودي من جهة ثانية. فالقصة (المسخ) لاتقف حدودها عند معاناة غريغوار سامسا من اضطهاد أبيه

والأسرة مجتمعة، ويمكن تأويلها بأنها تعني أن على اليهود الذين يمثلهم (غريغور سامسا) أن يوجدوا حضورهم وشخصيتهم المميزة أمام السلطة الأبوية البطريركية للمجتمع الأوربي، والخروج من الجحور التي يعيشون فيها بسبب عدوانية الأوربيين لهم.

لقد كان (كافكا) يخاف (والخوف صفة أولى لأدبه) من أن يكنس هو شخصياً من داخل غرفته الشخصية في بيته الأسري بسبب عدم احترام والده (السلطة الغليا) له، وعدم تقديره لموهبته، (كان حين يصدر له عمل أدبي يقدمه إلى والده، فيرفض الأب أن يلمسه، ويقول له: ضعه على الطاولة الصغيرة المجاورة لسريري. ويقول كافكا بأنه لم يلمح في عيني والده مشاعر الود الأبوية تجاه مايكتبه ولو مرة واحدة، هذا ناهيك عن ميله الشديد إلى شتم هذه الموهبة الأدبية التي تعلق بها ولده، والتي أخذته من عالم التجارة).

وقد ورد في إحدى رسائل (كافكا) توصيفاً لمعنى (الكنس) الذي قصده في قصته (المسخ): يقول: «إذن، تكاد قطعة (المسخ) تكون راية الرفض الأولى للواقع الاجتماعي المعيش من قبل الشخصية اليهودية في المجتمع الأوربي».

ومن يقرأ قصة (كافكا) هذه يقف بوضوح على هذا المعنى من خلال الأسماء اليهودية التي بنى عليها القصة، خصوصاً الاسم، الثاني لبطلها (غريغور سامسا)، فهو بذلك يحدد الهوية اليهودية لهذه الشخصيات المضطهدة والمسحوقة، وتقديمها (وهي في منتهى البراءة والعفة والأخلاق) على أنها مذنبة، والذنب هنا، هو ما نصادفه في كل أعمال (كافكا) يعني شيئاً واحداً هو عدم الاختيار الصحيح للمكان الذي تعيش فيه الشخصيات كما قال ماكس برود، ولهذا أرى أن كتابات (كافكا) كانت أمراً من الأمور المشجعة جداً على الهجرة اليهودية إلى فلسطين (بعدما توضحت معالمها كوطن وكأرض ميعاد في كتب هرتزل، ومنشورات المؤتمرات

اليهودية، وأدبيات البيوت اليهودية التي استقطبت الشبيبة اليهودية ورجال الأعمال بعامة) في أعقاب الحرب العالمية الأولى والثانية، أي الهجرة إلى المكان الصحيح كاختيار وحيد يلبي أغراضاً مختلفة وطموحات متعددة.

إن (المسخ) قصةناجحة بكل ماتعنيه هذه الكلمة، فهي مترابطة في محاكاتها الإبداعية، ومتماسكة في حلقاتها القصصية، وراعية في قولاتها وهواجسها، ومؤسية في خاتمتها، ولهذا كله كان تأثيرها واسع الطيف والنفاذ، على عكس الكثير من أعمال (كافكا) المشغولة بمحاكاة عقلية لا أدبية، فأفكارها أكثر من أدبها، وروحها البحثية أوسع من روحها الأدبية أو الإبداعية، تلك النصوص القابضة بصلادة على الكثير من الغموض والعبثية.

إن سلوك (غريغور سامسا) في (المسخ) له دلالة، والقسوة، والاستسلام، والانتظار، والاستجابة، والعزلة، وحالة التيبس.. كلها لها دلالات لاتحتاج إلى كبير عناء لتفكيك معانيها ومعرفتها، إنها اختزال لواقع معاش يعرفه (كافكا) جيداً، رمز له بالشخصية اليهودية المفردة (غريغور سامسا)لكي يعني الفرد والمجموع معاً. فالاذلال قيمة أساسية في هذه القصة، وتواطؤ الجميع (كسلط متنوعة، مختلفة في رؤاها وحجومها) على إذلاله هو بالضبط ماقصد إليه (كافكا)، والإذلال هنا ليس إذلالاً جسدياً فقط، أي التحول خنفساء أو صرصار، وإنما هو الإذلال النفسي والروحي لـ (غريغور سامسا)، فعلى الرغم من كل التقديمات التي يقوم بها (سامسا) من أجل سعادة الأسرة (المجتمع والسلطة معاً) لايقابل إلا بالإهانات المتكاثرة؛ وهذا التحور الخنفسائي يصير بالتقادم تحولاً حشرياً لاهوية له، وشيئاً مرذولاً غير قابل للعودة إلى التكوين الإنساني الأول.

إن مايؤكد عليه (كافكا) في (المسخ أو التحول) هو هذا المتواري المتمثل في ضرورة الخروج من شرنقة الأسرة ودورتها الحياتية المذلة،

والأسـرة ليست إلا التـعـبـيـر الجـمـعي عن المجتـمـع والسلطة في وقت واحد، ولهذا يرى أحد نقاد الأدب اليهودي، إن كتابات (كافكا) كانت أشبه بضربة الفأس في البحر المتجمد فينا.

- ٦ -

وحـقـيـقـة، لايستطيع المرء أن ينكر الدور الكبير الذي قام به صديق (كافكا) السيـد (ماكس برود) الذي لولا جهوده لضاعت أعمال (كـافكا) المخطوطة كلها والتي أوصى - كما قلت من قبل - أن تحرق لأنها عديمة الفائدة والجدوى في مجتمع أصيب بالبرودة والياس فما عاد ينفعل بطلق البارود.

و(ماكس برود) طوال ثلاثين سنة، ظلّ يروّج لأدب (كافكا) باعتباره أدباً يخص اليهودية واليهود كدين من جهة والصهيونية وأفكارها كمذهب من جهة أخرى، وأن (كافكا) كان لسان حال اليهود الاجتماعي والتاريخي والرؤيوي في أوربا - مركز أوربا آنذاك أعني فيينا - وأن رؤاه كانت متقدمة على رؤى الكثيرين من اليهود الذين دعوا إلى الاندماج اليهودي والذوبان في المجتمع الأوربي، وأولئك اليهود الذين دعوا إلى تنشيط اللغة البديشية المعروفة بتداخل مفرداتها مع الألمانية والروسية في القسم الشرقي من أوربا، أو تنشيط لغة اللادينو المعروفة بتداخل مفرداتها مع اللغة الإسبانية، فقد كان (كافكا) ممن رأوا ضرورة توحيد اللغة التي يقرأ بها العهد القديم، أي الاكتفاء باللغة العبرية وتنشيطها في الأوساط اليهودية دونما إضافات أو لهجات شرقية أو إسبانية.

وعندي، أن الآراء والأفكار التي سيّلها (ماكس برود) حول أدب (كافكا) لم تكن خالية من الأغراض وأعراض الهوى لاسيما وأنه خالف في تفسيراته الكثير من آراء (كافكا) الواردة في رسائله التي كانت تعبر عن روح (كافكا) الداخلية باعتبار الحبيبة نافذة لقول كل ما هو حميم وصافٍ وبعيد عن المحاسبة الصارمة أو مايسمى بـ (تسجيل المواقف)، فهو يقول عن الكثير

من قصصه إنه كتبها تحت إلحاح الواقع المعيش الذي عانى منه في ظل سطوة الأب وأنه لم يقصد شيئاً آخر غير ذلك إلا في بعض القصص التي تحتمل موضوعاتها التأويل المتعددة الوجوه، فقد كان همه الأساسي منصباً على الخلاص من هذه الروح السلطوية التي يمارسها الأب عليه، وحال عدم التقدير والاحترام التي يواجهه بها دائماً، ونكرانه - أي الأب - لكل صداقاته مع الشبان والشابات، ورفضه الظاهر والمبطن لأن يتزوج ابنه ويستقل عنه لأنه يخلق روحاً من الندية للمواجهة في أحسن الظروف أو الانفلات من ربقة التوصيات والتقريع المؤلم في أبخس الظروف وأضعفها.

والمشكلة التي خلقها (ماكس برود) من خلال شروحه وتفسيراته لأدب (كافكا) لم تقف عند هذه الحدود أو تصور الرؤى واستنباط الاجتهادات، وإنما امتدت إلى حد تشكيك أكثر النقاد المعاصرين لحياة (كافكا) وأدبه المنشور انذاك، بأن الكثير من النصوص القصصية نسبت إلى (كافكا) خطأ لأنها كانت من تأليف (ماكس برود) نفسه، ومرد هذا التشكيك عائد إلى اختلاف الأسلوب، واختفاء رائحة (كافكا) وأنفاسه منها، أي اختفاء مميزات أسلوبه مثل الانقطاع، والغموض، واللمح، وعدم الإفاضة في الشرح، والإكتفاء بالتعبير عوضاً عن الوصف. . إلخ وأرى أن هذا الأمر تمّ بسبب أمور عديدة من أبرزها وأوجهها تلقف دور النشر وتلهفها لكل نص أدبي ينسب إلى (كافكا) ذلك لأن حمّى نشر أعماله عبر طبعات (شعبية فاخرة) متعددة راحت تشيع على نحو لم يسبق أن عرفه كاتب من قبل، ولايخفى هنا، بالطبع، دور التمويل اليهودي والصهيوني، بعدما رأى اليهود قناعة بأن ماقدمه (كافكا) للحركة الصهيونيةواليهودية كان مهماً جداً، ومؤثراًجداًفي فئات عمرية حساسة في المجتمع اليهودي داخل أوربا، فقد بُسطت قصة(المسخ)وحولت إلى قصة للأطفال ليقرؤوها ويتعلموا منها أن الحياة بعيداً عن الوطن الموعود وعن الحلم الكبير هي حياة ناقصةضامرة وعجفاء، وأن حياتهم في المجتمع الأوربي ليست إلا محطة زمانية ومكانية؛

محطة انتظار للاقلاع بعدئذ نحو الحلم، وقد خوّف الأطفال اليهود بأن الأوربيين الرافضين لهم سيقومون بكنسهم من مجتمعاتهم وأمكنة سكنهم مثلما كُنس (غريغور سامسا) بعدما تحوّل إلى (خنفساء)، وقد أُفهم الأطفال اليهود أن هذا التحول ليس أقل من شتيمة قاسية جداً وموجعة بحق اليهود في المجتمع الأوربي، كما أن فئة عمرية أخرى هي فئة المسنين أحست أن بطل القصة (غريغور سامسا) يعني أي واحد منهم لأن رفض المجتمع الأوربي لهم كيهود بات رفضاً مزدوجاً بسبب اليهودية والشيخوخة معاً أي (العزلة والبطالة من جهة، والدين من جهة ثانية) وأن الكنس حاصل في النهاية إن لم يجدوا خلاصهم أو مخرجاً لنجاتهم.

والحق، أن المتابع لسيرورة النقد والتأثير معاً لأدب (كافكا) في الخمسينيات والستينيات يلحظ بوضوح شديد أن أدبه هذا خدم اليهود والصهاينة أكثر من الخدمات التي قدمتها الوكالات اليهودية، ذلك لأن قراء (كافكا) كانوا نخبويين، وأن تأويلاتهم لرؤى القصص والروايات الكافكاوية لم تكن تصب إلا في اتجاه واحد هو أن الرجل يكتب حياته وظروفه في أسرته قدر ماكان يكتب حياتهم هم، وسوء الحال التي وصلوا إليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وما أصابهم من مشكلات فادحة بعد الحرب العالمية الثانية، ولذلك صارت كتابات (كافكا) نبوءات سبقت رؤاهم بسنوات عديدة، ولهذا قالوا: لو أننا قرأنا (كافكا) على نحو مبكر وفهمنا مقاصده لكنا بكرنا في عودتنا إلى فلسطين كما بكرنا في إقامة (دولتنا).

من هذه النصوص التي رأى النقاد أنها ليست من كتابات (كافكا) قصة (عرب وبنات آوى) وحجتهم في هذا الأمر متعددة الوجوه والصور، فقد استندوا إلى أنها قصة فاقدة لروح (كافكا) الإبداعية، وإنها محقونة بالايديولوجيا التي كان (كافكا) ينفر منها أو يحسن تغطيتها ضمن النسيج العام للنص، وأن إقحام كلمة (عرب) هنا تأتي كصيغة من صيغ الصراع

العربي - الصهيوني التي تجلت بعد رحيل (كافكا) بعقد من الزمن على أقل تقدير (مع إقرارنا بأن بداية الصراع المهمة كانت مع وعد بلفور)، وأن هذا النص ظهر على نحو متأخر ونسب إلى (كافكا)، وقد عزا (ماكس برود) هذا التأخير إلى أنه كان يحقق ويمحص في النصوص قبل نشرها، وأنه كان يطابق بين النسخ المختلفة لكي يصل إلى أحسنها، وأعتقد أن هذه الحجج ضعيفة وليست صحيحة لأن النقاد أحصوا آلاف الأغلاط التي اقترفها (ماكس برود) بحق كتابات (كافكا) التي نشرها بعد وفاته، وأنه محا وأضاف، وألّف، واختلق كتابات كثيرة باعتباره الصديق الذي استودعه (كافكا) مخطوطاته، عدا الرسائل التي كانت موجهة إلى صديقاته، ولا ينسى المرء بالطبع أن يذكر بأن (ماكس برود) كان كاتب قصة ورواية، لكن شهرته في عالم الأدب اليوم، بل ومن قبل أيضاً، لم تكن بسبب ماكتبه هو وإنما بسبب نشره لأعمال (كافكا) وتحقيقها أو قل تحريرها، فهل أضاف (ماكس برود) ماكان قد ألفه ولم ينشره إلى تأليفات (كافكا)؟! ربما!!.

الحق، أن (ماكس برود) كان معروفاً في الوسط اليهودي بأنه واحد من المتحمسين للأفكار الصهيونية، ولهذا شارك في المؤتمرات الصهيونية التي كانت تعقد في البلاد الأوربية خصوصاً (النمسا وألمانيا)، وأنه عمل في البيوت الشعبية اليهودية، فألقى العديد من المحاضرات التي ركزت على شرح الحال المأساوية التي يعيشها اليهود في أوربا، وركز على أمرين أساسيين هما: الأول، دور اليهود في تنمية الاقتصاد الأوربي وتطويره، ودور المال اليهودي في إنقاذ الكثير من البلدان الأوربية من كوارث الإفلاس والإنكشاف المالي، والثاني: الحال الاجتماعية السيئة التي يعيشها اليهود في أوربا باعتبارهم بشراً منبوذين من قبل الأوربيين أنفسهم، مع معرفة هؤلاء أن اليهود يقدمون خدمات كبيرة مهمة جداً للحكومات الأوربية لكي تبقى لها مصداقية عند الشرائح الاجتماعية.

إن تفعيل هذا التناقض مابين ثنائية العطاء والاحتقار، والتميز

والتهميش، هو الأمر المركزي الحاضر في جل المحاضرات التي ألقاها(ماكس برود) في البيوت الشعبيةاليهودية التي شاعت في (فيينا) و(برلين) و(براغ)، ولكن هذا لايعني أن (ماكس برود) لم يكتب القصة القصيرة أو المقالات والزوايا الصحفية، ذلك لأن (ماكس برود)نشر العديد من القصص في الفترة التي كان (كافكا) ينشر فيها قصصه أيضاً.

- ٧ -

إنني على يقين، بأن همي كان منصباً ولايزال على جوانيات النص الأدبي الذي كتبه كافكا من أجل الوقوف على رؤاه التي حيّرت قراءه. وقد توصلت إلى العديد من التأويلات والمعاني المستخلصة من توجهات النصوص ورؤاها من أجل عدم تكرار المقولات السابقة التي تناولت كافكا وأدبه من جهتين أساسيتين: المدح العنيف، و القدح الأعنف، وذلك انطلاقاً من وهم بادٍ فحواه: إن كافكا كاتب كبير جداً ولهذا فمدحه واجب، أو أن كافكا يهودي ولهذا فإن قدحه واجب.

إن الإشكالية الأساسية التي واجهت قراء العربية في استقبال أدب كافكا والتجاوب معه كانت قرينة لسيرورة حياة كافكا ويهوديته في آن معاً، ولهذا فإن الحذر لازم تلك القراءة تخوّفاً من وجود أفخاخ أو ألغام غايتها التكريز للصهيونية لاسيما وأن حياة كافكا رافقت الارتقاء الجوهري للصهيونية آنذاك، والمرحلة الزمنية لانتشار البيوت اليهودية، التي كرّست نفسها من أجل الترويج للأفكار الصهيونية تحت ستارة عنوان عريض لتلك البيوت فحواه «نشر التعاليم التربوية لأبناء الطائفة اليهودية» في النمسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، ثم إن علاقات كافكا وصداقاته كانت محصورة بالشبان (ذكوراً وإناثاً) الذين كانوا من الناشطين في المؤتمرات الصهيونية، والبيوت اليهودية، ولهذا حرصت أن أقدم رأيي من داخل النصوص المكتوبة بقلم كافكا، وسأخصص هذا الحيز لقراءة في رسائل كافكا الموجهة إلى الصديقة العزيزة على قلبه وأعني (فيليس باور) التي تعرَّفت إليه سنة

(١٩١٢) في منزل الصديق الحميم لهما معاً أعني (ماكس برود)، وقد استمرت الرسائل المتبادلة مابين كافكا وفيليس باور حوالي أربع سنوات من عام (١٩١٢) وحتى (١٩١٦)، واشتملت هذه الرسائل على خلاصة فكر كافكا حول العديد من القضايا والأمور الحساسة جداً التي لم تظهر في نصوصه الأدبية إلا على نحو غامض أو ملتبس في أكثر الأحيان.

في الرسائل الأولى والمبكرة التي كتبها كافكا إلى (باور) حثها طويلاً وبإلحاح من أجل العمل في البيت اليهودي، وخدمة الشبان اليهود، والانتقال بثقافتهم من مستوى آخر أكثر شداً نحو الصهيونية وتوجهاتها، أي بعيداً عن التلقينات الأولى للديانة اليهودية. ويعترف كافكا صراحة في إحدى رسائله الموجهة إلى (باور) بأنه شارك في أعمال المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الذين انعقد في ڤينا في ٦/ أيلول ١٩١٣، فيقول:

«ذهبت إلى المؤتمر الصهيوني هذا الصباح (تاريخ الرسالة ٩/ أيلول ١٩١٣) لم يكن لدي احتكاك حقيقي مباشر. شعرت بالمؤتمر في بعض النواحي، ووقفت أيضاً على المعنى الشامل لما دار فيه، ولكن ليس على نحو جوهري بعد».

هذا الرأي الصريح والواضح للأسف لم ينتبه إليه نقادنا العرب، أو أولئك الذين قرّضوا كتاباته كمراجعين في الصحف والمجلات الدورية، وقد حاولوا طوال سنوات عديدة اقناع الآخرين بأن كافكا لاعلاقة له بالصهيونية، وأنه يكره الصهيونية، وأنه ضد التوجهات الصهيونية.. إلخ. إن حضور كافكا للمؤتمرات الصهيونية التي كانت تعقد في أوربا (خصوصاً في (ألمانيا، والنمسا) يؤكد بجلاء على أن لـ كافكا رأياً بما تطرحه في أثناء اجتماعاتها، وأنه كان على علاقة وشيجة بما تطرحه تلك المؤتمرات دورياً من أدبيات وأفكار ورؤى وتوجهات.

ويؤكد كافكا في رسالة تالية رأيه بالمشروع الصهيوني حين يقول لـ(باور):

-«مايوقع «الحزن في نفسي هو أنك تنغمسين بازدياد في عملك، فهل تقومين بالعمل بشكل جيد لصالح ليند ستروم (ماذا كانت النتيجة النزاع حول الأجر) ، ، وفي ضوء كل هذا فبكل تأكيد لن يكون لديك وقت كثير من أجل (بيت الشعب اليهودي) وأنا شره ، وواثق من نفسي لسماع أخبار عن مشاركتك، وما يهمني (وهو أمر يهمك) ليس الصهيونية كشيء في حد ذاته، وإنما إلى ماذا يمكن أن تقودنا»!

يشتم من هذا الرأي أن لـ كافكا ملاحظات على الصهيونية ونهجها ، ولكنه مترقب إلى ما ستقود إليه من نتائج وأفكار، حريص هو على متابعتها ومعرفتها .

أما تشجيع كافكا لـ (باور) للعمل في البيت اليهودي، وتحمل بعض المتاعب التي تواجهها، فيبدو من خلال رده على رسالتها إذ يقول :

« أنت لست بحاجة إلى وخز الضمير بشأن البيت اليهودي، وكذلك الصهيونية التي لم تألفيها بصورة فعّالة . إن قوى أخرى في البيت اليهودي هي شديدة القرب إلى قلبي، وهي نشيطة ولها تأثيرها، وهي منطلقة في حركتها .

إن الصهيونية سهلة المنال لمعظم يهود اليوم، وهي على الأقل في فروعها الخارجية المتطرفة الآراء مجرد مدخل إلى شيء ما بعيد وشديد الأهمية»!

ولا يقف كافكا عند حدود حث (باور) على العمل في بيت الشعب اليهودي وتحمل بعض العثرات والمنغصات، وإنما يدعوها إلى استقطاب آخرين وأخريات من الشبان اليهود للانخراط في هذا المشروع الذي كانت تشرق عليه الصهيونية . فها هوذا يخاطبها في رسالة موجهة إليها بتاريخ ٩ آب ١٩١٦ .

-« إن كتابتي ليست كتابة اقتصادية، ولا هي كتابة متطرفة . أفضل

تحياتي إلى غريت بلوخ، ماهو تفكيرها الفعلي نحو بيت الشعب اليهودي»! ، يضيف كافكا قائلاً .

-« أنا مسرور جداً أنك أخيراً على اتصال حقيقي مع بيت الشعب اليهودي، أين تتحدثين مع السيدة (يقصد غريت بلوخ)؟!»!

وفي رسالة أخرى تاريخها ١١ أيلول ١٩١٦ ، يوضح كافكا رأيه حول الصهيونية بوضوح كامل، ويقول بمنتهى الصراحة أن ثمة عقبات ستواجه الصهيونية، في أوروبا وغير أوروبا، وأنه يفكر حقيقة بالوطن الذي يتوحّد و(باور) كفاية مشتركة، وأن ثمة أسسا عميقة للصهونية لن تظل طيّ السبات طويلاً . يقول كافكا .

-« إن كتابة الرسائل إليك تغمرني بسرور أستطيع أن أعبر عنه بعدة صفحات . إنكما أخيراً معاً، أنت والوطن . وهذا الأمر بالتأكيد أعظم شيء من ناحية الأهمية . وكل شيء بعدئذ سيغدو جيداً . وأود أن أسمع رأيك حول محاضرة الدكتور ليهمان (صاحب بيت الشعب اليهودي في فينا والمشرف عليه)، مع أنني لا أفهم التناقض لديك، وأنك لم تكوني مندهشة كثيراً لما سمعت ، وافترض أن هذا كان يعني ازدراءً، وأنك ماتزالين مندهشة من جراء الأفكار التي عبرت عنها المحاضرة . وأرى أنك، مادامت المحاضرة محل اهتمامك، تبدين محظوظة خاصة وأنها تتحدث عن مشكلة أساسية هي في رأيي لا يمكن أن تظلّ طيّ السبات، وأنها ستستمر في البروز بين حين وآخر لإثارة الازعاج أمام الأسس العميقة للصهيونية»!

أما المشكلة الأساسية التي ستزعج أسس الصهيونية العميقة فهي تتعلق بمناداة بعض الصهاينة آنذاك أن يندمجوا في المجتمع الأوربي، وأن يعيشوا في ظل ظروف أحسن من ظروف الغيتو، وأن يعدلوا من النظرة الأوروبية الدونية لهم، وأن المناداة بوطن، وتجميع اليهود من سائر البلدان الأوروبية أمران لهما مخاطرهما ومشاكلهما الأساسية .

أما الرسالة التي جاءت بعد خمسة أيام من الرسالة السابقة، ففيها يثني كافكا على عمل (باور) في بيت الشعب اليهودي، ويحمسها على ضرورة التواصل مع الفتيات، ومواجهة أسئلتهن بالوضوح والجرأة اللازمين، ويوضح صراحة بأنه هو من يكتب لأبناء شعبه، وأنها هي من نذرت حياتها له، يقول:

-« مرة ثانية، أودّ أن أقول كلمات قليلة، ولكن كلمات صريحة، إنها حول بيت الشعب اليهودي الذي قرّب بيننا هكذا. لا تكوني خائفة من أسئلة الفتيات، وعلى الأغلب لا أريدك أن تخافي منهن، واعتبري هذا الخوف كأعظم إفادة من عمل المركز الرئيسي. بالفعل أنت تخافين من أن تكوني موضع الأسئلة، وربما الأسئلة التي لا تطرح، وربما تجدين في ذلك إحباطاً، ولكن تذكري أن تلك الأسئلة هي من حق الشعب الذي كتبتُ له، والذي كرست أنت له حياتك من أجله. على كلٍّ فذلك منوط بك في أن تكسبي ثقتهن في ميادين ثانية غير القضايا الدينية، وبداهة أن المشاركة في التجربة الدينية مطلوبة»!

أظن أن هذه الرسالة من أهم الرسائل التي كتبها كافكا إلى صديقته فيليس باور لأنه يتحدث فيها للمرة الأولى عن فلسطين باعتبارها وطناً يتوحد والحبيبة، كان من قبل خلال سنوات تعارفه إلى باور في رحلة حلم بها كثيراً، وأن هذا الحلم غدا أكثر أهمية لأنه سيكتشفه بحضور الحبيبة!! قبل سنوات أي في أعوام (١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٤، ١٩١٥) كان كافكا يتحدث عن فلسطين باعتبارها حلماً، أما في هذه الرسالة وهي مؤرخة في (١٦ أيلول ١٩١٦) فهو يتحدث عن فلسطين باعتبارها وطناً، أي أنه سبق وعد بلفور بسنتين كاملتين لأن الأمر كان مشخّصاً تماماً في الأدبيات الصهيونية المتداولة في المؤتمرات الصهيونية. الأمر الثاني أن كافكا يعترف صراحة بأنه يكتب للشعب اليهودي، مثلما نذرت (باور) حياتها لخدمة أبناء هذا الشعب، والأمر الثالث الذي يؤكد كافكا عليه هو أن الواجب الوطني

يدعو الوعي اليهودي إلى أن يرتقي إلى ماهو أبعد من التعاليم اليهودية دون المساس بالمعتقد الديني أو التقليل من أهميته ودوره، ولهذا فهو يدعو (باور) أن لا تقف عند الحدود الدينية في تفسيراتها وحواراتها مع الطالبات في بيت الشعب اليهودي، وأن تمدّ نظرها إلى الأحوال الاجتماعية أولاً، وضرورة الوصول إلى الأفكار الجديدة التي تنادي بها الصهيونية ثانياً.

وتجلو الرسالة التالية حقيقية اهتمام كافكا بالبيت اليهودي ودوره في حياة اليهود، وذلك من خلال الانتباه إلى دقة الأسئلة التي يطرح، وعددها، وتفصيلاتها، إنه يقول سائلاً (باور).

-«كم أمسية، خلال الاسبوع، تقضينها الآن فعلياً في بيت الشعب اليهودي؟! وكم ساعة؟! وكم يبعد البيت، وكيف تصلين إليه؟ ماهي محاضرة الدكتور ليهمان حول التربية الدينية، وبم اهتمت أساساً؟ أنت تقولين إن الفتيات يخترن المساعدين، كيف يتمّ الاختيار؟ وبعد كل شيء، كيف تمّ اختيارك؟! أو أنك عُينت مصادفة؟! ولماذا مريام لم تكلف بعمل؟ هل تعرفينها شخصياً؟ وماذا حدث للسيدة الثانية التي قدمت طلباً للعمل؟! أظن أنها تدعى روتشتاين. أنتم تتوزعون العمل بينكم، فبأية طريقة يتم ذلك؟! أصدقاؤك، أخواتك، وأمك.. ماهو موقفهم إزاء بيت الشعب اليهودي»؟!.

بالطبع كافكا يريد أن يعرف كل شيء عن صديقته (باور) التي يريد الارتباط بها، لكنه يريد أن يعرف الكثير عن بيت الشعب اليهودي أيضاً، وسائر النشاطات الصهيونية التي كانت تعمل في ڤيينا عاصمة الثقافة الأوروبية آنذاك، ذلك لأن كافكا نفسه كان يخبر (باور) بنشاطاته الموازية، فها هو يقول لها في رسالة مؤرخة في ٥ تشرين الأول ١٩١٦.

-«الليلة الماضية ذهبت لرؤية الدكتور بيرغمان الذي يقضي عطلة هنا (يقصد براغ) وقد كان معي في المدرسة. أنا أحبه وأحب أن أراه مرة ثانية، بالمناسبة هل تعرفين هذا الاسم؟ إنه يلعب دوراً هاماً في الحركة الصهيونية،

اذكري الاسم جيداً هوغوبيرغمان»! ويشرح لها كافكا ماحدث في تلك الليلة حيث استمع لأفكار بيرغمان (برأس يأكله الصداع) وانه ضبط نفسه وكأنه (إنسان مدان)، ولكن بعد أن امتدّ النقاش، وتوضحت الأفكار والغايات (أحسستُ بتحسن)، هكذا يقول ل(باور). وبالمناسبة فإن هوغوبيرغمان المولود سنة ١٨٨٣ هو أحد الفلاسفة الصهاينة الذين تبنوا المشروع الصهيوني، وقد كان رئيس المكتبة الوطنية العبرية في القدس، كما عمل استاذاً في الجامعة العبرية.

وسنلحظ في الرسائل التالية المتبادلة مابين (كافكا) و (باور) أن كافكا كان يطالبها بكتابة تقارير مفصلة عن النقاشات التي كانت تدور في بيت الشعب اليهودي لدى الفتيات ولدى الذكور الشبان، وأن (باور) كانت ترسل إليه تلك التقارير المفصلة اسبوعياً، ففي رسالة مؤرخة في ٧ تشرين الأول ١٩١٦ يقول كافكا.

-«لاشيء اليوم. أفضل من كل شيء تقريرك عن اللقاء الأول في بيت الشعب اليهودي. لاشك أن العمل الجدي سيأخذ مداه، ومن الصعوبة الحكم عليه بسرعة»!

وفي رسالة تعقبها باسبوع واحد فقط، وتاريخها ١٤ تشرين الأول ١٩١٦، يقول كافكا أيضاً.

-« وصلت البطاقة البريدية والتقرير اليوم. ياإلهي لشدما لهذه الصفحات من أهمية فائقة على الصعيد الشخصي بالنسبة إليّ. ويجب عليّ أن أقول إنها لم تكن مهمّة سهلة بالنسبة إليك. وحالما ألقيت على الصفحات نظرة سريعة أدركت أهميتها الثقافية الشديدة. واعتبرتها مهمة جداً، وعقلانية جداً.

عندما نناقش مجموعات الشبان اليافعين يصبح الأمر، إلى حد ما، خيالياً ولو في الحدود الدنيا، فالصهيونية والحماسة الكاسحة ليستا كافيتين

حتى الآن . على أية حال . فإن كل هذا يحضّ المرء على عدم التوقف عن العمل، وأن الزمن سوف يمحو العقبات»!!

وبعد، إن هذه ليست إلا مطالعة سريعة لبعض الرسائل التي كان كافكا قد وجهها إلى واحدة من صديقاته العديدات هي (فيليس باور) التي خطبها مرتين لكنه لم يتزوجها ، وقد تزوجت غيره بعد ما تنقلت مع زوجها بين البلاد الأوروبية من (براغ) إلى (فيينا) إلى سويسرا ثم استقرارها النهائي في الولايات المتحدة الامريكية إلى حين وفاتها سنة ١٩٦٠، وكانت قد باعت رسائل كافكا هذه بمبالغ كبيرة، وهي رسائل تشير بوضوح إلى اهتمام كافكا بالصهيونية، واطلاعه على أدبياتها، وحضوره مؤتمراتها، وحثّه الآخرين (كباور، وبلوخ، ومريام.. الخ) للعمل في المنظمات الصهيونية التي كانت شديدة النشاط في ألمانيا، والنمسا، وتشيكوسلوفاكيا تحت ستار الدين والأفكار التربوية اليهودية. سقت بعض مقاطعها، وأفكارها للتوكيد بأن الرجل كان فاعلاً في عمله اليهودي والصهيوني من أجل الوطن الحلم، وأنه لم يقتنع بأفكار أبيه (هرمان كافكا) الداعية إلى التعايش والاندماج اليهودي في المجتمع الأوروبي كي لا تتضرر تجارته، وعدّ أفكار أبيه أفكاراً قديمة لها علاقة بالحدود الأولى من التعاليم الدينية، وهذه الرسائل مبذولة اليوم للقراءة، وهي موجودة في المكتبات، لذلك أرجو من نقادنا العرب المتحمسين لفكرة (أن كافكا لم يكن صهيونياً، وأنه عدو لها، أن يقرأوا هذه الرسائل ليصلواهم بأنفسهم للنتائج المنطقية التي تعبر عنها الأفكار الكثيرة المحشوة فيها.

* * *

آفـــاق المعرفــة

نافذة على الوطن العربي

عبد الرحمن الحلبي

أفكار علميّة

الحمّى الروماتيزميّة والقلب

قد لا يعرف كثير منّا أن التهاب البلعوم أو اللوزتين، إذا لم يعالج معالجة فعالة، يمكن أن يؤدي إلى إصابة القلب بمتاعب كثيرة؛ ذلك أن الحمى الروماتيزمية ماهي إلا ارتكاس مناعي يمكن أن يتلو التهاب البلعوم أو اللوزتين بنوع من البكتريا يدعى المكوّرات السبحية «العقدية» Streptococci، وتصيب الحمّى الروماتيزميّة المفاصل بالالتهاب، كما تصيب عضلة القلب أو أجزاءه الأخرى.

وإذا لم تعالج معالجة فعّالة، فقد يتلو ذلك- بعد سنين- إصابة صمامات القلب بالتليّف ولتسمّك، وما يعقبه من تضيُّق في صمّامات القلب أو تسرّب فيها، حسبما رأى الباحثان العربيان الطبيبان منصور محمد النزهة وحسان شمسي باشا. (١)

والحمّى الروماتيزمية تصيب الأطفال عادة ما بين خمس سنوات إلى خمس عشرة سنة. كما أن البالغين معرضون للإصابة بالحمى الروماتيزمية ولكن بنسبة أقل من الأطفال.

وفي الواقع فإن الحمى الروماتيزمية ما تزال تمثل مشكلة طبية كبيرة في الوطن العربي، لاسيما المجتمعات الفقيرة، ذات التغذية السيئة والأمكنة السكنية المكتظة وغير الصحيّة. مع أن هذه الحمى كادت تختفي في كل من أمريكا وأوربا.

ثم إن أمراض القلب الروماتيزميّة ما تزال أكثر أمراض القلب المكتسبة- عند الأطفال والبالغين- شيوعاً في الوطن العربي، وتعتبر سبباً رئيساً من أسباب الوفيات، والمضاعفات القلبية عند الأطفال في المملكة العربية السعودية.

ويرى الباحثان أن أعراض الحمى الروماتيزمية تبدأ عادة بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع من التهاب البلعوم أو اللوزتين، وقد تحدث بعد أسبوع واحد. وتسبب ارتفاعاً في الحرارة وآلاماً والتهاباً وانتفاخاً في عدد من المفاصل، وتبدو المفاصل المصابة حمراء منتفخة، ساخنة ومؤلمة عند الحركة. ويبدو المريض متعرقاً وشاحباً. وعادة ما تختفي علامات الالتهاب في المفاصل بعد ٢٤- ٤٨ ساعة. ولكن إذا لم تعالج الحالة فإن مفاصل أخرى تصاب بالالتهاب. وأكثر المفاصل إصابة هي مفاصل الرسغين والمرفقين والركبتين والكاحلين، ونادراً ما تصاب مفاصل اليدين أو القدمين.

إذا كانت هجمة هذه الحمّى خفيفة فقد لا تبدو أي أعراض خاصة تشير إلى إصابة عضلة القلب. ولهذا فقدتمرّ الحالة دون تشخيص؛ أما إذا

كانت شديدة فتكون الأعراض أكثر وضوحاً، وقد يشكو المريض، حينئذ، من ضيق النفس عند القيام بالجهد، أو حينما يكون مستلقياً في السرير. كما قد تحدث وزمة (انتفاخ) في الساقين. وإذا لم تعالج نوبات هذه الحمى، أو تكرر حدوثها، فإن خطر الإصابة في صمامات القلب يزداد، حيث يحدث تليّف وتسمّك فيها، مما يؤدي إلى حدوث تضيّق أو تسرّب فيها. ولكنّ السؤال المطروح هو: كيف نعالج الحمّى الروماتيزميّة؟.

تعالج هذه الحمى، كما رأى الباحثان، بالراحة التامة بالفراش إلى أن تختفي الحمى تماماً، وتعود عدد ضربات القلب إلى الوضع الطبيعي وكذلك التخطيط وفحوص الدم. ولكن هل يمكن منع حدوث الحمى الروماتيزمية؟!

يجيب الباحثان: نعم إذا ما عولج التهاب اللوزتين أو البلعوم الناجم عن جرثوم العقديات معالجة صحيحة، هذا ما يسمى بـ «الوقاية الأولية» Primary Prevention كما يمكن وقف تطوّر الإصابة القلبية باستعمال البنسلين طويل المفعول، عضلياً، وبشكل متواصل، لمنع حدوث أية هجمات من الحمى الروماتيزمية، وهذا ما يسمى بـ «الوقاية الثانوية» Secondary Prevention.

ينجم تضيق الصّمّام التاجي عادة عن إصابة الصمام بهجمة من الحمّى الروماتيزمية. ونتيجة لهذا التضيق يتوسّع الأذين الأيسر الذي يقع خلف الصمام التاجي وقد تحدث وذمة في الرئة (تجمع سوائل في الرئتين) نتيجة ارتفاع الضغط في الأذين الأيسر من القلب.

والتضيق التاجي، كما يخبرنا الباحثان، أكثر حدوثاً عند النساء، حيث تبلغ نسبة الإصابة به عندهن أربعة أضعاف بالقياس إلى إصابة الرجال به.

تحدث أعراض هذا المرض، في البلاد العربية، مع الأسف، في سن مبكرة جدا. فكثيراً ما يبدو ذلك في العقد الثاني أو الثالث من العمر، وذلك بسبب تعدد الإصابة بالحمى الروماتيزمية في هذه البلاد.

أول الأعراض التي تشير إلى التضيق التاجي هي، عادة، حدوث ضيق في التنفس عند الجهد، ما يلبث أن يزداد بازدياد التضيّق في الصمام

فيحدث عند القيام بجهد أقل. وفي النهاية قد يحدث ضيق النفس أثناء الراحة. كما قد يشكو المريض من الخفقان، وقد يحدث ما يسمّى بالرجفان الأذيني (وفيه يدق القلب ضربات سريعة وغير منتظمة).

ويتم تشخيص المرض بالقصة المرضية، وبالفحص والتخطيط والتصوير؛ أما العلاج؛ فقد تعطى المدرات البولية والديجوكسين عند حدوث الأعراض. وإذا استمرت الأعراض فينبغي التفكير بضرورة توسيع الصمام بالبالون أو إجراء عملية جراحية يوسع فيها الصمام، أو قد يحتاج الأمر إلى تبديل الصمام ووضع صمام صناعي.

قصور الصمام التاجي (الميترالي)

يطلق عليه، بالعامية، اصطلاح «تهريب» أو «تسريب» في الصمام التاجي. ومن المعروف أن الدم يسيل في الحالة الطبيعية باتجاه واحد من الأذين الأيسر إلى البطين الأيسر فالأبهر. ولكن عندما يحدث قصور في هذا الصمام فإن بعض الدم الذي وصل إلى البطين الأيسر يعود ثانية إلى الأذين الأيسر. أي أن الصمام الذي ينبغي أن يكون محكم الإغلاق يسمح برجوع الدم نتيجة عدم إغلاقه بشكل محكم.

وبسبب عودة الدم إلى الأذين الأيسر، أثناء انقباض القلب، فإن على القلب أن يعمل بجهد أكبر حتى يتخلّص من هذا الدم الراجع. وفي النهاية قد يحصل ما يسمّى بفشل القلب (هبوط القلب).

وأكثر أسباب قصور الصمام التاجي شيوعاً، كما يرى الباحثان، هي الحمى الروماتيزمية و«تدلي الصمام التاجي» وجلطة القلب، وتوسع الصمام بسبب تضخم البطين الأيسر.. وغيرها.

أما الأعراض التي يشكو منها المريض، فمن أهمها: ضيق النَفَس، والإعياء وقد يحدث الخفقان، ومن مضاعفات هذا المرض حدوث التهاب الغشاء الداخلي للقلب (شغاف القلب).

أما فيما يتعلق بـ «قصور الصمّام الأبهري» فقد لا يؤدي إلى أي أعراض، حيث يكتشف الطبيب الحالة غداة بحثه في جسم المريض على

مرض آخر، فيسمع لغطاً في القلب، وقد تبدي صورة الصدر الشعاعية تضخماً في القلب، وازدياداً في عرض الشريان الأبهري.

أما تخطيط القلب الكهربائي فقد يبدي علامات تضخم في البطين الأيسر. ويُظهر تصوير القلب بالأشعة فوق الصوتية «الإيكو» والدوبلر، وجود تسرب في الصمام الأبهري «الأورطي» [الذي يمرّ الدم من خلاله إلى أنحاء الجسم كافة. وحدوث تضيق في هذا الصمام يعيق جريان الدم عبره مما يجعل القلب يعمل بصورة أشد، مما قد يؤدي إلى حدوث تضخم في عضلة القلب]، وحركة الصمام، وسماكة البطين الأيسر وحجمه.

يلجأ الطب أحياناً إلى إجراء القثطرة القلبية بغية تحديد شدة القصور في الصمام، حيث تحقن مادة ظليلة في القلب عن طريق الشريان الفخذي، عادة وتؤخذ الصورة الشعاعية اللازمة للقلب.

فإذا اشتكى المريض من أعراض فشل «هبوط القلب» فإنه يعطى المدرات البولية، و«مثبطات أيس» والديجوكسين.

وإذا ما كان قصور الصمام شديداً فإن الطبيب ينصح بوجوب إجراء عملية لتبديله، وهي من العمليات التي باتت ممكنة جداً في العصر الراهن.

* * *

فنــون

الملابس الشعبية في الذاكرة الليبية

نقَلَت صفحات الماضي إلى صفحات الراهن جوانب تراثية هامة، منها ما عبّر عنها الواقع المتزامن مع كل مرحلة على حدة، فظلّ أكثره متَوارثاً ومُتَناقَلاً عبر الأجيال، من أهازيج وأزجال وأمثال شعبية وتعابير وألغاز وحكايات وألعاب ورقصات ورياضات وحرف ومقتنيات وملابس، وسواها؛ حيث نجد في هذه الجوانب ما كانت تظهره إبداعات الأجداد من تذوق فني وعملي وجمالي.

واسترشاداً بهذه الحقيقة انطلق الباحث العربي الليبي سالم شلابي في بحثه الموسوم بـ «ألبسة على مشجب التراث»[٢] لتوصيف أهم الصناعات والحرف المشتملة على المنسوجات من الألبسة الوطنية لكل من الذكور والإناث، الذي يُرى بعضه الآن، ويستقر بعضه الآخر في الذاكرة العربية الليبية، واستكمالاً للفائدة تطرّق الباحث، فضلاً عن الملابس، إلى الأغطية والمفروشات والحشايا والستور والمعلّقات والمقاعد والأرائك، وسواها. ونحن بدورنا سنتوقف، في هذه النافذة، مع الملابس الشعبية النسائية لنتبيّن معطياتها الفنية في الموروث الشعبي الليبي، وهي مشمولة بلفظ «البتّات» الذي يُرصد للعروس من «ملبوس ومفروش» في إطار شرط زواجها، إرضاء لها ولأسرتها.

و«البتـات»، بسكون البـاء، هو «البت» الذي يرد في تعـريف «المخصص» لابن سيدة على أنه «ثوب من الصوف غليظ يشبه الطيلسان». بيد أن هذا التعريف ينطبق على اللّحاف أو الملحفة الذي فوق سائر الثياب، وهو ماتستر به المرأة؛ خاصة كامل جسدها أثناء خروجها من البيت.

ينقل الباحث عن كتاب «عشرة أعوام في طرابلس 1783-1793» ما وصفته الآنسة توللي- صاحبة الكتاب- من حيث أن المرأة هاتيك الأيام كانت ترتدي ملابس فاخرة وجميلة، كان قميصها موشّى بالذهب عند الرقبة، فوقه صدرية (تسمى محلياً الفرمْلة) من الذهب والفضة، أو سترة بدون أكمام، وفوق ذلك صدرية أخرى من القطيفة الأرجوانية، مطرّزة بالذهب تطريزاً فخماً، وبالمرجان وأزرار اللؤلؤ الموضوعة قرب بعضها. . له أكمام قصيرة تكشف عن قميص (يسمى محلياً القمَجَّة) واسع فضفاض من الحرير الرقيق الشفاف الموشى بالذهب والفضة والشرائط. أما الجرد الذي كانت ترتديه فوق ملابسها فكان من الحرائر الشفافة القرمزية الفاخرة بين الشرائط الحريرية(. . .) وكان الفستان الذي لبسته اللالاه خدوجة يتألف من قميص مصنوع، وفقاً لموضة البلاد، من الحرير الشفاف اللماع والذهب.

كانت ترتدي صُدْرتين، الصُّدْرة التحتانية من القطيفة القرمزية والشرائط الذهبية، والصدرة الفوقانية من الحرير الموشى بالأخضر، والمطرز بالفضة، وكان طول وعرض جردها بضع ياردات، مصنوع كله من الشرائط البنفسجيّة اللون المطرزة، عرض على شريط منها حوالي ثماني بوصات، وبين كلّ شريط وآخر تطريز ذهبي، ثم شريط ذهبي لماع يصل حتى وسط الجرد، من نهاية واحدة إلى نهاية أخرى، فيترك أثراً مدهشاً وغريباً حين ينثني حول جسمها، أما نهاية الجرد فمطرزتان بالذهب والفضة، بعرض نصف ياردة تقريباً. ثم كانت ترتدي سروالاً من الحرير الأصفر الفاتح له شريط ذهبي عريض أيضاً حول الجانب من الرسغ حتى الخصر، مع حاشية فخمة من الذهب حول القسم الأسفل.

هذا النموذج من الملابس يسمّى، محلياً في ليبيا، كسْوَةُ الصُدْرَة وهي البدلة الكبيرة، المؤلفة من مجموعة مختلفة من الملابس الخاصة بحفلات الزواج والأعراس، بما تشمله من منسوجات، مثل: (حُولي الصُدْرة، القمَجّة، السروال، الفرملة، التستمالة)، تلبسها المرأة في المدينة بكامل ما تملك من (بْتات) وزينة وحلي، تتجانس فيها مع أوجه بنائها الجمالي بأجمل الصور المدهشة، التي تعبّر عنها الصفوف المتراصّة من (الصِّدّارات)، في صورة متكاملة ترسمها أيدي النساجين المهرة.

وإذا كانت هذه مواصفات اللباس النسوي في ليبيا في القرن الثامن عشر حسب الآنسة موللي، فإن كاتبة أخرى هي السيدة (مايل لومي تود) تقدم لنا تأملاتها عن طرابلس، وعن أزياء نسائها بخاصة، مع بداية القرن العشرين/ تحديداً 1905/ فتجعل الباحث ينقل عنها قولها:

جلَسَتْ في صف على الأطراف أربعون أو خمسون امرأة «شابات جذابات في مظهرهن» ولكنهن مطليات بالمسحوق حتى البياض الشاحب مع مثلثات قرمزية ناصعة مرسومة على كل خدٍّ من خدودهن، وكانت حواجبهن مخططة بالأسْوَد تخطيطاً ثقيلاً، وهي تلتقي فوق الأنف وتمتد عبر

الأصداغ إلى الشعر (. . .) وظهرت في نماذج- تعني سراويل- قصيرة، وأخرى طويلة، ثم قمصان، أي قمجة، وستر بلا أكمام، أي فرملة، محلياً، من الحرير والمخمل، كلّها مطرزة تطريزاً كثيفاً بالذهب والفضة، أرت كلّ لون يمكن تصورّه: قرمزي، وردي، أزرق، كريمات، أصفر، أخضر، حشيش؛ حتى ذابت الموشيات والحرائر، والسلاسل والأساور في كل مشهد واحد ذي قوة غير عادية.

يرى الباحث أن هذه الأنماط والسمات لم تتغير كثيراً رغم انقضاء مدة زمنية طويلة على توصيفها، وهذا يدل على أن الزي المتوارث لم يتبدلّ في شكله أو استعمالاته مما يؤكد أن اليد التي وضعت عليه بصماتها الفنية الرائعة منذ مئات السنين تُنوقلت إلى اليد الفنية الراهنة التي تابعت إبداع «كسْوة الصُدْرة» أو أو «البدلة الكبيرة» التي تخفى بارتداء «السرْوال» القضف من الذي يتم إعداده من الحرائر، و«القمجّة» المتفرشخة الأكمام المعدّة من شرائط الحرير والفضة المرتدية فوق «المزيول» الذي لايظهر منه سوى رقبته الرفرفية، ومن فوقهما تقبع «الفرْملة» المخملية، الموشاة بالفضة، حيث يضمها جميعاً «الحُولي» المنسوج من الحرير والفضة، الذي يتبعه لوناً وزخرفاً ورقعة «التسْتمال» الذي يغطي الرأس.

* كسوة الجلْوة: هي عبارة عن كساء يتكون- كما يخبرنا الباحث، من طقم من الملابس النسائية المستحضرة، في أغلبها، من مخمل القطيفة بالفضة، المتمثلة في «القفْطان، السروال، الكوفية».

جدير بالذكر أن لباس هذه «الكسوة» المخملية، كان يخصّ عرائس المدينة دون غيرها.

ونظراً لخصوصية لباس هذه الكسوة فإن استعمالها كان لمرّة واحدة لكل عروس على مدى عمرها كله، ولهذا كان أمر استعارتها من «الزيّانة»- أي المرأة التي تهتم بتزيين العرائس- أمراً مقضياً، باستثناء «القمجّة» أي القميص، و «الفرملة» أي الصدرية، اللتيْن تظلان من ضمن «البتات».

ويخبرنا الباحث أن لباس «كسوة الجلوة» يتم بارتداء «السروال» المخملي تحت «القمجّة» التي تظهر أكمامها منه، وتستقر فوق «المريول» وهو القميص الداخلي، و«الفرملة». . أما غطاء الرأس فيستعمل «الكوفية»، وهي طاقية من الفضة. في حين يتم ارتداء هذه «الكسوة» في الحفل الختامي للعرس الذي يقام عادة عشية يوم الجمعة، ويعرف بيوم «المحْضر»، حيث تتم «الجلْوة» المتمثلة في تجرّد العروس من مرحلة التحجّبْ عن أعين الآخرين خلال أسبوع زفافها، فتتجلّى في هذا اليوم على الناظرين بما تحمله من معاني الأناقة والجمال، إذ تبدو «كالجوهرة البراقة تبهر الأبصار». تجلس فوق الصندوق الخشبي المرصّع والكائن في منتصف صحن البيت مستكملة بذلك عرضها المبدع.

وقد نقل الباحث عن السيدة (تود)، صاحبة كتاب «أسرار طرابلس» وصفها مشاهد أحد الأعراس التي رأتها في مطالع القرن العشرين، حيث رأت أن العروس الصغيرة جلست في مكان بارز بين السيدات الجميلات، وهي أزهى من أيٍّ منهن، وكانت مخامل وحرائر قميصها وسروالها والدبوس الفضي، وهو المعروف محلياً بـ الشنبير، المعلّق بشعرها الأسود، المضفور جيداً، والصدرة الموشاة، والحذاء الذهبي - يسمّى محلياً «التليك»- وأرطال من الأقراط، وهي -محلياً- التكليلة والمناقش، المتدلية من نصف دزينة من الثقوب في كل أذن، وأذرع من الليرات الذهبية تلتف حول رقبتها الرقيقة، ومثلها من الأزهار (أزرار فل وياسمين) المنسوجة في سلاسل، والمعتمدة على «جال زينة» ملتفة حول خديها الأبيضين القرمزيين. (. . .) لُفّت العروس بحجاب من الحرير الأزرق المخطط، يغطي تقريباً جدائل طويلة جداً من الشعر الأسود، مزينة بزينات ثقيلة من القطيفة الخمرية والزرقاء المطرّزة بالذهب والفضة، وكان حذاؤها فضيّاً.

حضرت إلى الباحة على صندوق أخضر مزيّن بالنحاس، من الواضح أنه يحتوي كنوزها، وينزع الحجاب في النهاية ليظهر وجه تغطيه

المساحيق بكثافة. رسم عليه مثلث وردي وحاجبان مسودان ملتقيان وأوراق زينة ذهبية وملونة ملصقة على الذقن والجبين، وسلاسل من الأزهار.

بعد هذه المقبوسات يخبرنا الباحث بما يسمى في ليبيا «كسْوة العَصابة»، وهي عبارة عن كساء ريفي تستعمله المرأة قديماً في ضاحية المدينة وفي البادية، سواء في مناسبات الأفراح والأعراس، وفي الأحوال الاعتيادية يكون هذا الكساء بفارق قليل من الأقراط والقطع الفضية المستعملة كحلي لها.

وتعتبر هذه «الكسوة» من أقدم ما استعملته المرأة الليبية في لباسها على الإطلاق، بما تشتمل عليه من قطع المنسوجات التالية: [الردي، القمجة أو القفْطان، العصابة أو السورية، اللفافة، المريَرة]..

وفي معرض تفصيله في فنون الملبوسات النسائية الليبيّة، يحدثنا عن «حُولي الورقة» الذي كان يعتبر منذ زمن قديم، اللحاف الرئيسي للمرأة في المدينة.

ينسج هذا «الحولي» بطريقة«النول» الأفقي من الصوف الخالص، المعروف بمغزول «الجدار»، ويأخذ شكل ورقة «الجرد الجوازي»، وقد عُرف باسم «حولي الورقة» لأن حياكته كانت تتم على ورقة واحدة بدلاً من حياكته على قطعتين برغم أطواله الواسعة التي تبلغ عشرة أذرع طولاً (4.90 م تقريباً)، وأربعة أذرع عرضاً (قرابة 2 م). وتترك بأطراف حاشيته أهداب يكون إعدادها على هيئة أزهار صغيرة من الغزول نفسه.

تلبس المرأة هذا الرداء فوق ملابسها كافة، حيث تربطه على جسدها بما يعرف بـ«التخيلية»، وتشده إليها بمشبك معدني يسمّى «الخلال»، ويحكم في طي ثنايا عديدة من طرفه إلى الصدر بما يعرف بـ«الشلامة» فيمضي منها طرف آخر تحت الإبط يُعرف بـ «الخُبلة». ويتم تغطية الرأس وكامل الوجه بطرفه العلوي، وهذا يُسمّى «غطاء البَنّبوك».

أما «فراشيّة اللاّنا» فأشهرها انتشاراً «الفراشيّة البيضة» التي تحاك من مغزول صوفي ناصع البياض بالأنوال الأفقية اليدوية التقليدية، ثم الآلية الحديثة. وهذا الرداء مستعمل حتى الآن، حيث تزينه المرأة، بالحاشية، بزهور صغيرة كأزهار الفل والياسمين. طول هذه «الفراشة» ستة أذرع طولاً على أربعة أذرع عرضاً.

* * *

شاعر وقصيدة

1983-1940

ولد الشاعر العربي المصري (أمل دنقل) بقرية «القلعة» الواقعة في مركز «قفط» على مسافة قريبة من مدينة «قنا» في صعيد مصر.

كان والده عالماً من علماء الأزهر، وكان هذا الوالد قد حصل العام ١٩٤٠ على إجازة العالمية / الدكتوراه/ فأطلق اسم (أمل) على مولوده هذا، تيّمنا بالنجاح الذي أدركه في ذلك العام، وكان الوالد يكتب الشعر العمودي، ويملك مكتبة ضخمة تضم كتب الفقه والشريعة والتفسير وذخائر التراث العربي، التي كانت المصدر الأول لثقافة الشاعر.

فَقَد (أمل دنقل) والده وهو في العاشرة من عمره، فعايش مرارة اليتم ومسؤولية الأسرة التي رحل عنها الوالد، والتي كانت من أم وشقيقين.

ونظراً لهذا الوضع لم يستطع (أمل) متابعة دراسته، فقد التحق بكلية آداب جامعة القاهرة، ولكنه انقطع عنها منذ السنة الأولى ليعمل موظفاً بمحكمة «قنا» وجمارك السويس والاسكندرية، ثم موظفاً بمنظمة التضامن الأفرو آسيوي، بيد أنه كان دائم التهرب من الالتزام بالوظيفة لصالح الشعر.

عرفنا، عربياً، اسم (أمل دنقل) منذ العام ١٩٦٩ غداة صدور مجموعته الشعرية الأولى، الموسومة بـ «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة».

ومنذ هذه المجموعة تبيّن القراء التزام شاعرهم هذا الخطّ القومي والقصيدة السياسية الرافضة للراهن السياسي العربي، مثلما تبين النقاد خروج شعر هذا الشاعر على الأساطير المستوردة، إغريقياً وأوربياً، التي عجّ بها أكثر الشعر العربي المنتج في الخمسينات والستينات، حيث استوحى (أمل دنقل) رموز الموروث العربي وأساطيره ففجّر طاقاته، معصْرناً موحياته، بغية التوكيد على الانتماء القومي وجعل القصيدة العربية المعاصرة تثور على ذاتها فتصنع حداثتها.

بعد مجموعته الأولى تلك التي جسّدت إحساس الإنسان العربي بما حلّ به في حزيران من العام ١٩٦٧ والإلحاح على رفض الهزيمة الحزيرانية بمقاومتها، عقلاً ووجداناً وعملاً، قدم لنا (أمل دنقل) خمس مجموعات شعرية لاحقة، هي على التوالي: (تعليقٌ على ما حدث، مقتل القمر، العهد الآتي، أقوال جديدة عن حرب البسوس، أوراق الغرفة ٨)

أصيب شاعرنا المرهف هذا بمرض عضال فظل يصارعه على مدى ثلاث سنوات وأشهر ليظل يكتب الشعر، وقد نجح في قهر مرضه الخبيث ذاك حتى الانتهاء من مجموعتيه الأخيرتين (أقوال.. وأوراق..)

ونحن في «مجلة المعرفة» وفي هذا العدد بالذات، الصادر في أيار لهذا العام/ ٢٠٠٠/ نستعيد ذكرى هذا الشاعر المبدع الذي رحل عنا، - يرحمه الله- في مثل هذا الشهر منذ سبع عشرة سنة، ونقدم لقرائنا، من شعره، هذه القصيدة:

مقابلة خاصّة مع ابنِ نوح

جاء طوفان نوح

* * *

المدينةُ تغرقُ شيئاً.. فشيئاً

تَفِرُّ العصافيرُ،

والماء يَعْلو
على دَرَجاتِ البيوتِ، الحوانيتِ، مبنى البريدِ، البُنوكِ،
التماثيل (أجدادنا الخالدين)، المعابدِ، أجْولةِ القمح،
مستشفياتِ الولادةِ، بوابةِ السجنِ، دارِ الولايةِ
أروقةِ الثكنات الحصينةْ.
العصافيرُ تجلو..
رُوَيداً..
رويداً..
ويطفو الإوزُّ على الماء
يطفو الأثاثُ..
ولعبةُ طفلٍ..
وشهقةُ أمٍّ حزينهْ
الصبايا يُلوِّحْن فوقَ السطوح!
جاء طوفانُ نوحْ.
ها همُ «الحكماءُ» يفرّون نحو السَّفينهْ
المغنونَ، سائسُ خيلِ الأميرِ، المرابطونَ، قاضي القضاةِ
(.. ومملوكُهُ)،
حاملُ السيفِ، راقصةُ المعبد
(ابتهجَتْ عندما انتشلَتْ شعرَها المُستَعار)
- جباةُ الضرائبِ- مستوردو شحنات السلاح-
عشيقُ الأميرةِ في سمتِه الأنثويِّ الصبّوح!

جاءَ طوفانُ نوحْ.
ها هم الجبناء يفرون نحو السفينةْ
بينما كنتُ..
كانَ شبابُ المدينَهْ
يلجمونَ جوادَ المياهِ الجَموحْ
ينقلون المياهَ على الكتفين
ويستبقونَ الزَّمَنْ
يَبْنونَ سدودَ الحجارةِ
علّهُمْ يُنْقذونَ مهادَ الصِّبا والحضارهْ
علهم يُنْقِذون.. الوطن!
.. صاحَ بي سيدُ الفُلْكِ - قبلَ حلولِ
السكّينه:
«انْجُ مِنْ بَلَدٍ.. لم تعُدْ فيه روحْ!»
قلْتُ:
طوبى لمنْ طعِموا خبزَهُ..
في الزّمانِ الحَسَنْ
وأداروا له الظّهرَ
يومَ المحَنْ!
ولنا المجدُ- نحن الذين وقفنا
(وقد طمَسَ اللهُ أسماءَنا!)
نتحدّى الدّمارَ..

ونأوي إلى جَبَلٍ لايموتْ
(يُسمّونَه الشّعب!)
نأبى الفرارَ . .
ونأبى النزوحْ!
كان قلبي الذي نسجَتْهُ الجروحْ
كان قلبي الذي لعنَتْهُ الشروحْ
يَرْقدُ - الآنَ - فوق بقايا المدينهْ
وردةً من عَطَنْ / هادئاً . . / بعد أن قال «لا» للسفينَهْ
. . وأحبّ الوطن! [٣]

* * *

دراسة

قراءة مغربيةً في رواية سوريّة

في بحثه الموسوم بـ«وظيفة البداية» في الرواية العربية(٤)، يمرّ الناقد المغربي (شعيب حليفي) ببعض الأعمال الروائية لعدد من الكتّاب العرب، أمثال محمد برادة وإدوارد الخراط وبهاء طاهر وصنع الله ابراهيم ويحيى الطاهر عبد الله ومحمد الهراري ومجيد طوبيا ويوسف القعيد، وسواهم . . فيشير إلى أن «البداية» هي عتبة أولى، بعد العنوان، للتخييل، وبناء إدراك أولي تتشكل معه أحاسيس وأفق انتظار منسجم أو معدّل عن الأفق الذي خلقه العنوان أو اسم المؤلف الحقيقي، الذي يسم البداية بخلفيته ومواقفه الفكرية وقناعاته السردية والتقنية.

وبغية مقارنة «البداية الروائية» وتحليلها يقف الناقد عند رواية

(فقهاء الظلام) للروائي السوري، غير المقيم، سليم بركات، بقصد «استنطاق مزدوج للبداية الكبرى لهذه الرواية» والبدايات الخاصة بالفصول، التي يسمّيها «بدايات صغرى»؛ وذلك للاقتراب أكثر من هذا المكون وعناصره وكيفية اشتغاله. فيرى أن البداية الروائية في (فقهاء الظلام) تعمل على تحقيق مجموعة من الخصائص التي تتقاطع مع الرواية التجريبية بعامة؛ كما تحقق وظيفة مختلفة جداً. فهي تنتج فضاء منحوتاً من فضاء جديد- على حدّ تعبير جان رايموند- ذي خصوصيات متحققة مثلما الروايات التي تتكون من نصّين: نصّ قصير وهو العنوان، ونص طويل، وهو النص الروائي نفسه.

إذا كان العنوان قد وجد ليوجهنا ويغرينا، ويقدم مفتاحاً للتأويل والإيهام، فإن البداية الروائية في (فقهاء الظلام)- كما يراها الناقد- تدفع بالمتلقي إلى مجاهيل النسيج الروائي مع تلخيصها للرؤية العامة. فالايماضات الدقيقة التي تحفل بها بداية الرواية تُعزى إلى كون التخييل يرتوي من شرايين عدة تلزمه استراتيجية دقيقة تدعمه حتى يفضي بكل ذلك العالم الروائي، وبتوسيع بين الكلمات التي تثوي تحت «جلدها الأزلي» تبديات فانتاستيكية تحسم الأمر بامتلاكها قدرة على الاستبصار العجائبي للأشياء والكائنات والمصائر.

ويرى الناقد أن وظيفة البداية في الرواية الحديثة- كمكوّن ضمن المكوّنات العديدة والحاسمة- مغايرة للرواية التقليدية؛ ذلك ما تدعمه وتوطده رواية (فقهاء الظلام) بالقياس إلى أعمال أخرى، على الرغم من أن الرابط بين كل هذه البدايات هو أنها تستحضر الوعي الذي يغذي الكتابة ويوجهها، كما تستحضر القناعة بالتحولات، فتبدع البداية وتحوّلها من مدخل لغوي عادي إلى مدخل فكري في إطار لعبة يقتنع بها الكاتب، أو «مؤامرة» يسعى من خلالها الروائي إلى «توريط القارىء

معه» في دهشة النص. وهو ما سعى إليه سليم بركات، كما سعت إليه العديد من الأعمال «العالمية» التى أعطت للبداية حساسية مغايرة للحساسية القديمة.

والاختلاف الوظيفي بين (فقهاء الظلام) والأعمال الأخرى، هو اختلاف واحد بين الروايات عموماً- كما يراه الناقد- وبين المحكيات ذات المعنى الحداثي، لأن أهمية البداية عند سليم بركات تكمن في أنها مكوّن تخييلي له خصائص تشترك وتتجذر في النص الروائي ما دام أن لكل مؤلف- حسب باختين- بداية ونهاية، هذه البدايات والنهايات «تتموضع في عوالم وكرو نوطوب مختلفين».

ويمكن النظر إلى بداية (فقهاء الظلام) من خلال بداية كبرى تمتد، حسبما يراها الناقد، عبر النص كله، ثم البدايات الصغرى المتعلقة بالفصول الأخرى. ففي الفصل الأول من هذه الرواية نبدأ قراءتنا بهذا الكلام: «حاول الملاّ بيناف بن كوجري، أن يبدو وقوراً كعادته، ابتسم من دون افترار لشفتيه عن أسنانه الكبيرة القوية، ثم رفع يديه وقرأ الفاتحة تمتمة».

بداية هذا الفصل، هي بداية الرواية، والتي تتأسس منذ البدء على الحذف واختيار فعل «حاول» للدلالة على أن هذا الفعل يختزن في كوامنه نوعاً من عدم القدرة الكاملة، إذ المحاولة شيء يحتمل النجاح والفشل، كما يكمن فيه نوع من التصنع والخروج عما هو مألوف. وفي الوقت نفسه يتم اللجوء إلى هذه المحاولة لعدم الخروج عن المألوف من خلال إظهاره وقوراً «كعادته». فالعادة هنا تحكم سلوكاً، لذا جاء الفعل الابتدائي يسم الجملة بالفعلية وبقوة التعدية مع أربعة أفعال أخرى [بدا- ابتسم- رفع- قرأ] وهي أفعال متراكبة ومتعدية بدورها، عدا فعل «ابتسم».

والملاحظ على هذه الأفعال المترابطة أنها منسوبة لشخصية الملاّ الذي يصفه السارد بـ«الوقار». كما أن نوعية هذه الأفعال تتعلق كلّها بسلوك ذاتي تدل على الفاعلية والحركة.

ثم أن هذه الأفعال تختص عموماً بأعضاء تتحرك في جسم «الملاّ» حتى تؤكد صفة الوقار في بداية فعلية ووصفية لفاعلية الملاّ بيناف، بصفات الوقار والإيمان، وكلها صفات داخلية، بالإضافة لصفات خارجية تعزّز ذلك الوقار الجسدي والصلابة المتوارثة، اللذين يتم التلميح إليهما من خلال صلابة الأسنان وكبرها، وعبر الإبتسام، دون افترار، هذا التلميح الذي صاحبته دقة وصفية، وتأكيد يُفضي في نهاية ا لأمر إلى تكنية عن القوة، وكأن السارد يزيد أن يقدّم- منذ البداية- صلابة أب وقور لا تهزّه المظاهر، ومؤمن ارتقى مرتبة فقيه «ملاّ»، يؤمن أيضاً بالقدر والامتحان الإلهي الذي يمكن أن يتحن الله به الإنسان. وسيكون الوليد العجائبي هو إجابة على هذه البداية التي تحيل إلى رصانة الأب وقوته، والأمتحان الذي سيدخل فيه مع (بيكاس).

بعد ذلك تبدأ الحركة الثانية للسارد، وهي ظهور الوليد العجائبي (بيكاس)، فمن منظور الأحداث داخل الفصل الأول يبدو أن البداية هي الإبهار بالواقعي. ثم إن التركيز على الأب في البدء هو سلوك تبثيري على سلوك وحدث، وأيضاً على عادات وتقاليد، وجميعها تهيىء المتلقي لأشياء تنحو منحى غير مألوف. كما أن الزمن في جملة البداية هو زمن الماضي القريب، ومن خلال الأفعال المتعدية والوصفية. ومجيئها على هذا النحو يتناسب والحدث الذي سيخرج منه (بيكاس) كفعل غير لازم للحدود المرسومة للإنسان فيكون العجيب هو السبيل إلى التعدية أيضاً.

يبدأ الفصل الثاني من رواية فقهاء الظلام بهذا القول: ذلك-

الحيوان- يزحف في الظلام، بل الصواب أنه يسبح في الظلام مهتزاً يمنة ويسرة في الزلال الدبق». وهذه من البدايات المحيّرة، كما يراها الناقد، لما تثيره من شك. فبعدما كان الفصل الأول يروي أحداثاً، ظلّ القارىء، في عطش، ينتظر تتمة سردها في الفصل الثاني، تجيء البداية الثانية لتعكس غموضاً، لاعلاقة له- في أول انطباع- بما سبق.

مناورة روائية يبدأ بها الكاتب فصله الثاني؛ مناورة لغوية دلالية تبدأ باسم إشارة مخادع يشير إلى شيء بعيد جداً، غامض يتردد الراوي في البحث عن صياغة لهذه الخدعة.

الجملة الاسمية التي تشير للبعيد جداً «ذلك الحيوان» تخبر بالزحف والسباحة في الظلام من جهة أولى، كما تخبر بحركة السباحة التي تعتمد الاهتزاز لجهتي اليمين واليسار. وتختم هذه الجملة «البداية» من جهة ثانية، بتحديد المكان الذي لا زمان فيه إلا زمان الظلام والرهبة. فالزلال الدبق هو الشيء الذي يجعل الحيوان سباحات في الظلام دون الإفصاح عن المكان.

ويرى الناقد أن هذا التغميض الفني أعطى لهذا الفصل بُعداً إيحائياً جعله الفصل المؤسس لباقي الفصول، انطلاقاً من كونه يجسّد التكوّن بشكل جلي من خلال عملية وصفية للحيوان المنوي أثناء انتقاله إلى الرحم، في أفق خروجه تحت اسم (بيكاس)، لكن تساؤلاته كانت مُرّة، وهو ما يزال نطفة.

إن بداية الفصل الثاني، في علاقتهما بالفصل الأول، تبدو حميمية للناقد من حيث تأسيسها على دلالة عميقة تنطلق من حدث ثم اقتطافه من وسط، والاستفادة من تقنيات التكرار والاستدراك، والأفعال المضارعة، والفضاء، ثم ما هو محسوس ومعين بالإحساس. كل هذا يوحي، لدى الناقد، بأن جملة البداية ستفجر دلالة العجيب.

ثم يبدأ الفصل الثالث بهذا القول: «بضعة زرازير حطت على السلك ذاته الممتد فوق ساحة بيت الملاّ بنياف، باحثة من الأعلى بعيونها، في كسل، عن رزق دفين تحت الثلج النائم ذلك الصباح الذي أعقب ليلة زواج بيكاس».

تجيء هذه البداية لتأكيد التنوع والغنى، وأول ملاحظة يتبينها الناقد من هذه الجملة هي أنها إحالية، تحيل على ما سبق: «أعقب ليلة..»، وتحديداً، على نهاية الفصل الأول، زمانها الصباح، ومكانها الفضاء الثلجي. إنها بداية جامعة رغم مكرها تتناول الزمن والفضاء والحدث بيد واحدة ومراوغة لأنها تلجأ إلى الوصف الذي ينتقل من وصف الحيوان إلى الطيور مع التوضيح هذه المرة، وذلك بتعيين الزرازير وتحديدها في «بضعة» التي تفيد العدد ما بين ثلاثة وتسعة، فهذه الزرازير جاءت لتحط على «السلك ذاته»، وهي إشارة إلى سابقة إلى ذهن المؤلف وأمام القارىء

إن البداية الاسمية هذه، بتعدادها للأمكنة بأوصاف مجازية «كالثلج النائم» كلها إشارات كانت تريد الوصول إلى زمن الصباح الذي هو بداية جديدة من زمن غير حديث، لأحداث فيه لا تعرف التوقف، والقول أيضاً إن هذا الصباح غير عادي هو كالظلام غير العادي في الفصل الثاني. وتكمن غرابته في أن البداية تفتح الأسئلة عن طريق المجاز؛ فهذا الصباح هو الأول الذي يعقب ليلة زواج بيكاس، ولكنه ليس الأول الذي تقف فيه الزرازير على السلك وقد ألفت البحث منه عن رزق دفين. وبربط دلالة الزرازير وفعل البحث، يتبين أن إفراز هذا الجدل هو بؤرة الحدث والذي من أجله انوجدت تلك الطيور هناك. كما أن الصباح غير العادي هو صباح يبحث عن نفسه الدفينة في ليلة قضاها «بيكاس» مع زوجته «سنيم» وهي فتاة تقرب العشرين، يتزوجها وليد لا يتجاوز عمره

الساعات الثلاث! هذه الكلمة البؤرة في جملة البداية هي المحرك الرئيسي للفصل كله، كما هو شأن باقي الكلمات. فأهمية الصباح أنه الزمن الذي ستجري فيه أحداث الفصل، وهو أيضاً بداية حدث البحث عن بيكاس. الذي غاب في الصبيحة التي أعقبت زواجه، كما ساد الفصل ثلج وفير لم ينقطع وهم يبحثون أو يتجهون إلى المقبرة لدفن وسادة بها ريش الطيور، بدعوى أنها بيكاس الذي مات.

فكلمات: البحث والدفن والثلج والصباح وبيكاس وبيت الملاّ، كلها مفردات تشكل نسيج الفصل الثالث، وقد جاءت في البداية مجتمعة في استعارة عميقة ستجد جذورها في باقي النص، بحيث أن الدفن قائم وبيكاس قد غطته الثلوج كأنما هو رزقها الذي دفنته بطريقتها، والذي سيقود الملاّ بنياف إلى مكان مجهول.

البداية، حسب الناقد، تقدم مفاتيح الفصل الروائي، انطلاقاً من وصف مشهدي يوغل في الترميز إلى أحداث تندرج في صيرورة الرواية، وكأن هذه البداية محقونة بنبض الفصل عموماً يتقاطعه حسٌ تراجيدي بالضياع الذي له قدرة على توليد البحث، وتوليد مسارب جديدة للحدث الروائي.

بداية الفصل الرابع تقول: «خيام من الغبار تنصب على جانبي الطريق حين يأتي هؤلاء الرجال على دراجاتهم النارية السوداء. كانوا يأتون ثلاثة ثلاثة في أغلب الأحيان، إثنان منهم لا يتحدثان إلى أحد، بل يجري الكلام فيما بينهما همساً بلغة عربية، الثالث دليلهما، وهما يختارانه بتوصية من مخافر النواحي، التي تلتزم بدورها بتوصية من مدراء المحافظات».

ليس في هذه البداية تحديد زماني، وإن كانت الضمائر متصرفة في

الماضي والمضارع، مثلما أنه ليس هناك تحديد مكاني، غير الطريق التي تقود الغموض إلى تعيين غامض بالإشارة إلى الرجال وهم ثلاثة، بدرجات ودليل متواطىء. فالمؤلف في هذه البداية يضع الكلمات في مواجهة سافرة مع الأشياء من خلال مشاغل أهل الشمال الكردي وتجارتهم التي تتخذ من الحدود مع تركيا جسراً تمرّ عليها بضاعتها المهرّبة. فالمؤامرة هو نواة هذا الفصل، واستمرار لمؤامرة الفصل الثالث والمتجليّة في دفن الوسادة بدل بيكاس. كما أن الجملة الاسمية تؤكد على الإخبار والوصف الدقيقين في امتحان الكلمة وتأسيس تركيب يرتوي من واقع غمس أرديته في مخيلة عمّدت بالاشتعال.

تفتح كلمة «الغبار» بنية القول على دلالة لها عمق يستحضر شرايين عدة مرفودة بالتخييل، ومتصلة بالنص الروائي عموماً. ثم إن المشهد الأول من الفصل الرابع هو مشهد يرصد الواقع في مباشرته فيقدم أحداثاً تنم عن تقرير حول ما هو واقع، ولكن بتغميض فني مقصود، دأبت البدايات السابقة على سلكه من خلال اللاتعيين واللاتحديد الذي يمكن استخراجه من كلمات تراكبت في «بداية» تقصد هذا اللاتحديد للشخوص والمكان والزمان، كأنها نواة تكتنز معنى النص ولا تقدم في البداية غير بوارق للتعيين.

أما بداية الفصل الخامس والأخير فتقول: «الأجنحة البيضاء تخفق خفقاً عنيفاً، فيغطي الأرض ريشها المتطاير من الأفق إلى الأفق، وما من شيء يتحرك في فناء (بيت الملا)، حتى شجيرة الزيتون». / ص١٦٧/

تتأسس هذه البداية، حسب الناقد، من قطبي الإثبات والنفي وهو المقصود، بحيث أن بيت الملاّ بات منفياً ثابتاً لا شيء يتحرك في فنائه. فالخارج متحرك والداخل (بيت الملا) ساكن وثابت. وتأكيد هذه السكونية بشجيرة الزيتون العجائبية - التي ستختم الرواية بالحديث عنها -

. وهذا السكون لا يراد منه الوصف الظاهري بقدر ما أتي به للإشارة إلى غياب عائلة الملاّ، التي كانت تملأ الفناء. وكان خفق حياتها يوازي عنف اصطفاق الأجنحة الثلجية، فتطايرت العائلة بدءاً من بيكاس الأب، ثم الملاّ بيناف وأخته خاتي وابن زاري وعقدي ومجيدو، وغيرهم من شخوص الرواية.

البداية اسمية، من الوجهة اللغوية، متبوعة بالصفات والنعوت ثم ثلاثة أفعال كلها متصرفة في المضارع، وهي تؤدي وظيفة الفاعلية والاستمرار عدا الفصل المنفي بـ «ما» في الجزء الثاني من الجملة. وقد أعطى المؤلف للبداية، عموماً، شاعرية، كما حقق لها دلالة أخرى بتقديم «الأرض» وتأخير «ريشها المتطاير»، ثم إتمام المعنى الذي يكمل الأرض من الأفق إلى الأفق، بحيث أن هذه الجملة لها احتمالات عدة في التركيب لتوليد جمل أخرى بتغيرات طفيفة. هذه الشاعرية هي تأكيد سينتفي من خلال «ما» النافية، والاستدراك بـ «حتى». ثم إن حركية الأحداث لها سرعة حدث عادي من حيث الكثافة والتحول، أي أن داخل كل ما يوحي أنه ثبات هناك اعتمال للحركة؛ وبداية للفصل الخامس الذي عبّر عنها الاستدراك بـ «حتى شجيرة الزيتون» التي يجسمها ويجعلها شخصاً من شخوص عائلة الملاّ بناف.

وقد تبين الناقد خمسة من تجليات البدايات في الرواية، هي: «حضور العنوان، والجمل الإسمية، وصيغ المثنى والجمع، والزمان، والمكان».

ثم أخبرنا أن هذه التجليات، مرتبطة فيما بينها، تُفضي إلى وظيفتين أساسيتين. الأولى: وظيفة إيهامية، البداية فيها توهم بما هو واقعي لاستقبال الأحداث؛ والإيهام، عن طريق اختفاء الراوي وراء حجاب سميك، وهو يقدم الصورة المشهدية لواقع مرئي يدفع بدوره نحو

اللامرئي (جسر من الواقعي إلى الخيالي أو العكس). فالمؤلف يوهمنا في بداية الفصل بحيوان يسبح في شيء رخي زلال، ولكن بقية الفصل تصدم القارئ من حيث أن هذا الحيوان ليس سوى حيوان منوي في رحلته من جسم الملاّ بنياف إلى رحم (برينا) المفتوح لاستقبال العجائبي.

الثانية: وظيفة التلميح البلاغي، الذي يتكىء على التنويع القاضي بالتشويق والتكسير الضمني لكرونولوجية الحكي، وتلك الخطية اللاهثة وراء بطولة التعجيب، من خلال النعوت والصفات الدقيقة التي تساهم في التكثيف والإيحاء، وهيمنة الفعل الحركي.

كما أن البداية في المحكي الروائي ذات آليات داخلية تنسج للنص الروائي أنفاقه ومساربه واختلافيته وفرادته وبالتالي علاقته مع باقي النص أو مع المتلقي.

* * *

إحـالات

١- النزهة: أستاذ أمراض القلب (ورئيس جمعية القلب السعودية) كلية الطب بجامعة الملك سعود.

شمسي باشا: استشاري أمراض القلب بمستشفى الملك فهد للقوات المسلحة / جدة/. ضمن كتيب «المجلة العربية» رقم ٣٥/ ٢٠٠٠

٢- شلابي، سالم. ألبسة على مشجب التراث / ط١/ ليبيا 1990/ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

٣- من مجموعة «أوراق الغرفة ٨» ضمن «كتاب في جريدة» إعداد وتقديم عبلة الرويني.

٤- ضمن مجلة الكرمل / ع 61/ مؤسسة الكرمل الثقافية. رام الله / فلسطين/ خريف 1990.

كتـــاب الشـــهر

الطب في الفكر الصيني

ميخائيــل عيــد

رسخت في ذهني منذ سنوات الفكرة القائلة: «الكتاب الجيد يفيد القارئ في أكثر من جانب»، فمامن كتاب يستحق صفة «جيد» إلا ويطرح أكثر من مسألة هامة ومن ثم يثير أكثر من سؤال هام.

كتـاب «الطب في الفكر الصيني» الصادر عن وزارة الثقافة في دمشق لمؤلفه د. مانفريد بوكرت وترجمة الدكتور الياس حاجوج هو أحد الكتب الهامة التي تطرح الكثير من المسائل وتثير الكثير من الأسئلة فالكتاب ليس كتاباً فكرياً وحسب وليس كتاباً طبياً فحسب... إنه من هذا وذاك واكثر من هذا وذاك.

إنه كتاب يثير مسألة بنية الفكر في الغرب وشموليته في الشرق مروراً ببنى اللغات، التي تكونت تاريخياً فاكتسبت خصوصياتها ومصطلحاتها الخاصة التي لا مطابق لها في اللغات الأخرى، ولا مثيل لمدلولاتها، ومن خصوصية اللغة تولد خصوصية النظرة الى العلم والعالم، ويكون غيري مكملي لا نقيضي ولا بديلي، فمن توحيد النظرات المتباينة أو المتمايزة تتكون النظرة الأغنى والأشمل والأعمق والأرحب.

يشير المترجم في مقدمته المقتضبة إلى أن الحضارة الصينية «هي واحدة من تلك الحضارات التي ما زالت، وحتى عهد قريب، تعتبر، إلى حد ما، مجهولة بالنسبة إلينا» ثم يشير الى عجز الطب الغربي «عن الاستجابة الصحيحة لتحديات المرض» ومن ثم البحث عن مخرج في طب «مكمل» يستطيع «سد الثغرات المنهجية التي يعاني منها الطب الغربي..»(ص٣) إنه الطب الصيني الذي تأسس منذ ٢٣٠٠ سنة «كنظام علمي أخذ يتكامل ويتماسك بمرور السنين، ويبني على الفكر والفلسفة الصينيين، عمارة سامقة استناداً إلى الخلاصات التي توصل إليها حكماء الصين» أما الدكتور «مانفريد پوكرت» فمن «الخبراء القلائل المعترف بهم في الصين أيضاً...»(ص٤)

وتقول «ڤيرونيكا كار ستنس» في مقدمتها «وكان طب أقدم الشعوب الحضارية، الصينيين، الأكثر صعوبة على الفهم، إذ أن الصينيين، وبمعزل عن العالم الغربي، قاموا بحفظ بنيانهم الفكري فائق التميّز وبتدقيقه وتهذيبه. وهو بنيان فكري يمتاز برؤية كلية شمولية من نوع خاص، وإذا أردنا فهم هذا الفكر والإحاطة به، فلا بد لنا من تجاوز كل ما تعلمناه في المدارس الأوروبية والبدء من جديد. ويبدو أن الأمر

يستحق ذلك، إذ إن نجاحات الطب الصيني واسعة ولا حصر لها»(ص٦).

ويرى المؤلف أن العلم «في الغرب لا يزال بعيداً عن ايجاد علاقة مناسبة مع الحضارة الصينية» ولا يجوز للمرء «أن يقتصر على وصف أساليب الانتاج والمنتجات وفقاً للقوالب الفكرية الغربية وباللغات الغربية»(ص٩) ومن غير «دراية باللغة الصينية يكون الدخول إلى العلم وتاريخ الفكر الصينيين صعباً جداً»(ص١٠) وهذا الكتاب يدخل في عمق النظرة الصينية العلمية إلى العالم، والتي لا تقتصر، بالطبع، على الطب وحده، وإنما تتناول كافة مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، والحدث الكوني»(ص١١).

عنوان الفصل الأول هو: «الطب الغربي والطب الصيني-مشاكل الطب المعلقة». . . فبعد أن اكتشف كوخ أن الأمراض المعدية تسببها «عضويات حية مجهرية» بدا «أن استئصال الأوبئة المخيفة قاب قوسين أو أدنى». وقد تحقق حلم ذلك الوقت(ص١٣). ولا بد لنا اليوم «من إثبات أن آمال آباء أجدادنا كانت آمالاً كاذبة». فقد ظهرت أمراض جديدة «لا يعرف فن العلاج الغربي أية وسائل ناجعة ضدها أو أن وسائله قاصرة كلياً»(ص١٤). ولا يجوز «إغفال ناقوس الخطر هذا»(ص١٥). والمريض الذي ينتقل من طبيب إلى آخر «كثيراً ما يضاف إلى شكاياته القديمة خيبات أمل جديدة»(ص١٨). فقد تحول الطب إلى «نظام متاهة يضل فيه المريض سبيله»(ص١٩). وثمة نقص مطلق «في المعارف حول أسباب أمراض الانسان الحالي». ويتوارى خلف «مشاكل الطب المعلقة بؤس وشقاء ومعاناة الكثير من البشر»(ص٢٠) والمعرفة العلمية «لا يمكن الحصول عليها عنوة ولاشراؤها»(ص٢٢) ولا بد للعلم الطبيعي من «دفن قتلاه» ورص صفوفه والتقدم «وإلا فإنه سيبدو متنحلاً لماضيه

الخاص»(ص٢٣). ونتيجة «لاختلاف النظم التقنية تدخل عوامل مختلفة في القياسات»(ص٢٤) ويطرح السؤال هل الرهان على المستقبل يفرض أن يتخلى المرء «عن العمارات الفكرية المألوفة؟» وهل لزاماً أن تُهجر طرق «التفكير المجربة ليتوغّل في غابة مجهولة»(ص٢٦).

«إن كـون المرضى يعـانون من أمـراض ليس في وسع الطب تشخيصها بوضوح هو أمر واقع». وستكون معالجتها غير «مؤكدة» وليس في إمكان «الطبيب تحقيق أي نجاح» و«اللا عقلانية ليست المخرج»(ص٢٨) والذين يستخدمون لغات «ذات بنى قواعدية مختلفة جداً» بوجه ما عن العالم»(ص٢٩). «والان علينا التفتيش عن لغات تُفضي بنا إلى مستوى أعلى!» «وهنا يمد لنا يد العون الإرث المعرفي للشرق الأقصى». «ويحتل الطب بين العلوم الصينية موقعاً متميزاً» «فهو نظرية كفؤ وبالتالي علم عقلاني» وهو علم «تجريبي أيضاً»(ص٣٠). والطب «الغربي وطب الشرق الأقصى لا يبدوان متنافسين» بل هما متكاملان وكان يونغ قد رأى أن «الوعي الغربي ليس بأي حال الوعي بالمطلق»(ص٣١).

«في صيف ١٩٧١ أصيب الصحفي جيمس ريستون بالمرض أثناء جولته عبر الصين». ثم كتب «عن معايشاته في جمهورية الصين الشعبية وحـول طب الإبر والأعشـاب»(ص٣٣) وتحـول الوخـز بالإبر «إلى مـوضـوع السـاعـة». ولم يصـدق بعـضـهـم أعـينهم «ولم يرغبـوا أبداً بالاعتراف بما شاهدوا» وظن آخرون «أن الوخز بالابر قادر على كل شيء»(ص٣٤) وازدهرت «جمعيات طبية للوخز بالابر» وقد تنافست أحياناً(ص٣٥) وتغلغل روح «الشرق في كافة المسامات»(ص٣٦).

كان ماوتسي تونغ قد أطلق «النداء من أجل تطبيق الطب الصيني

والطب الغربي جنباً إلى جنب». ثم اتخذ قرار «بندّية كلٍ من الطبين الصيني والغربي الحديث»(ص٣٧). وقد وقعت تشوهات كثيرة في ترجمة الطب الصيني إلى الغرب لعدم دقة فهم مصطلحاته. وكان «كونفوشيوس قد نادى قبل ٢٤٠٠ سنة «بتصحيح التسميات» وكان يقصد بذلك «أن كل مفهوم يجب أن يوافق حقيقة قابلة للمعرفة بصورة دقيقة وصارمة»(ص٤١) وقد قام «المفسرون الغربيون، في الغالب، باستئصال شأفة خصوصيات الصينية»(ص٤٢). لكن آلاف المرضى لمسوا «التأثيرات المخففة أو الشافية للابر واختبروها شخصياً»(ص٤٣). وعندما «يكون بالإمكان تقديم العون للمرضى، فإن كل طريقة طبية تكون مشروعة». ومن المرفوض ان يُراد «الايحاء بأن الطب الصيني وخز بالإبر فقط»(ص٤٤). ففي كل طريقة علاج صينية يسبق المعالجة «تشخيص مفصل يختلف كلياً عن الطب الغربي»(ص٤٥) وقد طورت في الصين والعالم «أشكال مختلطة من الوخز الجسدي بالإبر والطب الأذني، سواء من أجل المعالجة أم من أجل تسكين الألم»(ص٤٨). ولا بد من توكيد أن الطب الصيني في جوهره «طب علمي» وغالباً ما كان ينقل شفاهاً أو بتدوينات «بخط اليد من الأب إلى الابن أو من المعلم إلى قلة من التلاميذ»(ص٥١). وقد ولد الانطباع بأنه «طب شعبي» لأسباب عدة. إذ لم تكن فيه «مصطلحات فنية أبداً»(ص٥٢) وكانت «المسافة اللغوية بين الأطباء والمرضى في الصين أقل منها في الغرب دوماً» مع أن معرفة الأطباء كانت «اكثر شمولاً» ثم إن الطب العلمي يحتاج إلى «كفاءات غير لغوية»(ص٥٣) ولا يجوز جعل «الطب الغربي مقياساً للعلمية» فالطب يلبي متطلبات «العلم الدقيق المحكم»(ص٥٦). وحكم المرضى «كثيراً ما يكون أنسب من حكم الأطباء الغربيين»(ص٥٧). وهو يغطي «مجالات من الواقع المرضي مختلفة كلياً» «وفي وسع كلا النوعين

من الطب» التعايش معاً(ص٥٨) فكلاهما يستبطن «جوانب مختلفة للظاهرة نفسها. . »(ص٦٦)

إن التخصصية «في التشخيص والانتقائية في المعالجة تعنيان منذ البدء درجة كفاية وفعّالية أكبر بكثير للإجراءات العلاجية»(ص٦٨) ونحن أمام «وضع متناقض. ففي الصين يزداد الإقبال على الطب الغربي باستمرار، وفي الغرب يرتفع الطلب بوضوح على طرق العلاج الصينية» لكن الصينيين يعلمون «أن على الخدمة الطبية للسكان أن تسير على هدي الهموم الصحية الفعلية وليس تبعاً لمذهب أو عقيدة علمية ما»(ص٧١)

عنوان الفصل الثاني هو «مفاهيم أساسية» فأهم النصوص النظرية في الطب الصيني الكلاسيكي تبدأ غامضة على الأذن الغربية: «السماء والأرض ومبدأ الجوهر الأعلى، أم وأب التغير والتحول، أصل وبداية النشوء والفناء، قاعة القوة المتكوكبة المتمظهرة» والتاو «هو اسلوب الفاعلية، الدرب الذي يسلكه كل حدث في الزمان والمكان» «ولما كان كل حدث بالنسبة للصينيين حدثاً طاقوياً، فإنها تعني أيضاً ببساطة «القطبية»»(ص٧٣). ومفهوم الصينيين هو أن «النظام العالمي يقوم على لعبة تبادل بين مجموعتين من الجوانب الطاقوية، متعاكستين ولكن متكاملتين»(ص٧٤). «والتغيرات الجسدية هي حصيلة أخطاء وظيفية تستمر طويلاً»(ص٧٥). ولكل «الظواهر المفردة قابليتها للتعيين في تضافرها القطبي المعاكس»(ص٧٦).

«والطب الصيني منظومة علمية غير ممكنة دون الخصوصيات اللغوية للصينيين. وتقديم هذه المنظومة في لغة أخرى، دون الخروج المستمر عن النظام اللغوي للصينيين، أمر شبه مستحيل»(ص٨١).

عنوان الفصل الثالث هو «التخطيط الأيقوني للدارات-الوظائف

الحيوية» ثمة في بداية هذا الفصل رجوع الى تاريخ الصين الديني والعلمي... والعودة إليه أفضل... فالاختصار هنا غير مفيد... لكن لامفر منه... فليس في وسع الجميع الرجوع إلى الأصل... واليكم هذا القول: «إن شر المرض هو التنوع الشديد للمظاهر المرضية. أما شر الأطباء فهو عدم معرفتهم سوى القليل جداً من أساليب معالجة الأمراض». أما الأمراض غير القابلة للشفاء فهي: ١- التكبر والتعسف ٢- الاستخفاف والاستهانة بالشخصية السليمة وإعطاء الاعتبار والتقدير للثروة، ٣- الملبس والغذاء غير الملائمين وغير اللائقين، ٤- عدم استقرار الطاقة الفاعلة، ٥-الدنف التام، ٦- الوثوق بالساحر بدلاً من الوثوق بالطبيب»(راجع ص٩١). «والطبيب الماهر يعالج الأصحاء، ولكن الطبيب الرديء يعالج المرضى». فالمعالجة تكون «قبل أن يصاب المريض بضرر بالغ»(ص٩٢) ويحصل الاطباء الصينيون على معلوماتهم وبياناتهم الأساسية عن «طريق استجواب وتأمل مرضاهم، وعن طريق الجس والشم والإصغاء»(ص٩٧). فالعديد «من الأمراض تنعكس في صوت المصاب..»(ص٩٨) وتنعكس في الروائح والنبض.. (راجع ص١٠٠ و١٠١) والعلم والبحث «دون فكر تأملي مستحيلان أصلاً»(ص١٠٢). وكل تشخيص «يكون في منتهى الفردية وينسجم مع شخصية المريض..»(١٠٤).

ويتكلم المؤلف على «الدوائر الوظيفية» إذا انطلق الطب الصيني «من إحدى عشرة دارة وظيفية، «خمس دارات تخزين» «وست دارات عبور» ودارات التخزين «تختزن الطاقة البنائية الكامنة، دون أن تدع شيئاً يتسرب» ودارات العبور «يتم عبرها امتصاص الطعام السائل والصلب وتحويله، وتحريك العصارات الفاعلة والبنائية. ولكنها لا تختزن شيئاً»(ص١٠٥) والدارات، مفردة، «لا صلة لها بالأعضاء الغربية المعنية

التي سُميت باسمها، إلا من بعيد تماماً» «ويوصف الطب الصيني علماً ذا توجه وظيفي مبدئياً، فإنه لا يذكر شيئاً عن الحوامل التشريحية للوظائف..» وينسب لكل «عضو منفرد عدد كبير من الوظائف في الحدث الفيزيولوجي، ويمكن لكل عضو، وطبقاً لهذه الوظائف المختلفة، أن يكون مشمولاً في عدة دوائر وظيفية»(ص١٠٦). «إن كافة المؤثرات القريبة للدارة ضارة بالجرعة المفرطة» وللتشابكات «مع الكون أو العالم الأكبر أهميتها بالنسبة الى معرفة الواقع البيو-ايقاعي (الايقاعي الحيوي) في العضوية بكاملها...» إضافة إلى «تشابكات محددة للدوائر الوظيفية في الانسان أو العالم الأصغر، أي في الشخصية المعنية نفسها». وثمة الارتكاسات «النفسية» وغيرها.. وتتميز كل «دائرة وظيفية بسلسلة من الوظائف..» (راجع ص١٠٨ وص١٠٩) ومن البدهي «أن تمثل الارتكاسات النفسية، التمظهرات الصوتية أو طرق سلوكية معينة، أجزاء لا غنى عنها من تصوّر الدارات وتوصيفها..»(ص١١٤).

إن الصينيين يعرفون منذ أكثر من (٢٠٠٠) عام «أن تنفساً خاطئاً أو معيباً قد يكون مطلقاً لاضطرابات صحية متنوعة. لذلك تُعد التمارين التنفسية منذ القدم، إضافة الى الرياضة الطبية من وسائل الطب الصيني العلاجية»(ص١٢٠-١٢١) وكانوا «يتحاشون الإجهادات الهوجاء غير المتروية...»(ص١٢٣) ويعتبر «ربط الأعضاء في الطب الغربي مع الدوائر الوظيفية في الطب الصيني المصدر الدائم لحالات سوء الفهم وأخطاء التفسير ذات العواقب الوخيمة»(ص١٢٦). (ثمة جداول توضيحية يصعب اختصارها... وهي ممتدة على الكثير من الصفحات)

عنوان الفصل الرابع هو «علم الشرايين الصينية-مبحث نقاط التنبيه وطرق التوصيل».. وهنا يوضح المؤلف أن المعالجة بالابر

«والتسخين النقطي لا تشكل سوى فرع من الطب الصيني» ومع ذلك فهي تعتبر في الغرب «طريقة المعالجة الصينية الوحيدة»(ص١٤٩). وقد اهتم أطباء كبار في الغرب بهذه الطريقة «إلا أن الاهتمام بالوخز بالإبر سرعان ما خف ثانية» ثم حظي الوخز بالابر «بالاهتمام عالمياً، وذلك عندما أطلع الصينيون العالم على تقنياتهم الجراحية المطورة من جديد» وخصوصاً «في أعقاب تقارير الصحفي الأمريكي جيمس ريستون». وظهر أن في الإمكان «ازالة ألم العملية الجراحية» ومعالجة «الشقيقة، الآلام العصبية، آلام الأسنان والكثير من الاضطرابات الأخرى في الجسم»(ص١٥٠). «ويشكل مبحث نقاط التنبيه وطرق التوصيل» الأساس «النظري للمعالجة بالابرة والتسخين النقطي..»(ص١٥١) ويقوم «مبحث نقاط التنبيه على الخبرة، أي إنه علم تجريبي». ومبحث طرق التوصيل «جمع عقلاني نظري للملاحظات والمشاهدات المنصبّة على نقاط التنبيه»(ص١٥٢). وكل طريق توصيل رئيسي داخلي يتلاقى مع طريق التوصيل الرئيسي الخارجي المكمل له»(ص١٥٧). وعلى كل طريق توصيل رئيسي «عدد مختلف من نقاط التنبيه»(ص١٥٨) وثمة في الجسم (١٢) طريق توصيل رئيسي (راجع من ص١٥٩ إلى ص ١٧٠) والمميز للطب الصيني «أن تذكر الأعراض المختلفة مرات عديدة، وذلك مشروط جزئياً بعدم الدقة اللغوية: على سبيل المثال هناك أشكال مختلفة من الألم تُسمى جميعها «صداعاً» ولكن هناك العديد من الأمراض التي ترتبط جميعها بعَرَض معين واحد، على سبيل الصداع»(ص١٧١).

عنوان الفصل الخامس هو «التشخيص» والتعريف الصيني الأبسط والأدق للمرض هو «تضرر الاستقامة». والاستقامة تصف «دوماً الوضع المثالي للوظيفة»(ص١٧٣) والمؤثرات التي تحدث انحرافات في «الوضع الوظيفي المثالي» أي تضر الاستقامة، كثيرة جداً: «منبه

محيطي، كل صوت، كل شعاع ضوئي، كل مؤثر طقسي، كل إشعاع كوني. . .» والبواعث الفكرية، والعوامل الاجتماعية. . وغيرها(راجع ص١٧٤). وواجب التشخيص الصيني هو «تعيين الاتجاه الذي انحرف فيه المؤشر عن النقطة المثالية بعناية كبيرة»(ص١٧٥). و«تتجلى في التشخيص الدقيق، بطبيعة الحال، كافة المعطيات ذات الصلة بالفرد، والتي تضررت بالعامل المشوش في ما يخص استقامتها، أي ليس فقط الأعراض الجسدية في الجلد والمجرى الهضمي، واللسان. . الخ»(ص١٧٦)

«يعتمد التشخيص في الطب الصيني على أربع طرق، ألا وهي فحص مظهر المريض بالعين (التأمل) ويندرج فيه تشخيص اللسان كوسيلة مميزة، ثم القصة المرضية عن طريق الاستجواب، تقييم صوت ورائحة المريض، وأخيراً الفحص بالجس، ويعتبر تشخيص النبض فرعاً من الجس، ولو أنه الأكثر أهمية»(ص١٧٧) ولا يستطيع الأطباء الغربيون الذين «يفتقدون الخبرة والخلفية اللغوية والتاريخية-الثقافية على حد سواء، اقتحام الطب الصيني والاستفادة منه إلا عبر الاطلاع العقلاني على منظومته العلمية»(ص١٧٨).

والطب الصيني «يعرف أشكالاً موسمية مختلفة من المرض البشري» وهو لا يعتمد على سمة واحدة من سمات كل مرض(ص١٨٠). والطبيب الصيني يشرك «الشروط المحيطية» في معالجة المرض. . . كما أن سلوك «المريض يلعب دوراً هاماً في التشخيص»(ص١٨١) أما قاموس الطب الصيني العملي فلا «يفهمه سوى الطبيب المدرب»(ص١٨٢) ويفتح التشخيص والمعالجة الصينيان للطبيب الغربي مجالات جديدة كانت حتى الآن مغلقة عليه-مثلما أتاح

الطب الغربي للأطباء الصينيين منذ قرن واحد، بالمقابل، طيفاً واسعاً من الإمكانات العلاجية الجديدة»(ص١٨٣).

وعلى الرغم من «أن الطبيب الصيني لا يقيس أبداً، إلا أن تشخيصاته، غالباً ما تكون أكثر دقة وأكثر تمايزاً ووضوحاً من التشخيص الغربي، وذلك لأنه يربطها بمجموع المعطيات الملاحظة»(ص١٨٧). «ولا تعود أسباب كون الأطباء الصينيين لا يقيسون إلى افتقارهم إلى تقنيات القياس بأي حال، وإنما إلى إلزامات معرفية-نظرية»(ص١٩٢). وتسمح «نظرية الطب الصينية للطبيب بترتيب وتصنيف العدد الكبير من العلامات المرضية وفقاً للأزواج الأربعة من المعايير الرئيسية». والمرض يتظاهر دائماً «بعدد كبير من الأعراض. . .»(ص٢٠٤) وليس لدى «الصينيين أي تجربة مغايرة أو حتى مغلقة على المراقب الغربي. سوى أنهم يرتبون ملاحظاتهم التجريبية تبعاً لوجهات نظر مختلفة عنها في الغرب. كما أنهم تعلموا أيضاً الانتباه إلى أمور وأشياء لا يعيرها المراقب الغربي أية أهمية»(ص٢٠٥) فحاجة الأمراض «البعض الوقت كي تُشفى، هيَ حكمة واضحة وضوح الشمس في الطب الصيني»(٢٠٧). والاطباء الصينيون «يعالجون الاضطرابات فقط دون غيرها -وبالتالي فهم يشخصونها- أمّا الأطباء الغربيون فيعالجون آثار هذه الاضطرابات»(ص٢٠٨) وإلى جانب العوامل المرضية «الخارجية يعرف الصينيون عوامل مرضية داخلية أيضاً، وعوامل مرضية لا هيَ خارجية ولا هي داخلية، أي حيادية»(ص٢٠٩). إن «اخطاء التغذية، فرط الإجهاد الجسدي، والافراطات الجنسية» يعتبرها الصينيون «عوامل مرضية محايدة»(ص٢١٠).

«تعتبر الانفعالات مظاهر غير مباشرة للحالات الطاقوية في الدوائر الوظيفية مما يعني أنه ليس كل ارتكاس انفعالي بمثابة بادرة

للمرض. والأحرى أن يُعتبر غياب الارتكاس النفسي عرضاً مرضياً»(ص٢١٦). ثم إن «الفصل بين الجسد والنفس غير وارد بالنسبة للطبيب الصيني...»(٢١٨) والتفسير الدقيق «للعلامات المرضية» يحتاج إلى التأهيل النظري المتقن والى «الخبرة السريرية»(ص٢٢٣).

يتقدم التشخيص الصيني بأربعة سبل «ألا وهي أولاً التشخيص بالمعاينة، ثانياً التشخيص عن طريق الرائحة والاصغاء، ثالثاً التشخيص بالاستجواب ورابعاً التشخيص عن طريق الجس»(ص٢٢٥). وتشخيص «النبض يزودنا بكافة الحجج التي نحتاجها لتوضيح ما هو نموذجي ومميز في الفكر الطبي-النظري لدى الصينيين» وأهميته تعادل «أهمية الموجودات المخبرية أو الشعاعية أو تخطيط القلب الكهربائي في الطب الغربي»(ص٢٢٧).

«إن التنفيذ الموثوق، أي التطبيق العملي لتشخيص النبض، لا يتطلب ولا يشترط، أبداً، مواهب ما، غير عادية، وإنما، ببساطة، مجرد سلامة الحس والملاحظة الدقيقة، المطلوبتين من كل طبيب في كل الأحوال»(ص٢٢٨). «إن المهارة المطلوبة في تشخيص النبض يمكن مقارنتها بوضوح بالمهارة الضرورية في قراءة كتابة المكفوفين: فالمطلوب من القارئ ليس فقط تدريب حساسية اللمس في أصابعه وقدرتها على التمييز، وإنما عليه أيضاً أن يمتلك مسبقاً فهماً سمعياً وعقلانياً للغة المعبَّر عنها بالكتابة» أي أن يتعلم «لغة مجهولة وغير مسموعة إطلاقاً» وتعالج فيها «مواضيع مضجرة ومزعجة»(ص٢٣٠).

لا شك في أن «اتقان جس النبض يتطلب زمناً طويلاً من الدرس العملي والتمرين». لكنه «لا يشترط أية قدرات خاصة أو حتى غامضة»(ص٢٣١). ويتصف «كل نبض بطوله، وعرضه،

وعمقه. . .»(ص٢٣٥) وتشخيص النبض «قد يتطلب، في حالات استثنائية نادرة، نصف ساعة أو أكثر، غير أن المدة الوسيطة عشر دقائق»(ص٢٤٥). ولا يكمن «الانجاز الرائع للطب الصيني التقليدي في جس النبض، وإنما في تأويل الموجود النبضوي التأويل فائق التمايز والدقيق والقابل للتكرار في الوقت نفسه». وكل فرد لديه نبض فردي يسمح بالتعرف لدى معظم البشر على الخواص المشروطة بنيوياً، المشروطة بالعمر، المشروطة بالجنس، المشروطة فصلياً، المشروطة باسلوب الحياة. . الخ»(ص٢٤٦)

وتشخيص النبض جزء «من المعارف الأكثر وثوقاً والمقسم عقلانياً طبقاً للغرض، والذي يسمح بشكل مأمون بتفريق العلامات ذات الأهمية طبياً عن العلامات العارضة أو العادية، وذلك في ظل التنوع اللا متناهي للعلامات والتبدلات التي ترافق السيرة الحياتية لكل فرد». ومن عوامل أزمة الطب الغربي أنه «يميل إلى إهمال الطرق البسيطة، والأمينة والمجربة التي تتخطى كل قياس مقارن، لصالح طرق غير مؤكدة، غير قابلة للاختبار، ومحدودة، ولكنها في الوقت نفسه غالية الثمن، وذلك بحجة أنها «عصرية»»(ص٢٥١).

عنوان الفصل السادس هو «المعالجة» وأهم ما في المعالجة هو «عدم اقتراف الأخطاء في الحكم على المظهر (اللون) والنبض، ثم تطبيق هذه النتائج دون خطأ»(ص٢٥٣). وتندرج في اجراءات المعالجة الداخلية الصينية «ثروة واسعة وفائقة التمايز من العقاقير» ويعرف الطب الصيني «معالجة خارجية فائقة النوعية تقوم على إجراءات الوخز بالإبر الصينية والتسخين النقطي». كما يعرف الطب الصيني «الحمية الغذائية، التدليك، التطبيقات المائية الخ. .»(ص٢٥٤) والمعالجة «في الطب الصيني منظومة حية، واضحة وعملية للغاية»(ص٢٥٨). ويضع

الطبيب في الممارسة «بعد التشخيص «استراتيجية علاجية» قبل تحرير وصفته. ويقدم الطب الصيني ثماني طرق تتضمن الاستراتيجيات العلاجية الأساسية وهي: ١- احداث التعرق. ٢- الإفراغ عن طريق الفم-الاقياء والتقشع. ٣- الإسهال. ٤-مناغمة الوظائف. ٥- التدفئة الحذرة. ٦- الترطيب أو التبريد. ٧-الإكمال أو بالاحرى الإمداد بالطاقة. ٨- تصريف أو تبديد الطاقة»(ص٢٧٣).

إن هذه الاشارات «إلى الطرق العلاجية الثمانية في الطب الصيني توضح مرة أخرى مدى الإختلاف في نظرة كل من الطبين الغربي والصيني تجاه المريض والمرض» ففي حين يقسم الطب الغربي الأمراض «تبعاً لوجهات نظر ظاهرية، وقبل كل شيء تبعاً «للعوامل المسببة» -ومن بينها التنوع الذي يكاد لا يكون بالامكان الاحاطة به من الفيروسات- يقوم الطب الصيني بالتمييز تبعاً للوظائف المضطربة دون غيرها» وهذا يتيح له الاكتفاء «بطرق علاجية قليلة»(ص٢٨٠). ومع توالد سلالات جديدة «من الجراثيم والفيروسات» يعمل الطب الغربي بلا توقف «على البحث عن أدوية مضادة للسلالات الجديدة المقاومة» وتغدو «التحاليل المخبرية» عالية التكلفة. . (ص٢٨١) والمهم «هو أيّة دوائر وظيفية خرجت عن التوازن ومدى هذا الخروج وفي أي اتجاه»(ص٢٨٣).

إن «تشجيع ماو للطب الصيني التقليدي يعود إلى أزمنة المسيرة الطويلة» إذ كان معدل الوفيات بين السكان مرتفعاً جداً. وقد قام ماو «بتطوير برنامج سياسي-صحي» داعياً إلى: «وحدّوا كافة العاملين في الطب، شباباً وكهولاً، من المدرسة الصينية والمدرسة الغربية، ونظمّوا جبهة موحدة قوية في سبيل تطوير الخدمة الصحية للشعب»(ص٣١٢). ويبدو أنه لا مثيل في العالم كله لتقليد الصينيين في بناء معابد في المدن الكبرى في كل أنحاء البلاد للأطباء الأكثر شهرة، وذلك من أجل إحياء

ذكراهم وإجلالهم» واسماؤهم «مدونة على ألواح في «معابد ملوك الطب»، وقد دونت أعمالهم «من قبل مؤلفين مجهولين. . »(ص٣١٦) والعمل المنظم الأقدم والأكثر اقتباساً منه هو «المؤلف الكلاسيكي الداخلي للامير الأصغر». وهو يذكر منذ «أكثر من (٢٠٠٠) سنة وإلى أيامنا هذه على أنه الخطاب النظري والمنهجي؛ وذلك تقدير يبدو أن ليس له في تاريخ العلوم الطبيعية سوى موازيات قليلة» وتاريخ تناقله «يدعو للحيرة»(ص٣١٧). وفي القرن «الثالث بعد الميلاد وضع المؤرخ (هوانغفو مي) كتابه الشهير: «المؤلف الكلاسيكي المنهجي للمعالجة بالإبرة والتسخين النقطي. وهو يُعتبر أول عمل موثوق تاريخياً حول نظرية وتطبيق الوخز بالابر والتسخين النقطي وقد أقر (المؤلف) أنه استند في ذلك إلى المؤلف الكلاسيكي الداخلي»(ص٣١٨).

أما التقليد التاوي فمن أهم ملامحه المميزة «العلاقة الوثيقة بالطبيعة وملاحظتها الدقيقة. ولذلك يمكننا وصف التاويين بالمصطلح الحديث بأنهم تجريبيون أوائل أيضاً، وبأن تأملاتهم النظرية أقرب الى كونها مرئية»(ص٣١٩) وللتناغم «التام بين الانسان والكون، بين الانسان والطبيعة أهمية قصوى بالنسبة للتاويين من أجل العافية والصحة. وهم يسعون إلى المحافظة على هذا الوفاق والانسجام بشتى الوسائل»(ص٣٢٠) ومعظم الاعتراضات «المرفوعة من قبل نقاد يطعنون بالطب الصيني، ليست سوى افتراضات وهمية لا دمغة غريبة تنهار لدى ملامستها الحقائق في الحال» وهي تشهد على «جهل النقاد المستهتر واستكبارهم»(ص٣٢١). ومع ذلك ثمة أعمال في الطب الصيني «تتضمن تأملات نظرية باطلة لا يمكن الدفاع عنها، أو نصائح بالتعاويذ والرقى، أو اعتقاداً بالسحر، أو ببساطة، عبثاً لاطائل منه». ومع ذلك «لا يمكن الحكم على قيمة الطب الصيني إلا من ضمن المنظومة ذاتها،

كذلك لا يجوز الحكم على أشكال الحشو والشطط والعقائد المضللة إلا بمعرفة نظرية الطب».

إن ملاحظة الطبيعة بلا ضوابط «لا تكفي وحدها لصنع أي علم. فلابد، إضافة إلى ذلك، من وضع الملاحظات والمشاهدات في منظومة واحدة. وذلك يتطلب انعكاساً نظرياً–وهذا بدوره جسَّد قوة الكونفوشيوسية. .» وكان الكونفوشيوسيون «معلمين في التأمل النظري العقلاني» لكن اهتمامهم انصب «على الأخلاق الاجتماعية وعلم النفس. .»(٣٢٣) ولم تفقد الكونفوشيوسية «الاتصال بالخبرة الحية أبداً، ولكنها فيما عدا ذلك كانت تنزع بشدة اكبر الى الحلول التأملية النظرية، الصورية فكرياً. وقد شكلت بتأملها النظري الفعال نقطة معارضة وقطباً مضاداً للتاوية الأقرب من الحياة والخبرة دوما» وتلقى «الطب الصيني دفعات من كلا التوجهين».

إن العلم «مسألة سلطة أيضاً» والسلطة في الصين كانت في يد أتباع الكونفوشيوسية على مدى (٢٠٠٠) سنة على الأقل» وهم لم يروا «في الأطباء، غالباً، سوى حرفيين مهرة قليلاً أو كثيراً»(ص٣٢٤). ولهذا تطور الطب الصيني ببطء شديد وتكتم خيرة الأطباء «على معارفهم ولم ينقلوها سوى إلى عدد ضئيل من التلاميذ. وغالباً ما كان يتم توريث المعرفة الطبية من الأب إلى الابن فقط»(ص٣٢٥) وكان المسن يوصي الشاب قائلاً: «لديَّ وصفات سرية، وأنا رجل كبير في السن وأود أن أورثك هذه الوصفات، ولكن لا يجوز لك أن تفشي منها شيئاً»(ص٣٢٦). ثم خرج المؤلفون على هذه المحرمات وجعلوا المعرفة المؤتمنين عليها «في متناول الجميع، وذلك بتدوينها كتابياً»(ص٣٢٧) وقد تم في الصين «إرساء علم طبي منهجي عبر أربعة أو خمسة قرون من قبل مؤلفين لا نعرف أسماءهم الحقيقية»(ص٣٢٩)

لقد أسس الطبيبان الصينيان رهانغ زهو تجنغ وهوا توو «المعالجة بالماء قبل فنسنت پريسنيتس وسيباستيان كنايپ بسبعة عشر قرناً- وتلك معلومة جديرة بالاهتمام»(ص٣٣٢). «كما أن أقوال هوا توو المتقنة حول الأثر العلاجي والوقائي للرياضة الطبية، لها وقع الحداثة بشكل صريح أيضاً «كل انسان لديه نزوع نحو القيام بالحركة، إلا أن معظم البشر لا يدركون الكمال في ذلك. عندما يتحرك الإنسان يمكنه استهلاك الطاقة المأخوذة مع الغذاء، وتدور العصارات النابضة دون إعاقة، ولا يمكن أن ينشأ المرض. والحال هنا تشبه مفصلة الباب التي لا تصدأ. . الخ»» إن علم الآثار الحالي يؤكد «الوجود المسبق لرياضة طبية متطورة في الصين حول بدء التاريخ الميلادي. وتجد كافة تقنيات التاوية المتعلقة بالموضوع جذورها في هذا التراث. . »(ص٣٣٣)

لم يطرأ على مصطلحات الطب الصيني «سوى بعض التغير في جزئيات قليلة على مدى أكثر من ألف وخمسمائة سنة، إلا أن مضمون المفاهيم كان خاضعاً لعملية شرح وتدقيق مستمرة». وفي القرن السابع شكلت «لجنة من الأطباء أنجزت في غضون سنوات قليلة عملاً لا يستهان به ونتيجة لهذا العمل رفعت اللجنة في عام (٦١٠) إلى العرش «مقالات في منشأ جميع الأمراض» مقسمة إلى خمسين فصلاً. وقد ضم هذا العمل كلاً من التشخيص التفريقي وإنذار(١٧٢٠) صورة مرضية» وقد شكلت «المقالات» «مدرسة في الصين حتى عصرنا الحالي»(ص٣٣٧) وهي «توثيق تخصصي متزن للغاية» وتخدمنا «كمقياس مقارنة لما وصلنا من الطب من أجزاء العالم الأخرى»(٣٣٨) وقد وضع صن سيمو مجموعة مقتضبة «لم تكن مجرد تركيب كامل معقول لمجمل التقاليد الطبية الحية في عصره، فقد هيأ بعمله هذا للتطور المستقبلي أيضاً: تقسيم الطب الى اختصاصات مفردة. . » وتعتبر مجموعته «ينبوعاً لم يستنفد بعد» للمفكرين الطبيين» وللاطباء السريريين أيضاً»(ص٣٤٠).

ومع «دفعـات ازدهار الطب» ثم في الوقت نفسـه زرع بذور انحطاط هذا الطب أيضاً» وبدأ التدهور «في الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر»(ص٣٤٢). وكان ذلك نتيجة «للمفهوم الكونفوشيوسي للعالم الذي تدرب حسب روحه الأطباء الموظفون في المكتب الطبي الأكبر أيضاً»(ص٣٤٣). وحين وصلت الأدوية «المضادة للأمراض الانتانية» و«اللقاحات» إلى الصين «حققت نجاحات مذهلة في الصراع ضد الأوبئة، وإظهار التفوق الواضح تماماً للطب الغربي». وقد تجلت كفاءة الغرب «في كافة مجالات العلوم والتقنية تقريباً. وهذا ما قاد إلى مرحلة من انفتاح الصين على المؤثرات الفكرية القادمة من الغرب» وحظرت الممارسة الأهلية وألغي «علم الأعشاب الخام» عام ١٩١٤(ص٣٤٥). ثم «رفض طلب الحظر» عام ١٩٢٩ وفي «أعقاب تسلم الحزب الشيوعي بزعامة ماو السلطة تم تأسيس أكاديميات للطب التقليدي في سائر المدن الكبرى في جمهورية الصين الشعبية» وطبع «مجمل المراجع باتقان»(ص٣٤٦). وطلب إلى الأطباء «البحث عن تركيب أو توليف بين الطبين التقليدي والغربي...»(ص٣٤٧) وتم «تصعيد التسكين بالوخز بالابر» وهو اكثر واقعية وحصافة مما ينشر حوله(راجع ص٣٤٨) وقد حوفظ «على الطب الصيني التقليدي رغم كافة الظروف المعاكسة»(ص٣٤٩). وتبقى قائمةً مسألة التوفيق «بين المعارف الموروثة من جهة، والمعرفة المؤكدة للطب الغربي الحديث من جهة ثانية»(ص٣٥٠).

الفصل الثامن تحت عنوان هو «الوضع الحالي-الطب الصيني والعلم الحديث» فالطب الصيني «موجود بوصفه معرفة علمية، بوصفه نظرية ذات تماسك نادر، وهو مُصاغ بلغة لا تشترك بشيء مع اللغات الغربية» وهو لايزال «كنزاً من المعرفة مدفوناً» وينبغي استخراجه ونحن

نحاول «إعادة بناء معرفة موجودة، معرفة موجودة مسبقاً بصورة ناضجة في لغة أجنبية»(ص٣٥٤).

إن ما يوصف بانه «تعصب وعدم تحمّل للأفكار الدخيلة لدى «الخصوم» ليس سوى منعكس على العجز الشخصي الخاص، أي على التراجع أمام المتاعب والمشقات الذهنية التي لا يمكن تفاديها، فيما إذا أراد المرء الخروج من مأزق ما إلى دروب جديدة جذرياً»(ص٣٥٥) ولا يوجد في الطب الصيني ولا في «سلوك الأطباء الصينيين» أمثلة تؤيد «ظاهرياً التحيزات الغربية ضد هذا الطب»(ص٣٥٦) وثمة محاولات «للحط من قيمة أعمال مؤلفي الأدب الطبي الصيني» بناء على «اكثر فقراتها ضعفاً وتفاهة . . »(ص٣٥٧) فقد حقق «الصينيون شرطاً يستحق التقدير عالياً على طريق التجديد العلمي لطبهم، وذلك بإصداراتهم الجديدة منذ أواسط الخمسينات، مجمل الادب الطبي التقليدي. ومن المؤسف أن عدداً قليلاً فقط من المعاهد ودور الكتب خارج شرق آسيا قد أدرك الامكانات المعروضة آنذاك وقام باقتناء الاصدارات الجديدة كاملة» . ثم إن «اللغات الهندو-أوروبية غالباً ما لا توفّر مصطلحات وتعابير مكافئة للمعنى الصيني»(ص٣٥٨) ولا يمكن أن «يبدأ التمرين العملي، التدريب السريري وتطبيق الطب الصيني إلا بعد أن يكون المتعلم قد استوعب كافة السياقات المنهجية-العقلانية الهامة»(ص٣٦٠). إن الاستهانة بالفكر الصيني أمر «خطير» . . إن ما ينقص الصين اليوم «في العلم والتقنية هو العلم التحليلي-السببي. أما الذي يعاني منه الطب الغربي خالياً فهو افتقاره التام للعلم التركيبي-الاستقرائي. والحق أن تجاهل عدم التوازن هذا يعني اعتبار الشعرة في عين الخصم عمى تاماً، والخشبة في العين الخاصة مجرد نسمة هواء»(ص٣٦١).

«إن مخيلة الشباب وقدرتهم على التعلم لم تعد تغذى سوى بالمعرفة المعلبة المتناقلة مرات ومرات». إن طب الغرب «قد حاد مبتعداً عن الواقع بالتدريج، مبتعداً عن المرضى، كما ابتعد الطب الصيني عن التعلم من الكتب»(ص٣٦٣) وقد أصاب ماو «عندما دعا الطب الصيني في بلده بـ «متحف نفائس عظيم» ولم يسبق للصينيين أن فتحوا متحف النفائس هذا أمام الغرب كما فعلوا مؤخراً»(ص٣٦٥). «إن الأهمية الخاصة لتوصية منظمة الصحة العالمية لجهة الوخز بالابر تكمن في الإقرار المقترن بها بامكانية تقديم العون للانسان عن طريق آخر أيضاً مختلف عن الطريق المرسوم من قبل الطب المدرسي الغربي»(ص٣٦٦) وليس في الطب الغربي أية معارف «عميقة وشاملة لدرجة تخولها الحكم على قيمة أو علمانية الطب الصيني. وكل مقولة في هذا المجال متوجهة تبعاً للتصورات الغربية فقط، لا بد أن تتحول إلى نوع من التعتيم»(ص٣٦٧) والطب الغربي «يمتلك نواة علمية، وينطوي على ثروة من المعارف المؤكدة...» «إن الهدف ليس استبدال أحادية جانب بأحادية جانب أخرى معاكسة. وإنما نحن بحاجة إلى طب منفتح بصورة شاملة من ناحية الإدراك والملاحظة والمعرفة»(ص٣٦٨).

«تزداد أهمية أدوية الطب الصيني كلما ازدادت إشكالية الإمداد الدوائي العالمي» فإضافة إلى أن «أربعة أخماس الأدوية المطروحة والموصوفة أغلى ثمناً مما ينبغي» تبين أن «بعض الأدوية عديم الأثر أو أنها على الأقل لا تتمتع بالتأثير الذي يُعزى لها من قبل المنتج أو أن للأدوية، الى جانب تأثيراتها الرئيسية المرغوبة، سلسلة من التأثيرات الجانبية تبدد مع الاستعمال المديد الأثر العلاجي للدواء في حقل آخر ثانية»(ص٣٦٩) ويصادف «في عيادات الأطباء وفي أقسام كثير من

المشافي تعايش غير مرض للمنهج العلمي الصارم والتجربة غير الواضحة»(ص٣٧٢). وكل انسان يعلم أن كل ما حولنا «يمارس علينا تأثيرات نفسية ووظيفية بصورة متواصلة، قبل أن يُحدث فينا تبدلات جسدية بزمن طويل، أو دون أن يحدثها في أي وقت» وهي «تتملص من أي تحديد جسدي» في حين تنص «العقيدة الأساسية لمختبر الدواء الحديث على ما يلي: كبرهان على تأثير دوائي، لا يمكن قبول سوى التأثيرات التي يمكن اثباتها وضعياً في أو على تبدلات جسدية»(ص٣٧٣). والدقة الكاملة «غير ممكنة في الاختبار الدوائي على الطراز الغربي إلا حيث يمكن تعريف المقادير الحرجة، أي المادة في بُعد كاف لتكون قابلة للقياس» والعلم الغربي «لا يمتلك أية معايير صريحة وملزمة من أجل التعريف الدقيق والوضعي للوظائف الهامة البدئية..»(ص٢٧٧) وليس ثمة «أي نظام علمي تركيبي-استقرائي يمكن مقارنة معاييره، ولو بشكل تقريبي، مع الطب الصيني، وخصوصاً فيما يختص بمعاييره العرفية». إن اختبار المادة العلاجية «بكافة تأثيراتها الهامة هو المطلب الأكثر بداهة ظاهرياً، ولكنه في الحقيقة الاستحقاق الأكثر إشكالاً وتعقيداً من بين الاستحقاقات المطروحة هنا» فالتأثيرات غير «قابلة للحصر»(ص٣٧٨) ولاعلم لنا «بأي نظام علمي قام باعداد وسائل دقيقة ومتمايزة وعلمية في الوقت نفسه، ولو بشكل تقريبي كالطب الصيني»(ص٣٧٩). إن ثلثي الإصابات المرضية مجرد «اضطرابات وظيفية» والطب الصيني «يمتلك الوسائل المنهجية لتشخيصها وعلاجها» ومن الضروري اخضاع العقاقير المستعملة «منذ قرون عديدة بالذات في دوائر ثقافية أخرى»(ص٣٨٢). إن العقاقير «الطبيعية تتمتع بطيف تأثير أوسع بكثير من المادة الفعالة المعزولة منها..» والمريض «لا يهمه كثيراً مما يتكون الدواء الذي يتناوله، وإنما مدى فائدته

وسلامتها وديومتها . . » والاختبار الدوائي الوظيفي «يقدم المعلومات حول هذه الامكانات والتوقعات بالتحديد»(ص٣٨٤) .

يمتد «ملحق فهرس الكلمات» على (٢٨) صفحة وهو ضروري لفهم النص فهماً أحسن، يليه «فهرس نقدي للمراجع ومزيد من الارشادات للقارئ» ثم «أعمال لمانفريد پوكرت» وصولاً إلى «نطق الكلمات الصينية وطريقة الكتابة المستخدمة في هذا الكتاب» . والكتاب في(٤٦٤) صفحة من القطع الكبير .

إنه كتاب متعب لكنه مفيد، وهو يفتح نافذة كبيرة على عالم كبير جداً يحتاج الغرب الى معرفته والافادة من علومه . . أما نحن، أهل الشرق، فأحرى بنا أن نعرفه أكثر، وأن نفيد منه أكثر .

* * *